موسوعة
عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

16

NOBILIS

موسوعة عالم الأديان

كلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكنائس الإنجيلية والبروتستانتية

مجموعة من كبار الباحثين
بإشراف
ط. ب. مفرّج

موسوعة

عالم الأديان

كلّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الجزء السادس عشر

الكنائس الإنجيليّة والبروتستانتيّة

NOBILIS

طبعة أولى ـ ٢٠٠٤

طبعة ثانية ـ ٢٠٠٥

إسم المَجموعَة	:	موسوعَة عَالَم الأديَان كُلُّ الأديان والمذاهب والفرَق والبدَع في العَالَم
إسم الكِتَاب	:	الكَنَائِسُ الإنجيليَّة والبُروتِستانتيَّة
الجزء	:	السَّادِس عَشَر
المؤلّف	:	مجمُوعَة مِن كبَار البَاحِثين بإشراف ط. ب. مفَرِّج
قياس الكتَاب	:	٢٠ × ٢٨
مَكَان النَّشر	:	بيروت
دَار النَّشر والتَّوزيع	:	NOBILIS
تلفاكس	:	٩٦١ ـ ١ ـ ٥٨١١٢١
	:	٩٦١ ـ ٣ ـ ٥٨١١٢١

المحتويات

الفصلُ الأوَّل

مَارتينُس لوثِرُس

الفَصلُ الثَّاني

الإنشِقَاقُ عَن رُومَا

الفَصلُ الثَّالِث

تعَدُّد الكَنائِس البرُوتِستَانتِيَّة

الفَصلُ الرَّابِع

الكَنَائِسُ الإنجِيلِيَّة فِي القَرنِ الثَّامِن عَشَر

الفَصلُ الخَامِس

الإنتشَارُ البرُوتِستَانتيُّ في العَالَم

الفَصلُ السَّادِس

الكَنَائسُ الإنجِيليَّة والبروتِستانتِيَّة اليَوم

الفَصلُ الأوّل

مَارتِينس لوثِرُس

تَعرِيفٌ بالبُروتستَانِتيَّة؛ مَارتِينس لوثِرُس: نشأتُه وتنسُّكُه؛
مارتينس راهِب باسم أوغسطين؛ مارتينس الأستاذ في جامعة "وتمبرج"؛
إكتشاف الرّحمة؛ مسألة الغفرانات؛ الكتاب المقدّس وحده ينبوع الإيمان.

تَعريفٌ بالبُروتستانتِيَّة

الكنيسة، أو على الأصح: الكنائس البروتستانتيّة، هي الكنائس المسيحيّة الغربيّة التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكيّة تحت تأثير مارتن لوثر[1] وكلفين[2] وسواهما. إنتشرت في ألمانيا والبلدان الإسكندينافيّة واسكوتلندا وسويسرا ثمّ في أميركا الشماليّة. وهي مُتشعّبة إلى كنائس يختلف بعضها عن بعض في عقائدها وقوانينها. أهمّ فروعها اللوثريّة والكلفينيّة والأنغليكانيّة. وتُعرف الفروع الأولى بالكنائس الإنجيليّة. وتعتبر هذه الكنائس الكتاب المقدّس مصدرًا وحيدًا للوحي، ولا تعترف بالكهنوت.

نشأت هذه الكنائس نتيجة ثورة على الكنيسة الرومانيّة، فصلت عنها قسمًا كبيرًا من أبنائها. وتجلّى هذا الإصلاح، في بادئ الأمر، في مظاهر ثلاثة: اللوثريّة والكلفينيّة والأنغليكانيّة. وأصبحت لفظة إصلاح في كنيسة الغرب مرادفة في المعنى للقطيعة. ويقول باحثون كنسيّون إنّ الانقسام هو دائمًا كارثة يبحث الناس عن أسبابها وعن المسؤولين عنها. وكثيرًا ما قيل إنّ عدد التجاوزات قد كثر في الكنيسة، حتّى إنّ بعض المؤمنين يئسوا من تحسّنها فغادروها. لكنّ أكثر المطّلعين يعترفون اليوم بأنّ الأسباب

---

١ ـ مارتن لوثر LUTHER (١٤٨٣-١٥٤٦): راهب أغوسطينيّ لاهوتيّ مفكّر وكاتب، سيأتي تعريف مفصّل به في صدر النصّ.

٢ ـ يوحنّا كلفين CALVEN (١٥٠٩-١٥٦٤) مصلح فرنسيّ، نشر في فرنسا وسويسرا مذهبًا حمل اسمه، أنشأ في جنيف حكومة تيوقراطيّة، له كتاب "الأسس المسيحيّة" جعل منه أكبر لاهوتيّ عرفه الإصلاح، سيأتي تعريف مفصّل به في صدر النصّ.

التي أدّت إلى الإصلاح هي أسباب روحيّة. ذلك أنّ الإصلاح نجم عن التقوى التي شهدتها نهاية القرون الوسطى، تلك التقوى التي كانت بحثًا حارًّا عن المسيح في الإنجيل. وقد ظلّ التحدّث بموضوعيّة عن رجال الإصلاح، ولا سيّما عن لوثر، أمرًا عسيرًا لمدّة طويلة. فصرّح البروتستانت بأنّه كان "طبيبًا قاسيًا"، و"الملاك الذي أرسلته العناية الإلهيّة للقضاء على مسيح روما الدجّال". أمّا الكاثوليك فقالوا إنّه رجل فظّ سكّير كذّاب شهوانيّ، لم يترك الكنيسة إلاّ ليكون حرًّا في إشباع غرائزه"... لكنّ نوعًا من المعادلة قد تمّ منذ بضع عشرات السنين. وأخذ جميع المطّلعين اليوم يعتبرون لوثر رجل إيمان لم يتحرّك إلاّ بدافع من تديّنه. ولم يعد هناك أيّ كاثوليكيّ يشكّ في ما أبدته الكنيسة الرومانيّة من عدم تفهّم وتقصير في هذه المسألة. وفي الوقت نفسه، نرى البروتستانت يسلّمون اليوم بما في شخصيّة لوثر من نقائص، كالعنف وعدم التساهل وشيء من المتعة في شرب البيرة[١]...

مَارتينُس لوثِرُس
نشأتُه وتنسُّكُه

غالبًا ما يبدأ المعرّفون بسيرة مارتن لوثر، من أنّه "نال إجازة في العلوم من جامعة إيرفورت سنة ١٥٠٥". غير أنّ في البدء من هذه المرحلة الكثير من الإهمال، إذ إنّ شخصيّة مارتن لوثر كانت قد تكوّنت قبل ذلك التاريخ، بفعل ما عاشه مارتينُس في حداثته من مصاعب. لذلك لا بدّ من متابعة نشأة "زعيم الإصلاح البروتستانتي" من بداياتها.

---

١ ـ كمبي الأب جان، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، الطبعة العربيّة الثانية، دار المشرق (بيروت،٢٠٠٢) ص٢٣٠.

عائلة لوثِرُس، التي يتحدّر منها الراهب مارتن، أسرة قديمة كبيرة في قرية "مورا" على مقربة من الآجام الثرنجيّة[1] في جرمانيا[2] وكان من عادة القوم أن يرث الإبن الأكبر مسكن أبيه وحقوله وأن يذهب سائر الأولاد إلى حيث يسعون في تحصيل أسباب العيش. وكان من غير الوارثين في تلك الأسرة: يوحنّا، الذي تزوّج "مرغريتّا لندمان" وانتقلا إلى قرية "أيسلبن EISLEBEN" في سكسونيا[3] سعيًا وراء الرزق. وكان يوحنّا مستقيمًا مجتهدًا يشغل أوقات الراحة بمطالعة ما تصل إليه يده من الكتب، وكانت مرغريتّا تقيّة فاضلة كثيرة الصلوات فاتّخذها نساء الجوار مثالاً لهنّ. لهذَين الأبوَين وُلد مارتِينُس لوثِرُس سنة ١٤٨٣، وهو الذي سيُعرف لاحقًا باسم "مارتِن لوثر". وقبل أن يبلغ الشهر السادس، انتقلت العائلة إلى "منسفلدت" القريبة من أيسلبن، وهي قصبة المنطقة التي سُمّيت باسمها. وفي هذه البلدة أخذ مارتِينُس لوثِرُس يشبّ وينشط، وبدأت سجاياه بالظهور من كلامه وأفعاله. وكانت العائلة، في بداية عمر مارتينُس، فقيرة تعاني المصاعب والمشاق. ولمّا تحسّنت حالته المديّة نسبيًّا، أنشأ يوحنّا لوثِرُس مسبكَين للأحرف في منسفلدت، عمل فيهما بكدّ، ومن عمله هذا استطاع يوحنّا أن يحصّل نفقة دروس ابنه. وإذ كان الجميع يحترم يوحنّا لحسن سيرته وأخلاقه وإصابة رأيه،

---

١ ـ نسبة إلى ثُرنجيا: ولاية سابقة في وسط ألمانيا، تتاخمها بافاريا إلى الجنوب، وهِسّ إلى الغرب، وسكسونيا إلى الشرق، أدمجت بعد الحرب العالميّة الثانية في منطقة الاحتلال الروسيّ لألمانيا واندمجت في ألمانيا الشرقيّة وأضحت اليوم جزءًا من ألمانيا الموحّدة.

جرمانيا: إسم أُطلق قديمًا على منطقة واسعة في أواسط أوروبّا، امتدّت من البلطيق حتّى الفيستول والدانوب الأسفل، سكّانها الجرمانيّون GERMAINS، وهم شعب آري حصره الرومان وراء الرين حتّى القرن الرابع عندما غزوا أوروبا الغربيّة.

٣ ـ سكسونيا SAXE: إسم أُطلق أصلاً على الأرض التي كان يقطنها السكسون في العصور القديمة والوسيطة الأولى، وهي سكسونيا السفلى الحاليّة على وجه التقريب، الواقعة شمال غرب ألمانيا، أُعطيت في ما بعد إلى عدّة وحدات سياسيّة أخرى، وفي أواخر القرن التاسع ظهرت دوقيّة سكسونيا الأولى التي شملت أكثر الأراضي الواقعة بين نهرَي الألب والراين، وذلك على أنقاض الأمبراطوريّة الكارولنجيّة.

اختاروه عضوًا في مجلس منسفلدت، فاتّسع عيشه وصفاء ذهنه وعاشر العلماء وخالطهم، ودعا إلى مائدته بعض أعضاء الإكليروس المحلّي، فاستفاد هو وابنه مارتينُس كثيرًا من معاشرة أولئك العلماء الدينيّين، وكانت تلك الأجواء بمثابة الموحية لمارتينُس بأنّ عليه أن يصير معلّمًا أو عالمًا. وكان أبواه يجهدان في أن يغرسا في نفسه الإيمان بالله والفضائل المسيحيّة. وكان من جملة ما تعلّمه في المدرسة أصول الإيمان والوصايا العشر وقانون الرسل والصلاة الربّانيّة وعدّة ترنيمات والنحو اللاتينيّ والتاريخ إلى أن تلقّن كلّ ما يُعلَّم في مدرسة منسفلدت اللاتينيّة. ويقول كاتبو سيرته إنّ والده رغب إذذاك في أن يجعله معلّمًا، فلمّا كانت سنة ١٤٩٧م، وكان مارتينُس قد بلغ الرابعة عشرة، عزم أبوه، رغم الفاقة، على إرساله إلى مدرسة رهبان مار فرنسيس في "مغدييرغ". وهنالك رأى مارتينُس ما كان يعانيه رفاقه من الفقر، وراح يتعرّف إلى العالم بتفاوت مستوى معيشة أهله، وراح يبذل جهده في التحصيل، رغم معاناته إذ كان في ذلك الوقت في حال صعبة لحداثته وفقره، وكان رفاقه أولادًا أشدّ منه فقرًا فكان يستعطي معهم الطعام. وقد صرّح بأنّه كان يطوف مع رفاقه في عيد الميلاد بالقرى المجاورة ويترنّمون للناس بترنيمات الميلاد المعتادة ليحصّلوا بعض الطعام. وإذ أدرك يوحنّا ومرغريتّا أنّ ابنهما يعاني الضيق في مدرسته، نقله والده في نهاية السنة إلى مدرسة "أسناخ" الشهيرة، حيث كان لهم أقرباء، رجوهم أن يساعدوا ولدهم في محنته، ولكنّ أحدًا منهم لم يمدّ له يد العون، ولعلّ سبب ذلك شدّة فاقتهم. مرّة أخرى رأى مارتينُس نفسه مضطرًّا لأن يستجدي، بالترنّم على الأبواب، كما كان حاله في مغدييرغ.

بالرغم من كلّ ذلك، تمكّن مارتينُس من تحصيل العلوم الأدبيّة، ثمّ الفنون الجميلة التي كانت ذات شأن في جرمانيا. درس التلحين والتوقيع على الآلات الموسيقيّة. وإذ

أظهر ميلاً كبيرًا نحو الموسيقى، نظم ترانيم بديعة ووقّعها على ألحان فائقة الجمال، وقد تُرجمت منظوماته إلى لغات كثيرة. ولم يكن مارتينُس لوثِرُس يخجل من أن يعترف بما كان عليه من الضيق والتسوّل لتحصيل القوت الضروريّ، بل كان يشكر اللّه على ذلك لأنّه كان من الوسائل لوصوله إلى ما وصل إليه. وكان يشفق على الأولاد المساكين ويقول[1]:

> لا تستهينوا بالصغار المتسوّلين لأنّي كنت مثلهم. نعم إنّي كنت فتى مسكينًا مستجديًا وارتقيت إلى ما أنا عليه بقلمي، فأنا لا أحسد اليوم أحدًا على رغده، فلو جُمعت ثروات العالم لا آخذها بما أملكه ولكن لولا العِلم ما كنت هكذا.

فلمّا بلغ مارتينُس سنّ الثامنة عشرة، واشتدّ ولعه بالعلوم، مالَ إلى التحصيل الجامعيّ. لكنّ أباه سأله أن يتعلّم الفقه، متوقّعًا من ذلك أن يتمكّن ابنه من مزاولة أشرف الأعمال، ويربح إنعام الملوك، ويصبح علَمًا. فدخل مارتينُس كليّة "إرفرت ERFURT" سنة ١٥٠١، وكان أستاذ الفلسفة فيها "يودوكُس" الملقّب بـ"علاّمة أسناخ". وقد تفرغّ مارتينُس هنالك لدرس فلسفة القرون الوسطى، فسبق جميع أقرانه، وأدهشت نباهته معلّمي الكليّة وإدارتها. وكان مارتينُس في وقت الفراغ من الدرس ينصرف إلى مطالعة الكتب النفيسة التي كانت تغني خزائن المدرسة. وإذ رأى يومًا كتابًا لم يكن قد رآه وقد بلغ سنّ العشرين، نظر فيه فإذا هو الكتاب المقدّس، فقرأ فيه ما لم يكن قد عهده قبلاً. فامتلأ فؤاده بهجة، وودّ لو كان له مثل ذلك الكتاب. وكان يجهل يومئذ العبرانيّة واليونانيّة، وكان الكتاب المقدّس الذي وقف عليه باللغة اللاتينيّة، فقرأه

---

١ ـ أوضح مارت لوثر عن تجاربه وفكره في مؤلّفات إصلاحيّة ثلاثة كبرى نشرها سنة ١٥٢٠ وهي: "نداء إلى الأشراف المسيحيّين في الأمّة الألمانيّة"، و"أسر الكنيسة في بابل"، و"حريّة المسيحي".

مـارتينُس وأخذت تشرق فـي وجدانـه أولـى أشـعّة الحـقّ الـذي حُجـب عـن العـالم قرونًـا، ومنـه بزغـت شـمس الإصـلاح. ثـمّ واظـب علـى دروســه، إلـى أن حصّـل سنة ١٥٠٥ دكتـوراه فـي الفنـون والفلسـفة. وكـانت كليّـة إرفـرت فــي ذلـك العصـر أرقــى معــاهد جرمانيــا وأشــهرها، فــاحتفلت بترقيتــه أحســن احتفــال، وأتـــى الموكب بالمصابيح إكرامًا له، فتشدّد بذلك الإكرام ومالَ إلى تحصيل الفقه كلّ الميل استجابة لأبيه.

عندما دخل مارتينُس دير نسّاك القدّيس أوغسطينُس في إرفرت، ملبّيًا ما أحسّ في وجدانه من دعوة لخدمة الله، تعجّب الرهبان في أمر اختيار التنسّك من قبل شابّ عالم مبرّز في النجـاح، فمدحـوه وأثنـوا علـى شـجاعته واحتقـاره نعيـم الدنيـا. كذلـك عجـب أصدقاء مارتينُس في إرفرت من أنّ ذكيًّا مبرّزًا مثله، كان قد بدأ يدرّس القانون، يذهب إلى الدير و"يدفن نفسه" في حياة التنسّك التي هي، برأيهـم، نـوع مـن المـوت. علـى أنّ مارتينُس دخل الدير وتنسّك.

مارتينُس راهِب
باسم أوغسطين

يذكر كاتبو سيرة مَارتِن لُوثِر أنّه لمّا دخل الدير، ترك اسمه واتّخذ بـدلاً منـه اسم "أغوسطينُس". وقد قبله النسّاك بفرح وافتخروا بأنّ أعظم معلّمي العصر ترك مدرسته ودخل ديرهم، فكان ذلك موافقًـا لكبريـائهم، ومـع ذلـك كـانوا يقسـون عليـه ويحتقرونـه ليبيّنوا له أنّ عمله لا يرفعه على إخوته، ويصدّونه عن الاجتهاد في العلـوم لأن لا نفـع منهـا للديـر. فـاضطرّ ذلـك الأستاذ العظيم لأن يكون بوّابًـا للديـر، وكنّاسًـا للكنيســة،

ومنظّفًا لقلاّيات الرهبان. وكان عندما يفرغ من الخدمة في الدير يأمره الرهبان بأن يحمل كيسًا ويجول في الأسواق ويقف على أبواب البيوت ويتسوّل، ويأمرونه بكثير من مثل هذه الأعمال الوضيعة، فكان يحتمل كلّ ذلك بصبر. ولم تطل هذه العبوديّة لأنّ رئيس الدير، تجاوبًا مع توسّط المدرسة التي كان فيها لوثِرُس، أعفاه من الأعمال الوضيعة، فرجع إلى المطالعة بنشاط وعزم شديدَين.

إنّنا نرى في التعابير التي استعملها كتّاب سيرة مارتن لوثر وفي الصورة التي رسموها بشأن معاملة الرهبان النسّاك له، شيئًا من التجنّي. إذ مَن يطالع طريقة عيش نسّاك دير القدّيس أغوسطينُس في ذلك العصر، يدرك أنّ الرهبان النسّاك لم يعاملوا مارتينُس بشكل استثنائي، بل تلك كانت طريقة زهدهم وإهانة أنفسهم من أجل مجد الله، كما هم يعتقدون. غير أنّ باحثًا مستقلاً قد اكتفى بوصف عيش مارتينُس في ذلك الدير بأنّها "عيشة الناسك الخشنة"[1].

طالع مارتينُس في ذلك الدير مؤلّفات آباء الكنيسة، ولا سيّما مؤلّفات القدّيس "أغوسطينُس[2]" وتفسيره لسفر المزامير وكتابه في الحرف والروح، فتأثّر بالغ التأثّر بآراء ذلك القدّيس في فساد إرادة الإنسان وفي النعمة الإلهيّة، وشعر لِما اختبره في حقيقة ذلك الفساد بالاحتياج إلى تلك النعمة. وكان من أحبّ الأمور إليه استمداد الحكمة من كتاب الله. وإذ وجد في الدير نسخة من الكتاب المقدّس مربوطة بسلسلة، راح يرجع إليها مرارًا، لكنّه لم يكن يفهم سوى القليل منها، ومع ذلك كان

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٣١.

٢ ـ **أغوسطينُس** AUGUSTIN (٣٥٤ ـ ٤٣٠): أسقف هيبون في أفريقيا، تبع هواه في شبابه واعتنق مذهب ماني، ارتدّ بفضل أمّه مونيكا والقدّيس أمبروسيوس، أشهر آباء الكنيسة الغربيّة، خطيب ولاهوتيّ وفيلسوف وكاتب، قاوم البدع الدوناتيّة والبيلاجيّة وحاول التوفيق بين العقل والإيمان، مؤلّفاته عديدة أبرزها: "الإعترافات"، "مدينة الله"، "في النعمة".

يحبّ مطالعتها حبًّا شديدًا، فكان أحيانًا يشغل يومًا كاملاً بالتأمّل في آية واحدة. وكان لوثِرُس يزاول الصلاة والصوم والزهد حسب قوانين النسك الرهبانيّة، ولم يكن من رهبان الكنيسة الرومانيّة مثله في التقى، كما شهد الكثيرون. ولمّا استوحى من الكتب المقدّسة أنّه لا يمكن شراء السعادة الأبديّة بالأعمال، خاب رجاؤه من نفع كلّ أعماله المبنيّة على القوانين الرو يّة. على أنّ لوثِرُس، لم يجد في الكمال الرهبانيّ الموهوم راحة الضمير التي طلبها في الدير، فأراد أن يدرك الثقة بالخلاص لأنّها كانت أعظم غايات نفسه، ولكنّ المخاوف التي اعترته في المجتمع العلمانيّ، تبعته إلى مخدعه في الدير، بل زادت. وكان رهبان ذلك العصر ولاهوتيّوه يشجّعونه على أن يرضي عدل اللّه بأعماله الصالحة. أمّا هو فكان يناجي نفسه بقوله: أيّ أعمال صالحة تصدر عن صاحب مثل قلبي؟ وكيف أستطيع الوقوف أمام الديّان بأعمال نجسة[1]؟... واستمرّ لوثِرُس يعاني ضجيج حرب دائمة في أفكاره، فنحُل جسمه حتّى حاكى الخيال، ووهنت قواه حتّى كاد أن يقع كالميت. وبينما هو على تلك الحال من الصراع، زار الدير في جولة تقليديّة: النائب العام، الذي سيكون له تأثير فعّال على مجرى مسار مارتينُس.

ذالك النائب العام، إسمه "يوحنّا ستوبتز"، وهو يتحدّر من أسرة شريفة. كان في أحد الأديرة الجرمانيّة حيث أُولع منذ صباه بالعلوم والفضيلة معًا. وإذ رأى أنّ العلوم قليلة النفع في النجاة الأبديّة، أخذ في تحصيل علم اللاهوت، واجتهد في أن يُقرن العلم بالعمل، وطالع الكتاب المقدّس وكُتُب القدّيس أغوسطينُس* في

---

١ - يرى كمبي، مرجع سابق، ص٢٣١، أنّ مارتينُس لم يستطع أن يتحرّر من الشهوة ومن الميل إلى الخطيئة. وكان علم اللاهوت في ذلك الزمان يقول بأنّ الله يعمل ما يطيب له، فيخلّص بعض الناس ويهلك بعضهم الآخر.

اللاهوت حقّ المطالعـة، فـأدّى بـه ذلـك إلـى الحكم بصحّـة "الانتخـاب بالنعمـة"، وبـأنّ "الراحة هي بالإيمـان بيسـوع المسيح"، فصـحّ أن يُقـال فيـه إنّـه تلميـذ بولـس الرسـول والقدّيس أغوسطينُس.

تفرّس النائب العام يوحنّا ستوبتز في دير الرهبـان الأغوسـطينيّين بـأحد الأخـوة، وكان معتدل القامة، أضعفه الدرس والصوم وطول السـهر، حتّـى كـاد جلـده أن يشـفّ عن عظامه، وقد غارت عيناه وظهرت عليه إمارات الأسى واضطراب الضمير، ومـع ذلك كان نشطًا ملؤه الحيويّة. ذلـك الشـاب، كـان مـارتينُس لوثِـرُس. وإذ كـان سـتوبتز عميق الخـبرة، أدرك انفعـالات ذلـك الشـاب ومـال إليـه، دون سـائر المحدّقين بـه مـن الأخوة، وحنا قلبه عليه. وسرعان ما سأل رئيـس الديـر أن يلطـف بـه مهمـا اسـتطاع، وقرّب لوثِرُس منه واجتهد في أن يزيل خوفه واضطرابـه الناشـئَين عـن مهابـة أربـاب الرتب السامية، فانفتح قلب لوثِرُس بعدما كان أغلقه جفاء الرؤساء، وانبسط فـي أشـعّة الحبّ والمؤانسة. فكشف لوثِرُس لستوبتز عن أسباب قلقه وحزنـه وأنبـأه بكـلّ مـا هالـه من أفكار. وكان لوثِرُس يرتعـد عنـد تفكيره فـي عدالـة اللّـه، ويعلـن للنـائب العـام مـا يخامره بشأن كلّ ذلك، ويقول:

مَن يحتمل يوم مجيئه؟ ومَن يثبت عند ظهوره؟[1]

وإذ كان ستوبتز يعلم أين الراحة قال له:

لماذا تعذّب نفسك بتلك الشؤون الخطيرة؟ أنظر إلى جراح يسوع ودمه الذي سفكه من أجلك تظهر لك نعمة اللّه! إطرح خطاياك على فاديك ولا تهرب منه، فـإنّ اللّـه غير غضبان عليك، ولكن أنت غضبان عليه.

---

١ ـ التوراة، مل، ٣:٢.

أدرك لوثِرُس، إذذاك، أنّ محبّة اللّـه، هي المودية إلى التوبة. وأخذ يقابل ذلك المبدأ بآيات الكتاب المقدّس المتعلّقة بالتوبة، فرأى الكلمات التي كان يخافها، أوّلاً، والتي كان يظنّها تبعده عن اللّه، إنّما هي تجذبه بسرور إليه. ثمّ إنّ لوثِرُس كان يقلق، فوق قلقه من الخطيئة، من بعض المسائل الكتابيّة ولا سيّما مسألة "الإنتخاب" أو "الإختيار"، فكان في موقف حيرة فظيع، وكان يتساءل:

هل إنّ الإنسان يختار اللّه أو اللّه يختار الإنسان كذلك؟

وأخيرًا، وجد مارتينُس أنّ الكتاب المقدس وتعاليم أغوسطينُس* والتاريخ، تثبّت أنّ اللّه هو الذي يختار الناس للخلاص، فأحبّ أن يتوغّل في ذلك إلى أن يبلغ أعماق أسرار اللّه، ويدرك ما لا يُدرَك ويرى ما لا يُرى. ولمّا انتهى النائب العام من تعليم مارتينُس، استمرّ هو يتدرّب من خلال علاقة مميّزة ومباشرة مع اللّـه. ويقول مارتن لوثر "إنّ ما أتاه ستوبتز، إنّما كان بمنزلة تمهيد الطريق إلى المقصود، فتولّى اللّه إدراك القصد بمَن هو أضعف من ستوبتز، وهو ذلك الراهب الأغسطينيّ مارتينُس لوثِرُس. وكأنّ ضمير هذا الشاب لم يجد الراحة الكاملة قبل ذلك الحين".

مُني مارتينُس، أو الراهب أغوسطينُس، بمرض كاد يقضي عليه. كان ذلك في السنة الثانية لدخوله الدير، فلمّا ظنّ أنّه اقترب من الموت، اشتدّ خوفه لذكره خطاياه وقداسة اللّه. وشرع يطلب في كتب الأنبياء والرسل ما يقوّي الرجاء الذي ملأ فؤاده وصحّة عقله، فعادت إليه صحّته، حتّى شفي من مرضه وحصل على حياة متجدّدة في النفس والجسد. ولمّا مرّ على لوثِرُس سنتان في الدير، وأوشك أن يُسام قسّيسًا، كان قد استنار إلى أنّ رتبة الكهنوت تفتح له بابًا لنفع غيره بما اكتسبه. وقد سامه كاهنًا سنة ١٥٠٧ "إيرونيمُس" أسقف "برنبرغ"، ولمّا أُعطي لوثِرُس سلطان التقديس قال: أقبل سلطان تقديم الذبيحة عن الأحياء والأموات.

مارتينُس الأستَاذ

في جَامعَة "وتمْبُرغ"

قبل أن يُسام مارتينُس كاهنًا بحوالى خمس سنوات، وتحديدًا في سنة ١٥٠٢، كان "فريديريك" ملك سكسونيا قد أنشأ سنة ١٥٠٢م. مدرسة في "وتمبرغ WITTENBERG" وقال إنّه يعتبر، هو وشعبه، تلك المدرسة التي اختارت أغوسطينُس* شفيعًا لها، مدرسة مرشدة. وكان لهذا الاختيار معنى عظيم. وكان لمدرسة وتمبرغ حريّة عظيمة، وكانت بمنزلة مجلس تُرفع إليه الدعاويَ في الأمور الصعبة، فناسبت أن تكون مصدرًا للإصلاح، وساعدت لوثِرُس أحسن مساعدة على تقدّمه وإنجاح عمله فيها كأستاذ. ولم يقف لوثِرُس عند حدّ الفلسفة، فأخذ يبذل الجهد في إتقان العبرانيّة واليونانيّة رغبة في الوقوف على أسرار الكتاب المقدّس. وبعد عدّة أشهر نال رتبة أستاذ في اللاهوت، وكان ذلك في آخر أذار (مارس) ١٥٠٩. وكان يعلّم التلاميذ الدروس اللاهوتيّة لمدّة ساعة كلّ يوم. وبدأ يفسّر المزامير، ثمّ "رسالة القدّيس بولس إلى أهل روما". ولمّا بلغ الآية السابعة عشر من "الأصحاح الأوّل" وهي تقول: "أمّا البارّ فبالإيمان يحيا"[1]، أثّرت فيه كلّ التأثير، فكان لا يبرح مناديًا بذلك القول. فانتشر القول بأنّ الخلاص نعمة إلهيّة بالإيمان لا أجرة للأعمال الصالحة في الأقطار. وقد جذب تعليم لوثِرُس إلى المدرسة العديد من الشبّان الغرباء عن وتمبرغ، وحمل جماعة من المعلّمين على الإتيان لسماع خطبه. ثمّ سأل ستوبتز لوثِرُس أن يعظ في كنيسة "الأغسطينيّين" فأبى ذلك، لأنّه "رغب

---

١ ـ يذكر كمبي، دليل إلى قراءة، مرجع سابق، ص٢٣١، لنّ الآية التي أثّرت في مارتينُس من رسالة القدّيس بولس إلى أهل روما إنّما هي: "إنّ الإنسان يبرّر بالإيمان بمعزل عن أعمال الشريعة" ـ روم، ٣: ٢٨ ـ فالإنسان لا ينال الخلاص بفضل ما بذله من جهود، بل إنّ الله هو الذي يجعله بارًا بنعمته وحدها. يبقى الإنسان خاطئًا لكنّ الله يأتي فيخلّصه من يأسه. وعند ذلك وجد لوثر ما كان يحتاج إليه من فرح وسكينة.

في أن يقتصر على القيام بما يجب عليه للمدرسة". لكنّ ستوبتز لم يعدل عن طلبه، وقد أورد له لوثِرُس خمس عشرة حجّة للاستعفاء من ذلك الطلب. ولمّا لم يقبل ستوبتز أعذاره قال له لوثِرُس: "إنّك، أيّها الدكتور، بالإجابة إلى طلبك، تعدم حياتي، فإنّي لا أقدر على حمل ما كلّفتني إيّاه سوى ثلاثة أشهر". فقال له: وإن يكن ذلك فهو أحسن. فقال لوثِرُس: "فليكن ذلك باسم اللّه". وقد كان وعظ لوثِرُس شديد التأثير في السامعين، وكان وجهه يشرق وهو يتكلّم، وصوته يطرب، فزيّن ذلك مع شدّة حبّه للإنجيل بلاغته وبيانه، فلم يكن لأحد ممّن سبقوه مثلما كان له من إعجاب الناس به، وإقبالهم عليه، واجتهادهم في أن يفهموا كلّ كلمة من كلماته. وقال فيه جاك بوسويه[1]: "كانت فصاحة لوثِرُس مؤثّرة تسحر العقول وتسبي القلوب".

إكتشاف الرَّحمَة

روى لوثر، في نهاية حياته، ما كان في نظره اختباره الأساسيّ: "الخلاص بالإيمان وحده". ويعتقد الكثيرون من المؤرّخين أنّ الحدث يرقى إلى نهاية سنة ١٥١٤.

> كنت قد تحرّقت رغبة في إدراك معنى لفظ ورد في الفصل الأوّل من الرسالة إلى أهل روما، حيث جاء: "فإنّ في البشارة يظهر عدل اللّه"[2]، لأنّي كنت إلى ذلك

---

١ - جاك بوسويه BOSSUET (١٦٢٧ - ١٧٠٤): أسقف مو، وُلد في ديجون بفرنسا، اشتهر بمواعظه وتآبينه الفصيحة ومؤلّفاته اللاهوتيّة والفلسفيّة والتاريخيّة.

٢ - الرسالة إلى روما، ١:١٧.

الحين أفكّر في الأمر باضطراب. كنت أكره عبارة "عدل اللّه"، لأنّ الطرق المألوفة في استخدامها كانت قد علّمتني أن أفهمها بالمعنى الفلسفيّ. فكنت أفهم بها العدل الذي يسمّونه أصيلاً أو فعّالاً، العدل الذي بموجبه يكون اللّه عادلاً، ممّا يجعله يعاقب الخاطئين والمذنبين.

كانت حياتي كناسك لا عيب فيها، ومع ذلك كنت أشعر بأنّي خاطئ أمام اللّه. كان ضميري في أشدّ القلق ولم يكن عندي أيّ يقين أن تكفيري يُرضي اللّه. ولذلك، ما كنت أحبّ ذلك الإله العادل والمنتقم. فكنت أكرهه، ربّما لم أكن أجدّف سرًّا، على أنّي كنت، ولا شكّ، ساخطًا وناقمًا عليه بعنف فأردّد قائلاً: "أوَلا يكفي أنّه يحكم علينا بالموت الأبديّ بسبب خطيئة أجدادنا وأنّه يحمّلنا كلّ ما في شريعته من قساوة؟ وهل يجب أن يزيد عذابنا بالإنجيل وأن يعلن به عدله وغضبه؟".
كنت خارجًا عن طوري، من شدّة اضطراب ضميري. وكنت لا أنقطع عن التعمّق في الآية المذكورة، راغبًا، من صميم قلبي، أن أعرف قصد بولس بقوله ذلك.

وأخيرًا أشفق اللّه عليّ. ففيما أتأمّل ليلاً ونهارًا وأنظر في الترابط بين هذه الكلمات: "فإنّ في البشارة يظهر عدل اللّه"... كما ورد في الكتاب: "إنّ البارّ في الإيمان يحيا"، بدأت أفهم أنّ عدل اللّه يعني هذا البرّ الذي يمنحه اللّه والذي به يحيا البارّ، إنْ كان مؤمنًا. فمعنى العبارة هو كما يلي: يظهر برّ اللّه في البشارة، لكنّ المقصود هو البرّ الذي يبرّرنا به اللّه الرحيم عن طريق الإيمان، كما ورد في الكتاب: "إنّ البارّ في الإيمان يحيا". وشعرت، من ساعتي، بأنّي أولد ولادة جديدة، وبدا لي أنّي دخلت الفردوس من بابه الواسع. ومنذ ذلك اليوم، اتّخذ الكتاب المقدّس كلّه في عينيّ شكلاً جديدًا. فتنقلت من نصّ إلى نصّ، على هدى ذاكرتي، ودوّنت ألفاظًا أخرى يجب شرحها على نحو مماثل، كالعمل الإلهيّ، أي العمل الذي يقوم به فينا، والقدرة الإلهيّة التي يقوّينا بها، والحكمة التي يجعلنا

بها حكماء، والخلاص والمجد الإلهيّ. فبقدر ما كرهتُ عبارة "عدل اللّه" أخذتُ أحبّها الآن من صميم قلبي[1]...

مسألــــة

الغفرَانات

يروي كتّاب سيرة لوثر من البروتستانت المتعمّقين في تفاصيل حياته، أنّه في سنة ١٥١٠، وعلى أثر حصول خلاف بين الرئيس العام لرهبانيّة القدّيس أغوسطين وبين رهبان سبعة أديرة من أديار الرهبانيّة، اختير لوثِرُس وكيلاً ليرفع موضوع النزاع إلى روما. ويعتبر البعض أنّ ذلك الحدث "كان من أعمال العناية الإلهيّة، إذ كان من ضرورات الإصلاح أن يعرف لوثِرُس روما، التي كان يحسبها مقرًّا للقداسة".

ويروي هؤلاء أنّه بوصول لوثِرُس إلى روما قادمًا إليها من وتمبرغ، نزل ضيفًا في دير غنيّ من أديرة الرهبان البنِديكتيّين[2] على شاطئ نهر "بو" في "لومبرديا[3]"، فرُحّب به أحسن ترحيب. وحارَ لوثِرُس، بصمت، في سعة عيش رهبان ذلك الدير

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق،.ص ٢٣٢ - ٢٣٣، عن: لوثر، مقدّمة مؤلّفاته.

٢ - نسبة إلى القدّيس مبارك، أو بنِديكتُس BENOÎT (حوالى ٤٨٠ - ٥٤٧): راهب إيطاليّ، أحد منظّمي الحياة النسكيّة في الغرب ومؤسّس رهبانيّة البنديكتيّين في جبل كاسينو ٥٢٩، وضع دستورًا للحياة الرهبانيّة لا يزال متّبعًا في الكثير من الرهبانيّات الغربيّة؛ حول هذه الرهبانيّة، راجع الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

٣ - لومبَرديا LOMBARDIA: مقاطعة في إيطاليا على سفح جبال الألب، بين سويسرا والبحيرة الكبرى، عاصمتها ميلانو، من مدنها "فاريز"، "كوم"، "كريمونا"، "برغاما".

وفخامة ثياب رهبانه وفخار طعامهم. ولكنّه عندما رأى المائدة عامرة باللحوم في يوم جمعة[1]، لم يستطع الصمت، فقال صارمًا: "إنّ البابا والكنيسة ينهيان عن هذا الرغد". فكان أن اغتاظ الرهبان منه، ووصفوه بـ"الجرمانيّ الخشن". غير أنّ ذلك لم يمنعه عن الاستمرار في توبيخ الرهبان. والمقول، بحسب بعض الكتّاب البروتستانت، "إنّ حاجب الدير حذّره من الخطر على حياته إذا أطال الإقامة". ولكن قد يكون في ذلك بعض مبالغة.

ويروي كتّاب سيرة لوثِرُس أنّه "لمّا اقترب من مدينة روما ذات التلال السبعة، خفق قلبه سرورًا، واشتدّ شوقه إلى رؤية مليكة العالم والكنيسة. ولمّا لمح تلك المدينة جثا على ركبتَيه وقال: السلام عليك يا روما المقدّسة. وتذكّر هناك مشاهير الرسل والفلاسفة ولا سيّما بولس الرسول الذي كتب أنّ "البارّ بالإيمان يحيا".

في خلال مدّة بقائه في إيطاليا التي قاربت السنتَين، اختلط لوثِرُس بعدد كبير من رهبان روما وعامّتها، فرأى بعضهم يمدح البابا و"حزبه"، وبعضهم يتذمّر ويذمّ الحبر الأعظم علانية. في تلك الحقبة، كان على كرسيّ روما البابا يوليوس الثاني (١٥٠٣ ــ ١٥١٣) وهو البابا الذي عزّز سلطة البابوات الزمنيّة، وشرع ببناء كنيسة القدّيس بطرس، وقد شمل بعطفه، بحسب المؤرّخين اللاتين، الفنّانين الكبار وأشهرهم "ميكالنجلو[2]"

---

١ ـ يمتنع المسيحيّون الورعون الأتقياء عن تناول الزفر أيّام الجمعة وهو اليوم الذي صُلب فيه السيّد المسيح.

٢ ـ **ميكالنجلو** MICHELANGELO (١٤٧٥ ـ ١٥٦٤): رسّام ونحّات ومهندس وشاعر إيطاليّ، وُلد في كابريسه توسكانا، كان خصب الإنتاج ومن عباقرة عصر النهضة، من آيات فنّه قبّة كنيسة القدّيس بطرس في روما وتمثال موسى وتمثال العذراء الأمّ الحزينة وسقف كنيسة السيكستينا وفيه تاريخ الكون كما جاء في التوراة من عهد الخليقة إلى يوم القيامة.

"برامانته[١]" و"رافائيل[٢]"، وعقد المجمع اللاترانيّ الخامس (١٥١٢ ـ ١٥١٧) الذي جرت فيه محاولة إصلاح فاشلة. وسمع لوثِرُس كثيرًا من التعليقات المعيبة بحقّ البابا يوليوس الثاني الذي وُصف بالمتسلّط، كما تناولت التعليقات البابا إسكندر السادس[٣] وغيرهما. وأنبأه يومًا أصدقاؤه الرومانيّون قصّة قيصر بورجيا[٤]... وكان يومًا سائرًا في طريق واسع إلى كنيسة مار بطرس فوقف حائرًا أمام تمثال من الحجر لبابا في صورة امرأة قابضة على صولجان وعليها رداء بابويّ وعلى يدَيها طفل، فسأل عنها، فقيل له ما قيل... فأثّر ذلك المشهد في نفس لوثِرُس أشدّ التأثير، وإذا به يقول بعد قليل: "بقدر ما تقترب من روما بقدر ما يزيد المسيحيّون رداءة". وصار كلامه هذا من الأمثال السائدة يومئذ إذ قالوا: "مَن يذهب إلى روما أوّل مرّة، يفتّش عن منافق، وفي الثانية يجده، وفي الثالثة يأخذه معه، لكنّ الناس قد حذقوا فأصبحوا يستغنون اليوم عن الزيارات الثلاث بزيارة واحدة". وكان لوثِرُس كلّما ذكر تلك القاعدة الكتابيّة، وهي القائلة بأنّ "الخاطئ يتبرّر بالإيمان"، تنتبّه غيرته ويشتدّ نشاطه. وقال يومًا:

---

١ ـ دوناتو أنجلو برامانته BRAMANTE (١٤٤٤ ـ ١٥١٤): مهندس معماريّ إيطاليّ وضع تصميم كنيسة القدّيس بطرس في روما وباشر بناءها ١٥٠٦، أثّر كثيرًا على تطوّر فنّ البناء في إيطاليا.

٢ ـ رافائيل RAPHAËL SANZIO (١٤٨٣ ـ ١٥٢٠): من أعظم الفنّانين الإيطاليّين في الرسم والبناء، انتدبه البابا يوليوس الثاني والبابا لاون العاشر لتزيين قصر الفاتيكان فترك لوحات وجدرانيّات شهيرة منها "مدرسة أثينا"، أجاد في تصوير العذراء، نبوغه قائم على التوازن في دقّة الرسم وأناقة الحركة وطلاوة الألوان.

٣ ـ البابا إسكندر السادس بورجيا (١٤٩٢ ـ ١٥٠٣): من بابوات النهضة، انصرف إلى السياسة وبرع فيها، زاغ في حياته الخاصّة.

٤ ـ إنّ ما لدينا عن قيصر بورجيا (نحو ١٤٧٥ ـ ١٥٠٧) أنّه إبن اسكندر السادس، وأنّه اشترك في اغتيال أخيه دوق غانديا ١٧٩٧، حاول إنشاء دولة مستقلّة وراثيّة على حساب الممتلكات البابويّة، اشتهر بقسوته. ولا يشير ما لدينا من مراجع إلى أنّ هذا القيصر قد أصبح صاحب رتبة كنسيّة. أمّا أسرة بورجيا BORGIA فإسبانيّة استوطنت إيطاليا ولعبت دورًا خطيرًا في تاريخها وفي تاريخ البابويّة ١٤٥٥ ـ ١٥٠٤.

إنّ الشيطان يحارب هذا الأصل الأساسيّ بمحاربة معلّميه، فلا يقدر أن يهدأ ولا يستريح. لذلك أنا مارتينُس لوثِرُس المنادي بإنجيل يسوع المسيح بدون استحقاق، أعترف بصحّة هذا الأصل، وهو أنّ الإيمان وحده بلا أعمال يبرّر الإنسان أمام اللّه. وأحكم بأنّه يبقى إلى الأبد، على رغم أمبراطور الرومانيّين والبابا والكرادلة والأساقفة والخوارنة والرهبان والراهبات والملوك والأشراف وجميع العالم والشياطين أنفسهم.

ويروي كتّاب سيرة لوثِرُس أنّه غادر روما ناقمًا حزينًا ووجّه قلبه عنها إلى كتاب اللّه. وأنّ ستوبتز، النائب العام، وفريديريك ملك سكسونيا المنتخب الذي أنشأ مدرسة وتمبرغ لم ينسياه، وحثّه ستوبتز على السير في درب الإصلاح، وإذ رغب، هو والملك، في ترقيته، رأيا أن يُمنح درجة دكتوراه في اللاهوت، فمنحه إيّاها ستوبتز. فقال لوثِرُس إنّه ليس أهلاً لذلك. إلاّ أنّه قبل في النهاية أمام إلحاح النائب العام الذي قال له: "إنّ للربّ إلهنا عملاً عظيمًا في الكنيسة يحتاج إلى نشاط شاب مثلك".

كان يومئذ، "إندراوس بودنستين" رئيس عمدة أساتذة اللاهوت، وكان يظنّ أنّه فوق لوثِرُس علمًا. لكن ظهر له بعد ذلك أنّ لوثِرُس أسمى منه معرفة وبلاغة وقوّة، فمنحه في ٨ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥١٢ أعلى رتبة في المدرسة، وهي رتبة دكتور في اللاهوت. فأقسم لوثِرُس على القيام بما أُوكل إليه. وقال:

أقسم على أنّي أحامي عن الحقّ الإنجيليّ بكلّ قدرتي.

وفي اليوم التالي، قلّده بودنستين ملابس دكتور في اللاهوت في احتفال حضره جمع عظيم. وبذلك فإنّ لوثِرُس المتعمّق في الكتب الإلهيّة، أصبح حرًّا في أن يعلّم بلا

معارض. فنادى بكلمة اللّه بكلّ جرأة. وتقلّد في ذلك اليوم أسلحة المحاماة عن الكتاب المقدّس. وكان لوثِرُس يقول في كلّ مناظرة جمهوريّة:

> إنّ كتب الرسل والأنبياء أثبت وأسمى من آراء المدارس وقوانين علم اللاهوت فيها[1]...

تلك العبارات كانت غريبة على مسامع الناس يومئذ، لكنّهم ما لبثوا أن ألفوها. وقال بعد نحو سنة لبعض أصحابه:

> إنّ اللّه يعمل معنا. ولاهوتنا وتعليم القدّيس أغوسطينُس يتقدّمان تقدّمًا عجيبًا ويسودان في مدرستنا.

في تلك الحقبة، كسب لوثِرُس صديقًا سوف يؤازره طيلة مدّة حياته وهو "جرجس سبالاتين" الذي كان قبلاً كاهنًا راعويًّا في قرية اسمها "هوهنكرخ" قرب آجام ثرنجيا، ثمّ عيّنه فريديريك كاتمًا لأسراره وكاهنًا خاصًّا به ومعلّمًا لإبن أخيه وليّ العهد "يوحنّا فريديريك". وكان سبالاتين بسيط القلب يخاف الحوادث الخطيرة لكنّه كان نبيهًا كمولاه. ولم يكن سبالاتين ممّن يُتوقّع منهم الأعمال العظيمة لكنّه قام بما أنيط به خير قيام. وقد كان في أوّل أمره من أكبر المساعدين، لمولاه فريديريك، في جمع آثار

---

١ ـ في نظر لوثر ينطلق كلّ شيء من اختباره الأساسي: يشعر الإنسان بأنّه خاطئ في أصله، فيكتشف في الكتاب المقدّس أنّ الخلاص يأتيه من الله عن طريق الإيمان وحده، فالله يعمل كلّ شيء، والإنسان لا يعمل أيّ شيء. والأعمال الصالحة لا تجعل الإنسان صالحًا بل الإنسان الذي يبرّره الله هو الذي يعمل الأعمال الصالحة. وبناء على ذلك يرفض لوثر كلّ ما يعارض، في التقليد، أوليّة الكتاب المقدّس والإيمان، وينبذ كلّ ما يبدو وسيلة يزعم الإنسان أنّه يستحقّ بها خلاصه، كإكرام القدّيسين والغفرانات والنذور الرهبانيّة والأسرار غير المذكورة في العهد الجديد. فلا قيمة لأيّ شيء لم يرد ذكره صراحة في الكتاب المقدّس. ولا أهميّة إلاّ لكهنوت المؤمنين الشامل. وأمّا الكنيسة، وهي جماعة المؤمنين وحقيقة غير منظورة، فليس من شأنها أن تنظّم نفسها تنظيمًا ظاهرًا وأن يكون لها ممتلكات.

القدّيسين التي كان فريديريك يحترمها ويعتبرها، لزمن طويل، مرجعًا. لكنّ سبالاتين والملك فريديريك نفسه رجعا عن ذلك الاعتبار إلى الينابيع تدريجًا. فصار سبالاتين صديقًا للوثِرُس في دار الملك، وبوساطته جرى كلّ ما كان بين لوثِرُس والأمراء والكنيسة والحكومة من المناظرات والإصلاحات. وكانت صداقة الملك لسبالاتين عظيمة، فكانا يسافران معًا في مركبة واحدة، لكنّ عادات الدار الملكيّة أزعجت هذا الواعظ الصالح وأحزنته في آن، فرغب في أن يترك تلك الكرامة ويصبح راعيًا وضيعًا، لكنّ لوثِرُس عزّاه وحثّه على البقاء في رتبته فنال سبالاتين اعتبار الأمراء والعلماء. أمّا لوثِرُس، فلم يشغله الجدل عن أموره الروحيّة، ويروى إنّ إيمانه بالمسيح قد ملأ قلبه وحياته. وكان يردّد:

> الإيمان بيسوع المسيح، الذي هو بداءة الأفكار ووسطها ونهايتها، تلك الأفكار التي هي شغل قلبي وضميري، اللذَين يملك، ويجب أن يملك فيهما يسوع المسيح وحده.

كما يروى أنّ سامعي لوثِرُس، كانوا يصغون إليه متعجّبين، وهو يردّد ذلك في المجالس وعلى المنابر. وكان يعجَب الناس من أنّهم لم يكونوا قد عرفوا تلك الحقائق واعترفوا بها مع وفرة وضوحها. ومن أقوال لوثِرُس في تلك الحقبة:

> إنّ رغبة الإنسان في تبريره نفسه علّة جميع أوجاع نفسه. ومَن يقبل المسيح مخلّصًا يتمتّع بالسلام وطهارة القلب. فإن ذلك ثمرة الإيمان. لأنّ الإيمان علم اللّه فينا، يغيّرنا فنولد ولادة جديدة، ويهب لنا بالروح القدس قلبًا جديدًا.

وفي أحد الأيّام، صعد لوثِرُس على منبر وتمبرغ وقرأ في الوصايا:

> لا يكن لك آلهة أخرى أمامي[1].

---

١ ـ سفر الخروج، ٢٠ : ٣.

ثمّ التفت إلى السامعين المزدحمين وقال:

إنّ أولاد آدم كلّهم وثنيّون.

فكان هذا القول غريبًا على مسامع الحاضرين الذين نفروا منه، فقال على الأثر:

> العبادة الوثنيّة نوعان: أحدهما خارجيّ والآخر داخليّ. فالخارجيّ هو السجود للحجر والخشب والحيوانات والكواكب. والداخليّ حبّ العالميّات. أفلا تجثون أمام الغنى والرفعة وتقدّمون لهما قلوبكم التي هي أشرف أجزائكم؟ فأنتم تعبدون اللّه بالجسد وتعبدون الخليقة بالروح.

كان في ذلك الوقت، هياج في جرمانيا بسبب بيع الغفرانات، فارتفعت أصوات باعتها وازدحم شراتها فجال تجّارها في البلاد، وكان الإكليروس يخرج لملاقاتهم بالرايات، والنساء والرجال بالشموع وهم يرنّمون، حتّى قال أحد المؤرّخين إنّه لو أقبل اللّه عليهم ما استطاعوا أن يكرّموه أكثر من ذلك الإكرام، وبعد السلام يتّجه الموكب إلى الكنيسة وقدّامه براءة البابا على وسادة من المخمل أو على رقعة من ذهب ويليها رئيس الباعة والبخور يوقد قدّامهم بالترانيم والتوقيع على أدوات الطرب المختلفة، وتعلّق راية البابا على صليب قدّام المذبح فيأتي الإكليروس والمعرّفون بقضيب أبيض كلّ يوم بعد صلاة العشاء ليكرّموا ذلك الصليب برايته.

هاجت بذلك انفعالات أهل المدن الجرمانيّة. وكان أكثر مَن تتوجّه إليه الأنظار في ذلك الوقت، بحسب المراجع البرونستانتيّة، رجل من الباعة يحمل صليبًا أحمر يأتي معظم الأعمال وعليه لباس دومينيكانيّ، خشن الصوت، تغطّي وجهه علامات الكبرياء، ويبدو منه نشاط غريب وهو في سنّ الثالثة والستّين اسمه "دائر تنزل"، أحكم العلوم في "لايبسيغ LEIPZIG" مسقط رأسه ومُنح رتبة بكالوريوس علوم سنة ١٤٨٧. وبعد سنتَين دخل الرهبانيّة الدومينيكانيّة وصار معلّم لاهوت ورئيس الرهبانيّة وقاصدًا رسوليًا

وعضوًا من ديوان التفتيش، ومُنح سلطان بيع الغفرانات فمارسه بلا انقطاع. فكان دخله ثمانين "فلورين" شهريًّا فوق نفقته، وكان له عربة وثلاثة أحصنة، على أنّ دخله من غير رتبته القانونيّة كان أكثر من نفقته، فإنّه ربح سنة ١٥٠٧، في فريبرغ ألفَي فلورين في يومَين، وذكر مؤرّخو البروتستانت أنه كان يحمل صفات خلقيّة سيّئة عديدة نحجم عن ذكرها. وقد أمر الأمبراطور "مكسيميليان" أن يوضع في كيس ويُلقى في البحر، لكنّ فريديريك ملك سكسونيا شفع به فنجا. غير أنّ ذلك لم يفده شيئًا من الحشمة والأدب. ولم يكن مثله في كلّ جرمانيا أهلاً للاتّجار بالغفرانات والتفتيش بوقاحة لا نظير لها. ومن أقواله: "إنّ الغفرانات أشرف مواهب اللّه وأثمنها"، و"تعالوا اشتروا أنا أعطيكم صكوكًا مختومة بالمغفرة لكم بما ترتكبونه من الآثام في المستقبل". وقوله: "إنّي لا أرضى بعمل القدّيس بطرس في السماء بدلاً من عملي لأنّي خلّصت بغفراناتي نفوسًا أكثر من النفوس التي خلّصها بطرس بمواعظه". و"ليس من خطيئة تعصي هذه الغفرانات حتّى لو أهان أحد مريم العذراء وهو أثم لا مغفرة له وأدّى ثمن الغفران غُفر له". و"إنّ كلّ خطيئة مميتة توجب عليكم عقاب سبع سنين بعد الاعتراف والندامة في هذه الدنيا أو في المطهر فكم ترتكبون مثل تلك الخطيئة في الشهر والسنة وكلّ أيّام الحياة، فهذه كلّها تُغفر لكم دفعة واحدة بمشترى الغفران ولا شيء من الخطايا يبقى معه". و"إنّ الغفرانات تنفع الأحياء والموتى... أمَا تسمعون آباءكم وأقاربكم وأحبّاءكم الموتى يصرخون من أعماق الهاوية إنّا نقاسي عذابًا شديدًا وقليل من صدقاتكم يخلّصنا وأنتم قادرون على ذلك ولا تفعلون؟". و"إنّه في الدقيقة التي تطنّ فيها النقود في أسفل الصندوق تنجو النفس من المطهر وتطير إلى السماء".

وما زال "تنزل" بين ترغيب في شراء الغفرانات وتوبيخ على عدمه حتّى ارتعد الناس وأقبلوا على ابتياعها. ومن جملة ما نادى به ما خلاصته "أنّ الندامة والاعتراف

ليسا بضروريَّيـن لمَن يلقي الدراهم فـي صندوقـه". وجوهر تعليمـه "أنّ مَن يشتري الغفران له أن يفعل ما شاء فهو من الناجين من جهنّم والفائزين بالفردوس السماويّ في كلّ الأحوال". وكانوا يعيّنون ثمن الغفران بالنسبة إلى حال المشتري فيأخذون من الغنيّ كثيرًا ومن الفقير قليلاً. ومن جملة ما راجت الغفرانات به أنّ "تنزل" جعلها أنواعًا فكان ثمن الغفران لخطيئة إكثار الزوجات ستّ دوكات، وخطيئة تجيس المقدّسات تسع دوكات، وخطيئة القتل ثماني دوكات، وخطيئة العرافة دوكتَين. وكانت الأثمان التي عيّنها بائع الغفرانات الآخر "سمسُن" في سويسرا تختلف عن أثمان "تنزل"، فقد جعل السويسري ثمن المغفرة لخطيئة قتل الطفل أربعة فرنكات، وخطيئة قتل الوالد والأخ دوكة واحدة[1]...

وتروي المصادر البروتستانتيّة أنّه فيما كان لوثِرُس جالسًا على كرسيّ الاعتراف في وتمبرغ أتاه كثيرون من أهل المدينة واعترفوا له بالآثام الفظيعة فوبّخهم وحثّهم على ترك تلك الآثام فأبوا، فعجب من ذلك وقال لهم إنّه لا يحلّهم ما لم يعدوا بإصلاح سيرتهم، فعرضوا عليه ما اشتروه من أوراق الغفرانات، فقال لهم: إنّ هذه الأوراق لا تغني شيئًا فإن لم تتوبوا فكلّكم تهلكون[2]. فرجع سكّان وتمبرغ برعدة عظيمة وسرعة

---

١ ـ تقول تامصادر البروتستانتيّة إنّه لمّا بلغ لوثِرُس خبر "تنزل" قال بغضب: سوف أجعل تجارته كاسدة إن شاء اللّه. ولمّا رجع "تنزل" من برلين نزل على المنتخب "يواكيم" فرحّب به. وكان ستوبتز يذكر للملك المنتخب فريديريك شرور الغفرانات وسوء سيرة باعتها، وغاظت هذه التجارة أمراء سكسونيا ومنعوا تاجرها المذكور من دخول ولاياتهم فاضطرّ أن يبقى في تخوم عضده رئيس أساقفة مغديبرغ في "يوتربوخ". فقال لوثِرُس: إنّ هذا التاجر أخذ يتّجر في كلّ البلاد حتّى أخذت الدراهم تقفز إلى صندوقه وتسقط برنين، فإنّ الناس أقبلوا أفواجًا من وتمبرغ إلى سوق الغفرانات في يوتربوخ". وكان لوثِرُس إلى ذلك الوقت كثير الاحترام للكنيسة والبابا.

٢ ـ جاء في المصادر البروتستانتيّة: إتّفق أنّ "تنزل" أبى أن يحلّ امرأة غنيّة في مغديبرغ ما لم تعطه مئة فلورين سلفًا، فاستشارت معرّفها الخاصّ، وهو من الرهبانيّة الفرنسيسكانيّة، فقال لها إنّ اللّه يغفر الخطايا مجّانًا ولا يبيعها، وأوصاها أن تكتم عن "تنزل" ما قاله لها، ولكن بلغ الخبر تاجر الغفرانات فقال: إنّ الذي أشار عليها يستحقّ أن يُنفى أو يُحرق.

إلى "تنزل" وقالوا له "إنّ راهبًا أغسطينيًّا استخفّ بأوراقك"، فهاج وصرخ على منبره يقذف من فمه اللعنات والشتائم[1]. وأمر مرارًا كثيرة بإيقاد النيران في الأسواق إرهابًا للشعب، وأعلن أن البابا أمره بإحراق كلّ مَن يتجاسر على إبطال غفراناته القدسيّة أو الاستخفاف بها، وهذا كافٍ لدفع تهمة خصوم لوثِرُس بأنّه مقت الغفرانات حسدًا من منح تلك التجارة للدومينيكيّين دون الأغسطينيّين، فإنّها عُرضت أوّلاً على رهبان مار فرنسيس ولم يقبلوها، والأغسطينيّون كرهوها من أوّل أمرها[2].

فيما يرى باحثون كاثوليك[3] أنّ لوثر كان سوداويّ المزاج حمله طبعه العبوس على الإقتناع بأنّ الطبيعة البشريّة فاسدة، فلا يتمكّن الإنسان من نيل الخلاص الأبديّ إلاّ بواسطة الإيمان وحده. وقادته الظروف إلى مقاومة الكنيسة. ويلخّص هؤلاء

---

١ ـ من روايات المصادر البروتستانتيّة حول مسألة الغفرانات أنّ امرأة إسكافيّ ابتاعت ورقة غفران بـ"فلورين" رغم زوجها ثمّ توفّيت. وإذ لم يقدّم زوجها القداديس لراحة نفسها، وبّخه كاهن الرعيّة، وشكاه إلى الوالي الذي أمره بالإتيان إلى المجلس فذهب، وقد حمل ورقة الغفران التي ابتاعتها زوجته، فلمّا وقف في حضرة الوالي قال له: هل ماتت امرأتك؟ فقال: نعم. فقال الوالي: وهل قدّمت شيئًا من القداديس لأجل راحة نفسها؟ فقال: لا، لأنّها لا تنفعها شيئًا فهي دخلت السماء. فقال الوالي: كيف علمت؟ فأخرج الورقة وناوله إيّاها فقرأها الوالي على مسمع كاهن الرعيّة وكان فيها ما نصّه: "إنّ المرأة التي لها هذه الورقة لا تذهب إثر موتها إلى المطهر بل تذهب رأسًا إلى السماء". فقال الزوج: "إذا كان الكاهن يقول بضروريّة القدّاس فإنّ الأب الأقدس قد خدع زوجتي، وإلاّ فالكاهن يحاول أن يخدعني". فأطلق الوالي سبيله.

٢ ـ تروي المصادر البروتستانتيّة أنّ لوثيروس، امتثالاً لكلام اللّه وحبًّا للناس، وقف على المنبر وحذّر سامعيه برفق من قبول تلك الغفرانات. وكان أميره قد اشترى من البابا غفرانًا خاصًّا لكنيسة صرحه في وتمبرغ لكنّ ذلك لم يمنع لوثِرُس من إعلان الحقّ. وأخذ يفنّد الحجج التي لأجلها أُنشئت تجارة الغفرانات، وقد كان برأيه من الحسن أن يبذل الناس بعض أموالهم حبًّا للّه لبناء كنيسة مار بطرس لا أن يشتروا الغفرانات، فـ"يجب علينا أن نحثّ الناس على الإيمان والتوبة فيعرضوا عن ابتياع الغفرانات".

٣ ـ يتيم المطران ميشيل والإرشمندريت أغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، منشورات المكتبة البولسيّة، ط٤، (بيروت، ١٩٩٩) ص٢٦٠ ـ ٢٦٢.

الباحثون سبب ثورة مارتن لوثر في أنّ البابا لاون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) أراد أن يبني كنيسة القدّيس بطرس، فمنح المتبرّعين لبنائها غفرانًا كاملاً يزيل عنهم عقوبات الخطيئة الموقّتة، شريطة أن تكون نفسهم في حال النعمة المبرّرة. فناهض لوثر قضيّة الغفرانات هذه سنة ١٥١٧[1].

وفي موضوع الغفرانات، رت مراجع أخرى أنّ الرهبان الدومينيكان كانوا ينادون بالغفران، لتغطية نفقات رئيس أساقفة "ماينس MAYENCE"، إذ كان عليه أن يدفع رسومًا لأنّه يجمع بين ثلاث أبرشيّات، وللإسهام في بناء كنيسة القدّيس بطرس في روما، فقال أحد الوعّاظ: "كلّما رنّت قطعة نقود في أسفل الصندوق صعدت نفس إلى السماء". فاستاء لوثر وألصق "القضايا الـ٩٥ على باب كنيسة قصر فيتنبرغ[2]. وكان عمله هذا احتجاجًا ودعوة إلى النقاش مع أساتذة الجامعة. فقد رفض لوثر ذلك "الاطمئنان الكاذب" الذي توفّره الغفرانات لأنّ المسيحيّ لا يستطيع أن يشتري النعمة

---

١ ـ تقول مصادر كنسيّة مستقلّة: بما أنّ الغفران بمقتضى تعليم الإنجيل يُحصل عليه مجّانًا، ثار لوثِرُس على باعة الغفرانات، وتمسّك بالمبدأ الحقّ، وهو الذي كان ابتداء استنارته القول بأنّه بمناداته والتبرير بالإيمان وضع الفأس على أصل الشجرة. ويجب أن يُعلم هنا أنّ لوثِرُس كان يوم علّق القضايا الـ٩٥*، لا يشكّ في سلطان كرسيّ روما، ولكن في إبطاله تعليم الغفرانات كشف بدون قصد ما لا يرضي البابا من أغلاطه، إذ رأى البابا أنّها توقع الشبهة في رئاسته. ولوثِرُس لم ينظر حينئذ إلى بعيد، ولعلّه شعر ذلك فلطّف الأمر على قدر ما استطاع مع مراعاة الحقّ، فأعلن تلك المبادئ على هيئة دعاوٍ طلب رأي العلماء فيها وذيّلها بقوله ما خلاصته إنّه لم يقصد أن يطعن بشيء في الكتب المقدّسة أو آباء الكنيسة أو حقوق الكرسيّ الرومانيّ أو أحكامه.

٢ ـ تقول المصادر البروتستانتيّة إنّ عيد جميع القدّيسين كان من خير ما يعظّمه أهل وتمبرغ ولا سيّما المصلّين في كنيسة جميع القدّيسين التي بناها الملك المنتخب وملأها من الذخائر المقدّسة، فكان الخوارنة يُخرجونها في ذلك العيد مزيّنة بالفضّة والذهب والحجارة الكريمة ويعرضونها على الشعب. وكان كلّ مَن يزور تلك الكنيسة ويعترف في ذلك العيد يُعدّ أنّه نال غفرانًا وافرًا، فكان الزوّار يأتونها في ذلك اليوم أفواجًا. وفي ٣١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥١٧ ذهب لوثِرُس إلى تلك الكنيسة وعلّق عليها خمسًا وتسعين قضيّة منافية لتعليم الغفرانات، ولم يخبر بذلك الملك المنتخب ولا أحدًا من أصدقائه المقرّبين. وقال في مقدّمتها إنّه كتبها رغبة في إظهار الحقّ وإنّه مستعدّ لإثباتها والدفاع عنها، فالتفت إليها الناس كثيرًا وقرأوها وتناقلتها الألسن.

التي يعطيها الله مجانًا[١]. وعندما علّق لوثِرُس قضاياه لم ينبرِ أحد لإبطالها، لأنّ تجـارة الغفرانات كانت مذمومة فلم يتجاسر على الانتصـار لهـا إلاّ "تنزل*" وأتباعـه. ويقـول البروتستانت "إنّ قضايا لوثِرُس انتشرت في كلّ جرمانيا بسرعة الـبرق وأنـذرت بهـدم أسوار البابويّة وقلب أعمدتها، ونبّهت الألوف من رقاد الضلال. وما مرّ شهر من يـوم تعليقها إلاّ بلغت روما. وقال أحد المؤرّخين إنّهـا ذاعـت فـي أسبوعَين فـي كـلّ أقسـام جرمانيا وفي أربعة أسابيع وُزّعت في كلّ جرمانيا كأنّ الملائكة حملتها إلى الناس. وما مرّ قليـل إلاّ تُرجمـت إلـى الهولّنديّـة والإسـبانيّة وباعهـا بعـض المسـافرين فـي القـدس الشريف"[٢].

الكتَــاب المقــدَّس
وَحده ينبُوع الإيمَان

ثمّ لفتَ لوثِرُس الخرافات التي ملأت، يومئذ العالم، المسيحيّ، كـالخطوط السـريّة، والعرافـة، والإيمـان بـالأحلام، وتـأثير الكواكـب، والسـحر، والفـأل أو الحـظّ، والجـان، وحراسة القدّيسين، وغير ذلك ممّا شابه، فأبطلها وطرح كلّ الآلهة الكاذبة مـن الإيمـان

---

١ ـ كومبي، دليل إلى قراءة، مرجع سابق، ص٢٣٢.

٢ ـ كثيرون من الذين أتوا وتمبرغ للاحتفال بعيد جميع القدّيسين رجعوا إلى أوطانهم بقضايا لوثِرُس حول بدل غفرانات البابا، فسـاعدوه على نشرها. وكان كلّ منهم يقرأها ويشرحها. وتحدّث بها الرهبان في كلّ دير، وابتهج بها كثيرون منهم ورغبوا كلّ الرغبة في أن يواظب لوثِرُس على العمل الذي شرع به. وكان الدكتور "فلاك" رئيس دير "ستبنلاوستز" قد ترك تلاوة القدّاس ولم يعلن لأحد السبب الصحيح لذلك، فوقف يومًا على قضايا لوثِرُس فأخذ يقرأها وما تلا قليلاً منها حتّى قال وهو يعجز عن ضبط نفسه من شدّة الفـرح: "هذا ما انتظرناه زمنًا طويلاً"؛ ولمّا وصلت هذه القضايا إلى أسقف أودسبرغ قرأها بابتهاج لا يوصف، وقال جهارًا إنّ رأي لوثِرُس يوافق رأيه، ثمّ كتب إلى الملك المنتخب فريديريك يسأله أن لا يدع الدكتور مارتينُس التقيّ ينطلق لأنّهم يخسرونه. ففرح الملك بذلك وأخبر به المصلح بخطّ يده.

المسيحيّ. وإذ كان لوثِرُس ملتزمًا في حياته الشخصيّة بأقواله، قبل تعاليمه كثيرون، ومال إليه محبّو الحقّ والفضيلة، وانتصر له الأمناء اللاهوتيّون ولا سيّما أحكم أهل عصره: إيراسموس[1] خصم لوثِرُس الشهير، ولهذا تجدّدت أذهان أبناء مدينة وتمبرغ التي أضحت مصدر نور وإشعاع انتشر بسرعة في سائر أنحاء جرمانيا.

ومن المحفوظات عن لوثِرُس ما كتبه إلى صديقه جرجس سبنلين، أحد إخوته في الرهبانيّة، يرشده إلى أنّ "الخلاص نعمة لا أجرة أعمال". واهتمّ لوثِرُس بإثبات أمرَين هما: "عجز الإنسان وقدرة اللّه". فـ"إنّ الديانة والفلسفة اللتَين تدّعيان القوّة الذاتيّة للإنسان هما رديئتان وتبيّن باطلهما بالامتحان مرارًا"... و"إنّ الإنسان، بقوّة الطبيعة، بلغ مبلغًا عظيمًا من معرفة ما يتعلّق بوجوده الزمنيّ، ومع ذلك لم يستطع أن يمزّق حجاب الظلمة بين عينَي بصيرته والإله الحقّ". و"أسمى الحكمة التي أدركها أولو الألباب السامية والآراء الثاقبة، هي اليأس من أنفسهم. فالتعليم الصحيح هو الذي يثبت لنا أنّنا عاجزون لكي نعلم أنّنا لا نستطيع أن نعمل شيئًا من الصلاح إلاّ بقدرة اللّه".

باحثون كاثوليك يرون أنّ لوثر كان رجلاً عبقريًّا وعَلَمًا من أعلام زمانه، امتاز بقوّة التفكير وحُسن البيان. ولمّا أصبح لوثر في مأمن أخذ يكتب كتابات تخالف تعليم الكنيسة الرومانيّة وهي تدور حول الأفكار الرئيسيّة الثلاثة:

١ - ليس للبابا سلطة على الكنيسة الجامعة، وليس للكنيسة أن تحتفظ بممتلكات ماديّة.

---

١ - إيراسموس ERASMUS (حوالى ١٤٦٩ - ١٥٣٦): من مشاهير رجال الفكر المسيحيّ في عصر النهضة، وُلد في روتردام هولندا وتوفّي في بال سويسرا، طرق أكثر المواضيع دقّة بتروٍّ وعمق، جال أوروبّا بطلب الكتب القديمة، له طبعة العهد الجديد الأولى باليونانيّة مرفقة بترجمة لاتينيّة.

٢ ـ لا يتبرّر الإنسان بالأعمال بل بالإيمان فقط، وتبرير النفس إنّما هو غشاء يخفي ما فيها من دنس ولا يُزيله عنها.

٣ ـ الكتاب المقدّس هو ينبوع الإيمان وحده، ويحقّ لكلّ إنسان أن يفسّره تفسيرًا خاصًّا حسب إلهام الروح القدس[١].

ويرى هؤلاء الباحثون أنّ الأوضاع الدينيّة كانت تدعو إلى الإصلاح، فنادى بها الراهب لوثر. ولكنّه رأى الأمور من جانب واحد ولم يأخذ بعين الاعتبار مجمل التعليم الكتابيّ. وتشبّث برأيه فانشقّ عن الكنيسة وحاربها، وأسّس كنيسة جديدة[٢].

فيما يرى أتباع الكنائس اللوثريّة أنّ ما بذره لوثِرُس من التعليم، نبت وأثمر وجاء بغلال وافرة. فإنّ كثيرين من تلاميذه ساقتهم ضمائرهم إلى الإقرار بالمبادئ التي أثبتتها مباحث أستاذهم، ومن بين هؤلاء شاب اسمه "برنردس فلدكرخن" الذي كان أستاذ الفلسفة الأرسطيّة في المدرسة الكليّة، فكان أوّل مَن تزوّج من القسوس الإنجيليّين، وهذا الشاب نادى ببعض المبادئ التي قال بها لوثِرُس من أسفار الوحي، فانتشرت كلّ الانتشار، وأخذ لوثِرُس يناظر بها. وفي مناظرة جرت سنة ١٥١٦، شنّ لوثِرُس أوّل هجوم له على سلطة مَن دعاهم "أهل السفسطة والبابويّة"، ولكن يبدو أنّ مناظرته تلك كانت ضعيفة، إذ قال فيها، هو نفسه، بعد سنين طويلة: "أسمح بطبع هذه القضايا لكي لا أسقط في العجب والكبرياء بعظمة العمل الذي شرعت فيه والنجاح به، فإنّها تظهر ضعفي وقوّة اللّه". ومن القضايا التي جاءت في تلك المناظرة:

١ ـ إنّ الإنسان الذي لا نصيب له من النعمة الإلهيّة لا يقدر أن يحفظ وصايا اللّه، أو أن يعدّ نفسه لقبول النعمة بل يبقى تحت سلطان الخطيّة.

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٦٠ ـ ٢٦٢.

٢ ـ المرجع السابق.

٢ - إنّ الإنسان بدون النعمة، ليس بحرّ مخيّر في أن يفعل ما يريد، بل هو عبد مسيّر صار إلى العبوديّة برضاه.

لقد أحدثت المناظرة في هذه القضايا ضجّة كبرى في الأوساط المحيطة، حُسبت بداية الإصلاح. إذ ظهر أنّ ساعة الإصلاح قد دنت. ولمّا بنى الملك كنيسة جديدة في وتمبرغ على اسم "جميع القدّيسين"، أرسل ستوبتز إلى هولّندا ليجمع لها الذخائر، فعيّن لوثِرُس ليقوم مقامه في مدّة غيابه، ويزور الأربعين ديرًا في "مسنيا" و"ثرنجيا". فذهب لوثِرُس أوّلاً إلى "كرما" ثمّ إلى "درسدن"، واجتهد في كلّ مكان ليذيع الحقّ الذي اكتشفه ويرشد إليه أبناء رهبانيّته. ثمّ ذهب من درسدن إلى "أرفرث" ليقوم بأعمال النائب العام في دير كان يذير فيه الساعة، ويفتح الأبواب، ويكنّس الكنيسة. وأقام رئيسًا على الدير صديقه "يوحنّا لانغي" العالم التقيّ، وكان قاسي الطبع، فحثّه على الحلم والصبر. وكان في دير "نيوستدت" الواقعة على نهر "أورلا" اختلاف، حيث تناحر الرهبان ورئيسهم، ثمّ ثاروا على لوثِرُس بشكاويهم إليه، فألقى الرئيس "ميخائيل دراسل أوترناتو"، كما سمّاه لوثِرُس، بترجمة اسمه إلى اللاتينيّة، كلّ الصعوبات أمام لوثِرُس الذي قال له: أنت تطلب سلام العالم لا سلام المسيح. وبعد ستّة أسابيع عاد إلى وتمبرغ وقد ساءه ما رآه، إلاّ أنّه كان قد زاد معرفة بأحوال الكنيسة، وثقة بنفع مخالطته للناس. فأقام المدارس، ووطّد مبادئ "الحقّ الأصليّ"، كما يقول البروتستانت، ولا سيّما قوله أنّ الكتب المقدّسة وحدها قانون الإيمان وأنّها باب السماء. وحثّ الجميع على الإلفة والعيش بالقداسة والعفّة والسلام، وغرس كثيرًا من المبادئ بين الرهبان في ما زاره من الأديرة الأغسطينيّة، فمالَ العديد من علماء الرهبان إلى مبادئه، وصار كثير من الأديرة موئل رشد لكثيرين من المصلحين. ثمّ رجع لوثِرُس إلى عمله المعتاد، وكثرت عليه الأعمال. فكان معلّمًا وواعظًا ومعرّفًا ومهتمًّا لشؤون الرهبانيّة وناظرًا للدروس وكاتبًا لرسائل كثيرة. وكان قائمًا بعمل أحد عشر رئيسًا، وناظر برك

السمك في "لنزكو"، ومشير حوانيت هرزبرغ في "ترغو"، ومدرّسًا لرسائل بولس، ومفسّرًا للمزامير. ورأى الملك أنّ ترقية النائب العام لوثِرُس إلى الأسقفيّة أقلّ ما يستحقّه من الجزاء، أمّا لوثِرُس فلم يستحسن ذلك وقال: "لماذا تعرّضون هذا الرجل لعواصف الهموم الأسقفيّة؟" ولم يغظ الملك كلام لوثِرُس، إذ كتب سبالاتين إلى لوثِرُس أنّ الملك يحترمه. ولمّا أرسل الملك إلى لوثِرُس شيئًا من المنسوجات النفيسة ليصنعه رداء، كتب إليه لوثِرُس: "إنّ هديّتكم أفخر ما يليق لو لم تكن هديّة ملك عظيم. وإنّي لا أستطيع أن أسمح لك بأن تمدحني أنت ولا غيرك وأحسن أصدقائي مَن ذمَّني. على إنّي أشكر ملكي على معروفه".

وفي سنة ١٥١٧ اتّصل لوثِرُس بـ"الدوق جرجس السكسوني" وكان هذا الدوك يميل إلى الإصلاح حتّى قال كهنة الرعايا إنّه ومارتينُس لوثِرُس رضعا الحليب نفسه. فقد كان الدوق يزعج الأساقفة ورؤساء الأديرة والرهبان بطرق شتّى، وقد شفع ابن عمّه الملك فريديريك بهؤلاء عنده مرارًا. وظهر أنّ الدوق جرجس سيكون من أشدّ أنصار الإصلاح. وفي شهر تمّوز (يوليو) ١٥١٧ طلب الدوق من ستوبتز أن يرسل إليه واعظًا فصيحًا عالمًا، فمدح له لوثِرُس وقال له إنّه علاّمة صالح، فدعاه الملك إلى الوعظ في "درسدن" في كنيسة الحصن يوم عيد القدّيس يعقوب. ولمّا حان الوقت ذهب الدوق وأرباب ديوانه إلى الكنيسة ليسمعوا وعظ لوثِرُس، فاغتنم لوثِرُس فرصة الشهادة للحقّ أمام ذلك الجمهور العظيم فأثّرت كلمة الحقّ في السامعين، وكان اثنان منهم قد أصغيا إليه كلّ الإصغاء هما السيّدة "دي لاسّال" التي كانت في المقام الأوّل عند زوجة الدوق، والآخر "أيرونيمُس أمسر" مستشار الدوق. فخاصم هذا الأخير لوثِرُس بعد ذلك مرارًا. ولمّا جلس الدوق وأهل بيته وأعوانه إلى مائدة العشاء، أخذوا يتحدّثون في موعظة لوثيرس، فقال الدوق للسيّدة دي لا سال: كيف وجدت الواعظ؟

فقالت: "لو سمعتُ واعظًا آخر نظيره لكنت أموت بسلام". واتّفق أنّ تلك السيدة مرضت بعد شهر وتوفّيت... مبتهجة بثقتها بنعمة المخلّص. على أنّ الدوق، مع مقاومته للإصلاح، صرّح عند موته بأنّه لا رجاء له سوى في استحقاقات يسوع المسيح. ودعا أيرونيمُس أمسر لوثِرُس إلى العشاء باسم مولاه فأبى، فألحّ عليه فقبل، وظنّ أنّه لا يلاقي سوى الأصدقاء. ولمّا حضر جلوسًا للطعام رأى أنّهم نصبوا له شركًا، فإنّ أحد معلّمي الفنون من لايبسغ، وكان معه بعض الرهبان الدومينيكيّين وكاتم أسرار الأمير، أخذ يحاور لوثِرُس، وكان هذا المعلّم معتدًّا بنفسه ومملوءًا بغضًا للوثِرُس، فخاطبه أوّلاً بلطف ثمّ احتدّ ورفع صوته كثيرًا وقامت المناظرة في تخيّلات أرسطوطاليس وتوما الإكويني. فطلب لوثِرُس من ذلك المعلّم أن يريه على مذهب التوميّين كيف يستطيع الإنسان أن يقوم بوصايا اللّه، فحاول إقناعه بلا طائل، ثمّ مدّ يده إليه وقال له: أعطني الأجرة. فقال لوثِرُس: عند هذه الحماقة ضحكنا جميعًا وانصرفنا.

رجع لوثِرُس إلى وتمبرغ وأخذ في إعداد سبعة شبّان من طلبة اللاهوت للفحص ليرخّص لهم بالتعليم. وسرّه كثيرًا أن يجد في تقدّمهم وسيلة لتكذيب أرسطوطاليس. وفي نحو تلك الحقبة، نشر لوثِرُس ما يستحقّ النظر في مسألة الاختيار المعروف عند اللاهوتيّين بـ"حريّة الإرادة". وكان الجدل قائمًا في هذه المسألة منذ بدء الديانة المسيحيّة. فإنّ بعضهم، قال بأنّ للإنسان أن يعمل الصلاح ويخلص باختياره، أي بإرادته الحرّة، وأمّا لوثِرُس فنفى ذلك لأنّه نفى أنّ للإنسان اختيارًا كما يتوهّم بعض الناس، بل قال بأنّ الخلاص يكون باختيار اللّه لا باختيار الإنسان، وأنّ الاختيار إنّما هو ما نحتاج إليه، واللّه يعرضه علينا في الإنجيل. ولم يقتصر لوثِرُس في قضاياه على نفي الصلاح عن إرادة الإنسان، بل نفى ذلك عن عقله أيضًا، ففي تلك القضايا التي كانت مقدمة الإصلاح، لامَ لوثِرُس الكنيسة على إضافتها إلى الإنجيل الغفران

البابويّ وما شاكله، والمطهر، وغير ذلك ممّا دعاه "بدعًا" نزعت عن الإنجيل عينه تعليم حكم اللّه المطلق والوحي والنعمة.

في هذا الوقت، كانت قضايا لوثِرُس قد انتشرت في كلّ العالم المسيحيّ ودخلت الدير الذي كان فيه "ميكونيُوس"، فقرأها هو وراهب اسمه "يوحنّا فويغت" مختبئَين، فقبلها وأقرّ بالتعاليم التي نادى بها لوثِرُس. وإذ خاف الرهبان حين سمعوه، أخذوا يجادلونه وتحزّبوا ضدّ لوثِرُس. وغمّ أسقف برندبرغ أن يرى الخصام الشديد في أبرشيّته ورغب في أن يزيله، فأرسل يقول للوثِرُس بواسطة رئيس دير "لانن":

"إنّي لم أرَ في قضاياك على الغفرانات ما ينافي الحقّ الكاثوليكيّ، فإنّي أنا نفسي أرذل تلك المناداة العارية من الحكمة. ولكن رغبة في السلام وإكرامًا لأسقفك أسألك أن تكفّ عن الكتابة في هذا الموضوع".

ولم يسلم لوثِرُس من اللوم حتّى من قبل أعضاء رهبانيّته وديره، لأنّ الرئيس والمرؤوسين خافوا من ضجيج "تنزل" وأعوانه، فذهبوا بقلق إلى مخدع لوثِرُس وقالوا له:

"نسألك أن لا تعرّض رهبانيّتنا للعار، فإنّ سائر الرهبانيّات، ولا سيّما الدومينيكان، فرحوا أشدّ الفرح عندما رأوا أنّهم ليسوا وحدهم تحت العار".

وكان لوثِرُس مع ذلك صابرًا على الملام والتعبير والتهم من قِبَل الخصوم، لأنّه كان ينظر إلى إنقاذ الكنيسة. على أنّه أمام توبيخات أصدقائه وعدم مناصرتهم له، كاد أن يضعف، ولكنّ مقاومات خصومه كانت تشجّعه وتقوّيه. وإذ نهض "تنزل" للدفاع عن الغفرانات، أخذ أوّلاً يفنّد موعظة لوثِرُس التي كانت منزلتها عند الشعب كمنزلة قضاياه عند العلماء، ثمّ أعلن أنّه مستعدّ لمحاربته. فقال لوثِرُس: "إنّ القصاص الذي

يضعه الأب الأقدس لا يمكن أن يكون ما طلبه المسيح، لأنّ ما طلبه الأب الأقدس يمكنه رفعه. ولو كان بمنزلة واحدة لأمكن البابا أن يرفع ما وضعه المسيح وينسخ وصايا اللّه".

ثمّ قال:

"فليدعُني "تتزل" مبتدعًا ومجدّفًا وما أراد من أمثال ذلك وليحتقرني ما شاء، فأنا لا أبغضه ولكن أدعو له كما أدعو لصديق، على أنّي لا أحتمل أن يعامل الكتب المقدّسة التي هي عزاؤنا كما يعامل الخنزير عدل البلّوط".

ثمّ قال:

"يقول خصومنا إنّ الذي يشتري الغفرانات خير ممّن يحسن إلى الفقير الذي لم يصل إلى أدنى دركات الفاقة، وأنا أقول لمَن يسلّمون بذلك، أطعموا الجياع وأكسوا العراة قبل أن يموتوا فإنّهم بعد موتهم لا يحتاجون إلى المساعدة".

على أنّه كان للوثِرُس عزاء من الأصدقاء العلمانيّين ومنهم "خريستوفورُس شيورل" كاتب مدينة نورمبرغ، فهذا كان يحترمه كثيرًا، وقد رغب في إكثار أصدقاء لوثِرُس فسأله أن يهدي أحد مؤلّفاته لـ"إيرونيمُس أبنر" أحد مشترعي نورمبرغ المشهورين، فأجابه بلطف وتواضع بقوله:

"إنّك تعتبر ما أكتبه كثيرًا وأمّا أنا فأستخفّ به ومع ذلك أجيبك إلى ما رغبت فيه، فقد نظرت في مؤلّفاتي فاستحقرتها أكثر ممّا كنت أستحقرها، ولم أجد شيئًا منها يليق بأن يهدى إلى رجل عظيم من حقير مثلي".

ويرى باحثون بروتستانت أنّ في هذا دليل قاطع على أنّ غرض لوثِرُس من قضاياه لم يكن الشهرة، بل الإصلاح الدينيّ فقط. وكان لوثِرُس يطلب نفع الأمّة كلّها،

فإنّ الملك المنتخب كان قد ضرب جزية جديدة وشاع أنّه يقصد ضرب جزية أخرى، فسأل الملك العدول عن ذلك بقوله:

"لا يستخفّ سموّ الملك باسترحام مسكين متسوّل. فأطلب إليك، باسم اللّه، أن لا تضرب جزية جديدة. فإنّ قلبي سُحق كما سُحقت قلوب كثيرين من عبيدك حين رأوا ما حصل من الأضرار باسمك وسمعتك. نعم إنّ اللّه منحك فهمًا ساميًا حتّى أنّك تدرك هذه الأمور أحسن ممّا أدركها وممّا يدركها رعاياك، ولكن ربّما كانت إرادة اللّه أنّ عقلاً حقيرًا يرشد عقلاً عظيمًا لكي لا يثق أحد بنفسه، بل يتّكل على الربّ إلهنا وحده، وأسأله تعالى أن يحفظ صحّة جسدك لنفعنا وصحّة نفسك للسعادة".

***

سكنت أفكار الناس كثيرًا بعد الهياج من قضايا لوثِرُس حتّى رأى الأخير أنّه لم يكن لقضاياه الشأن الذي كان يتوقّعه، فكادت تذهب في مهبّ الريح. لكنّ خصومه أهاجوا ما كان قد سكن، فأوقدوا النار بدلاً من إخمادها. وكان منشأ ذلك "تنزل" والدومينيكان، فقالوا:

"إنّ مقاومة غفرانات البابا هي مقاومة للبابا نفسه".

وراحوا يستشيرون الرهبان واللاهوتيّين في أمر لوثِرُس.

وفي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٥١٧ طلب تنزل المدد من كلّ جهة، فأرسل إليه رهبان كافّة الأديرة المجاورة نحو ثلاثمائة راهب، فقرأ لهم قضاياه ومنها "أنّ كلّ مَن قال إنّ النفس لا تنقذ من المطهر حين ترنّ الدراهم في الصندوق هو ضالّ".

وقال إنّه مستعدّ أن يحاجي قدّام الجميع عن القضايا الآتية:

١ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ البابا بالنظر إلى عظمة سلطانه، فوق كلّ الكنيسة الجامعة والمجامع. وأنّه يجب أن نطيع أوامره بلا سؤال.

٢ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ للبابا وحده الحكم بكلّ قضايا الإيمان المسيحيّ، وأنّ له وحده أن يفسّر الكتاب المقدّس حسب رأيه، وأن يثبت أو يرفض كلام سائر الناس ومكتوباتهم.

٣ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ البابا لا يمكنه أن يخطئ بالحكم في القضايا المتعلّقة بالإيمان المسيحيّ أو الضروريّة للخلاص.

٤ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّه يجب أن نعتمد رأي البابا في أحكامه أكثر من اعتمادنا آراء جميع العلماء المأخوذة من الكتاب المقدّس فقط.

٥ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ الذين يضرّون كرامة البابا أو عظمته خائنون خيانة عظيمة وأنّهم يقعون تحت اللعنة.

٦ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ أشياء كثيرة تعتبرها الكنيسة قضايا صادقة لا جدال فيها وإن لم تكن في الكتاب المقدّس القانونيّ أو مؤلّفات العلماء الأقدمين.

٧ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ يحسبوا الذي لا يرجعون عن بدعهم بما يدلّ عليه كلامهم وكتابتهم مبتدعين معاندين.

٨ ـ إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ الذين يدافعون عن أغلاط المبتدعين والذين بواسطة إمضائهم يمنعون حضورهم أمام القاضي الذي له حقّ أن يسمعهم هم محرومون، وإن لم يغيّروا في سنّة سلوكهم يحكم بفحشهم ويعقبون معاقبات مختلفة إيفاءً للشريعة وعبرة لغيرهم.

٩ - إنّه يجب أن نعلّم المسيحيّين أنّ الذين يكتبون ما ينافي الاعتراف السرّيّ وكفاية الأعمال وغفران أسقف روما العظيمة وسلطانه، والذين يرضون أقوالهم ويوزّعونها ويحقّرون تلك الأمور، هم ساقطون تحت طائلة القصاص والحكم بالهلاك الأبديّ يوم الدين والعار في الدنيا والآخرة..

بعد ذلك أمر "تنزل" بإقامة منبر ومحرقة في إحدى السكك المشهورة في جوار فرانكفورت، وتوجّه إلى هناك باحتفال عظيم بوسامه الذي مُنحه بالنظر إلى أنّه مفتّش للإيمان، ووقف على المنبر وقال بصوت عال جدًّا: "إنّ المبتدع لوثِرُس يستحقّ القتل بالإحراق مربوطًا بالعمود". ثمّ وضع قضايا لوثِرُس على عمود المحرقة وأشعلها... ورجع إلى فرانكفورت بالعزّ والجبروت.

ويعتبر باحثون بروتستانت أنّ "قضايا "تنزل"، كانت بوقًا لجنود روما". فهاج الرهبان على لوثِرُس وحسبوه "عدوًّا أشدّ من رخلن وإيراسيمُس"، وراح الدومينيكان يهاجمون مارتينُس لوثِرُس على كافّة منابرهم، واصمينه بالجنون، وبمَن تسكنه الشياطين. وقالوا إنّ تعاليمه أفظع أنواع الضلال والبدع. ممّا قالوه أيضًا: اصبروا أسبوعَين أو شهرًا فترون ذلك المبتدع يُحرق. ويقول البروتستانت: لو أوكل الأمر إلى الدومينيكان لأصاب لوثِرُس ما أصاب "إيرونيمُس" و"يوحنّا هس"، ولكنّ اللّه حفظه ليكمل ما ابتدأ به المصلح البوهيميّ الذي صار رمادًا... فإنّ كلاًّ منهما عمل عمل اللّه، أحدهما بموته والآخر بحياته.

ثمّ قاوم لوثِرُس مَن هو أقوى من تنزل: البابا لاون العاشر. ولكنّ البابا اكتفى بالقول: "إنّ ذلك الجدل ليس سوى مشاجرة رهبانيّة، والسبيل الصحيح هو عدم المداخلة فيها". على أنّه قال في لوثِرُس: "إنّ كاتب تلك القضايا جرمانيّ سكران، فإذا انتهت الحمّى تكلّم بكلام يختلف عن هذا كلّ الاختلاف". وكان حينئذ فاحص الكتب

دومينيكانيًّا رومانيًّا اسمه "ساوسترس مزوليني" فاطّلع على قضايا لوثِرُس وردّ على كاتبها باسم لاون العاشر، مستخفًا به وقال: "إنّه يريد أن يعرف هل لمارتينُس هذا أنف من حديد أو رأس من نحاس لا يمكن كسره؟"

في هذه الأثناء، رأى لوثِرُس أنّ الكتاب المقدّس كان ركن إيمانه، وبه أخذ في الإصلاح. وتيقّن من أنّ التعليم الذي علّمه مبنيّ على كلمة اللّه. ورأى أنّ كلّ سلطان دينيّ خارج عن تلك الكلمة هو باطل. وبعد قليل نزل ميدان المناظرة خصم دومينيكيّ جديد يُعرف بـ"يعقوب هوخستراتن"، وهو المفتّش في "كولن"، كان يقاوم "رخلن"، وإذ لم يحتمل توجّهات لوثِرُس، ما كان منه إلاّ أن طلب، بصوت عالٍ، قتل لوثِرُس بدعواه إنّه "ضالّ مبتدع هرطوقيّ"... ورفع صوته: قائلاً: "إنّه من شرّ الخيانة الكنسيّة السماح لهذا الضالّ الفظيع أن يعيش ساعة أخرى... فليُحرق حالاً". ويقول البروتستانت: كانوا قد أحرقوا كثيرين شهدوا للحقّ في وسط اللهب، ولكنّ اللّه حرس لوثِرُس من السيف والنار إلى النهاية. وكان ممّا بذل لوثِرُس فيه كلّ الجهد إثبات أنّ الحبر الأعظم هو إنسان قد يغلط، وأنّ اللّه الحقّ وإله الحقّ لا يمكن أن يغلط. وأنّه من الجهالة أنّ الإنسان يعلم في فلسفة أرسطوطاليس ما لم يثبته أرسطوطاليس في فلسفته، فأيّ جهالة مثل جهالة مَن يعلم كنيسة المسيح ما لم يثبته المسيح ولا رسله في كتابه تعالى؟

الفَصلُ الثَّانِي

الإنشِقَاقُ عَن رُومَا

رَشْقُ لوثِر بالحُرُم؛

نُشوء الكنيسَة اللوثريّة؛

وتمبرغ مركز إشعاع؛ تسميَة الإصلاحيّين بالبروتستانت.

رَشْقُ لوثِر بالحُرم

يقول باحثون كنسيّون[1] إنّ لوثر، الذي اتّهم في البلاط البابويّ بخروجه على الإيمان المستقيم، على مدى ثلاث سنوات، حاول خلالها بعض أعضاء رهبانيّته وبعض الموفدين من روما حمله على الرجوع عن أقواله، لم يتراجع. وتقول المراجع اللوثريّة أنّ لوثِرُس كان لا يزال يحترم "مَن ظنّه" رأس الكنيسة، ويرى أنّ البابا لاون عادل ومحبّ للحقّ، ولهذا عزم أن يكتب إليه. وفي أحد الثالوث في ٣٠ أيّار (مايو) ١٥١٨م. كتب إليه رسالة جاء فيها:

مرتينُس لوثِرُس الأخ الأغسطينيّ يسأل الخلاص الأبديّ للأب الكلّيّ الغبطة الأسقف الأعظم.

بلغني، أيّها الأب الأقدس، عن إرسال أخبار رديئة عنّي إليكم، وأنّ اسمي قد غدا منتن الرائحة لدى قداستكم، فإنّهم يحكمون بأني ضالّ مبتدع خائن، إلى غير ذلك من مثل هذه الألقاب المبيّنة، فما أراه يملأني حيرة، وما أسمعه من شأنه أن يملأني خوفًا، لكنّ أساس اطمئناني ثابت وهو الضمير السليم. فأنعم بإصغائك، أيّها الأب الأقدس، إليّ، أنا الذي بمنزلة ولدٍ أميّ. إنّي لا أستطيع أن أرجع عمّا قلته، وأرى أنّ الإشاعات تهيّج عليّ البعض من كلّ جهة، وليس لي من ميل إلى الظهور لأهل العالم إذ لا أتمتّع بعلومٍ لي عظيمة ولا بعقل فريد، فأنا صغير عن العظائم التي

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة، ص٢٣٢.

يقتضيها ذلك الظهور في كلّ عصر، ولا سيّما هذا العصر الذي لو عاش فيه شيشرون[1] لاضطرّ أن يختبئ في زاوية مظلمة. ولكنّي أعلنت أفكاري لكي أُسكت خصومي وأُجيب على أسئلة الأصدقاء الكثيرين في هذه الرسالة. وقد نشرتها لكي أكون في أعظم الأمن تحت جناحَيك، فكلّ مَن شاء يقدر بهذا أن يعرف إخلاصي بطلبي من سلطة الكنيسة: ال[illegible]شاد. وما أبديته من الاحترام لسلطان المفاتيح، ولولا ذلك ما أمكن المولى فريدير[illegible]وق سكسونيا ومنتخبها أن يقبل في مدرسته في وتمبرغ إنسانًا مؤذيًا كما يدعونني.

في هذه الأثناء، كان الجدل قد أيقظ روح القوميّة الألمانيّة، فبدا لوثر بطل شعب مستاء من الوسائل التي يستخدمها البلاط الرومانيّ في جباية الضرائب، ومن تكدّس الأموال التي تمتلكها الكنيسة في ألمانيا. ولقد أوضح لوثر فكره في المؤلفات الإصلاحيّة الثلاثة الكبرى التي نشرها سنة ١٥٢٠: "نداء إلى الأشراف المسيحيّين في الأمّة الألمانيّة"، و"أسر الكنيسة في بابل"، و"حريّة المسيحيّ". وفيها دعا إلى عقد مجمع، مع التأكيد على أنّ المجمع غير معصوم عن الخطأ.

كان لاون العاشر قد ترك المسألة تأخذ مجراها، ولكن لمّا تعالى صراخ اللاهوتيّين والرهبان، عيّن مجمعًا كنسيًّا في روما لمحاكمة لوثِرُس وأقام فيه "سلفستر بريير" شاكيًا وقاضيًا. ويبدو، بحسب اللوثريّين، أنّ بريير كان متحيّزًا بل خصمًا لدودًا للوثِرُس، فاجتمع أعضاء المجمع سريعًا وأمر المجمع لوثِرُس بأن يحضر أمامه في أثناء ستّين

---

١ - شيشرون أو قيقرون CICÉRON (١٠٦ - ٤٣ق.م.)، أكبر خطيب وكاتب ومفكّر عرفته روما، تعاطى السياسة، قنصل ٦٣، من أشهر مؤلّفاته: "في الدولة"، و"في الشيخوخة"، و"في الشرائع"، وخطبه ضد أنطونيوس المعروفة بالفيليبيك، وله دفاعه الشهير عن مورينا وميلو ومرافعته ضد كاتيلينا وقرّيس.

يومًا. وعندما قرّر لوثِرُس حضور المجمع للدفاع عن قضاياه، ألحّ عليه أصدقاؤه بألاّ يذهب، خوفًا على سلامته. وإذ خاف عليه ستوبتز من الأخطار المحدقة به، كتب من إليه من ديره في سلزبرغ في ١٥ أيلول (سبتمبر) كي يلوذ به. كما تلقّى لوثِرُس الكثير من التحذيرات التي دعته إلى عدم السفر إلى روما، وكان من جملة المحذّرين الأمير ألبرت من "مسفلدت"، "لأنّ كثيرين من العظماء أقسموا على أن يقبضوا عليه ويقتلوه تعليقًا أو إغراقًا". على أنّ لوثر أبى أن يذهب ويختبئ في ظلام دير سلزبرغ، وآثر أن يبقى ظاهرًا للعيان في مكانه.

في هذا الوقت، كتب "سبالاتين" إلى لوثِرُس، بأمر الملك، بما فحواه أنّ البابا أقام عمدة لسماع دعواه في جرمانيا، وأنّ الملك لا يسمح بأن يُساق إلى روما، وأنّه يجب أن يستعدّ للسفر إلى أوغسبرغ. فعزم لوثِرُس على الطاعة. إلاّ أنّ تحذير أمير مسفلدت حمله على طلب صكّ الأمان من الملك فريديريك الذي أجابه بأن لا لزوم لذلك، وأرسل إليه توصية موجّهة لأشهر المشيرين في أوغسبرغ، وأعطاه نفقة السفر. فخرج لوثِرُس بلا محام قاصدًا أوغسبرغ، فوصل "ويمار" في ٢٨ أيلول (سبتمبر) ونزل في دير رهبان ما فرنسيس. ولمّا وصل لوثِرُس إلى أوغسبرغ بعث رسولاً إلى القاصد البابويّ هناك يخبره بقدومه واستعداده للوقوف بين يدَيه متى أمر، ففرح القاصد بذلك ورجا أن يخرج لوثِرُس من المدينة كما دخل. وفيما كان ينتظر الرسول جواب القاصد، ذهب الراهب ليونارد لينبئ سوبنز بوصول لوثِرُس. وكان المجمع قد انتهى وانصرف الأمبراطور والمنتخبون فبقي سفير روما وحده في أوغسبرغ. وإذ كان المجمع، عند وصوله، قد انتهى، خلا الجوّ لسلطان البابا. ذلك أنّ القاضي الذي كان لوثِرُس سيقف أمامه هو القاصد "الكاياتي" أحد أهل مدينة "كاياتا" في مملكة "نابولي" الإيطاليّة، وكان كاردينالاً على غاية من الكبرياء، دخل الدير الدومينيكيّ في سنّ

السادسة عشرة على رغم والدَيه وصار رئيسًا عامًّا لرهبانيّته وكاردينالاً للكنيسة الرومانيّة. وكان من أشدّ المتعصبين للاّهوت المدرسيّ الذي كان لوثِرُس يفنّده دائمًا. وجاء موعد المواجهة في الحادي عشر من تشرين الأوّل (أكتوبر). وكان قد بلغ القاصد قول لوثِرُس "إنّه يريد أن يرجع عن كلّ ما يبرهن أنّه منافٍ للحقّ". وكان واثقًا من أنّه سيردّ هذا الراهب إلى طاعة الكنيسة.

أمام القاصد الرسولي، قال لوثِرُس: "أيّها الأب الأفضل امتثالاً لأوامر قداسته البابويّة وإطاعة لأمر مولاي منتخب سكسونيا، وقفت أمامك كابنٍ مطيع متواضع للكنيسة المسيحيّة المقدّسة. وأقرّ بأنّي نشرتُ القضايا والمصادرات المنسوبة إليّ وأنا مستعدّ لأن أصغي بكلّ طاعة إلى ما أُشكى به وإن كنت مخطئًا فإنّي مستعدّ للخضوع للحقّ".

وبحسب المراجع اللوثريّة، قال الكاردينال: أيّها الإبن العزيز، يجب أن تعترف بخطئك وتتنبّه كثيرًا لكلامك في المستقبل ولا ترجع كما يرجع الكلب إلى قيئه ليمكننا أن ننام بلا اضطراب وأنا الكفيل بكلّ شيء بأمر أبينا الأقدس البابا. فقال لوثِرُس: تنازل وأخبرني بماذا أخطأت. فقال القاصد: أيّها الإبن الأعزّ إنّك ارتكبت خطأين يجب أن ترجع عنهما أمام الجميع: الأوّل أنّ خزانة الغفران الباباويّ لا تقوم بآلام ربّنا يسوع المسيح واستحقاقاته. والثاني أنّ الذي يتناول السرّ المقدّس يجب أن يؤمن بالنعمة المقدّمة إليه. ولا أبيّن خطأيك بكلام مار توما ولا بكلام غيره من علماء المدارس بل بكلام الكتب المقدّسة. فقال لوثِرُس: لا أستطيع التسليم بأنّ قوانين البابا براهين على القضايا ذات الشأن كهذه القضيّة لأنّها تغيّر معنى الكتب المقدّسة. فقال الكاردينال: "إنّ للبابا سلطانًا على كلّ شيء". فقال لوثِرُس بسرعة: "ما عدا الكتب المقدّسة". فردّ الكاردينال: ألا تعلم أنّ البابا فوق المجامع؟ فقد شجب حديثًا وعاقب مجمع "بازل".

فقال لوثِرُس أنّ مدرسة باريس أنفت من هذا الحكم. ثمّ أخذا في الكلام على القضيّة الثانية وهي أنّ الإيمان ضروريّ لفاعليّة الأسرار على دعوى لوثِرُس وأثبتها لوثِرُس بآيات كثيرة من كتاب اللّه كعادته في كلّ دعاويه. فهزئ به "دي فيو" وقال" إنّك اتّخذت الإيمان بالمعنى العام". فقال لوثِرُس: لم أتّخذه إلاّ بمعناه الكتابيّ... إنّي لو سلّمت بأدنى شيء يخالف قضيّة كنت منكرًا ليسوع المسيح، وهذا لا أسلّم به ولن أسلّم به بنعمة اللّه وقدرته. فغضب دي فيو وقال: إنْ شئت وإنْ لم تشأ، يجب أن ترجع عن هذه القضيّة في هذا اليوم عينه، ولهذه القضيّة وحدها أرفض وأبطل كلّ تعليمك. فقال لوثِرُس: لتكن إرادة الربّ لا إرادتي فليفعل بي ما يحسن عنده، فلو كان لي أربعمئة رأس أؤثر أن تقطع على أن أرجع عن الشهادة للإيمان المسيحيّ المقدّس. فقال دي فيو: ما أتيت لأجادلك فارجع عن قولك أو استعدّ للعقاب الذي حقّ عليك...

ولمّا ظهرت على وجه لوثِرُس إمارات الميل إلى الانصراف قال الكاردينال: أتريد أن أعطيك صكّ الأمان لتذهب إلى روما؟ فأبى لوثِرُس العرض إذ رأى ما وراءه من الأخطار. وفي الغد، الواقع فيه يوم الأربعاء في الثاني عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) استعدّ الفريقان لمقابلة ثانية على أمل أن تكون الوسيلة الفاصلة في بتّ الأمر. ولمّا دخل لوثِرُس قصر الكاردينال وجد خصمًا جديدًا هو رئيس الدومينيكان في أوغسبرغ، وكان جالسًا إلى جانب رئيسه. وكان لوثِرُس قد كتب جوابه. فبعد أن قرأه، قال بصوت عالٍ رفيع: "أصرّح بأنّي أكرّم الكنيسة الرومانيّة المقدّسة، وقد سعيت إلى بيان الحقّ في محاورتي العلنيّة، وإنّي لم أزل أحسب كلّ ما قلته حقًّا صحيحًا مسيحيًّا. ومع هذا أعترف أنّي لست سوى إنسان يمكن أن يُخدع، ولذلك أريد أن أقبل التعليم والتقويم في الأمور التي يُحتمل أنّي أخطأت فيها. وإنّي مستعدّ لأنّ أجاوب شفاهًا وكتابةً على كلّ الاعتراضات التي يوردها السيّد القاصد، وأن أعرض

مقالاتي على المدارس الأربع وهي: باسل وفريبرغ ولوفين وباريس، وأن أعود لأعمل كلّ ما يحقّ طلبه من المسيحيّ، ولكنّي آبى الرجوع عن عقائدي أو شيء منها بدون إقامة البرهان على بطلانه".

في ١٤ تشرين الأوّل (أكتوبر) عاد لوثِرُس إلى الكاردينال ومعه مشيرا الملك المنتخب، فازدحم حوله الإيطاليّون، وكان كثيرون منهم قد شهدوا المناظرة السابقة، فتقدّم لوثِرُس وأعطى القاصد الرسوليّ ردًا مكتوبًا جاء فيه:

الخلاف بيننا في قضيّتَين: الأولى ما في قانون البابا اكليمنضوس السادس وهو أنّ خزانة الغفران البابويّة هي استحقاق يسوع المسيح والقدّيسين. وهذا ما نفيته في قضاياي؛ أمّا ما يخالف قضيّة الإيمان فأنا أثبت قولي أنّه لا يقدر إنسان أن يتبرّر أمام اللّه إلاّ بالإيمان، حتّى إنّه يجب على الإنسان أن يؤمن بكمال الثقة بأنّه قد نال النعمة، والشكّ في هذه النعمة رفض لها، فإنّ إيمان البارّ هو برّه وحياته. وأثبت لوثِرُس هذا القول بكثير من نصوص الكتب المقدّسة. ثمّ قال للقاصد: فتنازل إذًا والتمس لي من أبينا الأقدس أن لا يعاملني بهذه القساوة. فإنّ نفسي راغبة في نور الحقّ. فلست متكبّرًا أو معجبًا بنفسي حتّى أخجل من الرجوع إن كنت علمت ما هو باطل. وأعظم مسرّاتي أن أرى النصر لِما يوافق كلام اللّه، فلا تدع الناس يجبرونني إلى عمل ما يأباه ضميري.

وإذ رأى لوثِرُس أنّه يُحتمل أن يُنفى بعد قليل، اجتهد في نشر نبأ المحاورة بين الكردينال وبينه في أوغسبرغ... وانتظر توالي اللعنات الرومانيّة واستعدّ لِما يجب أن يأتيه عند وصولها. ويذكر لوثريّون أن أصدقاءه قد سألوه أن يلجأ إلى حماية الملك المنتخب ليلجئه إلى مكان آمن. إلاّ أنّه نوى أن يلجأ إلى فرنسا حيث اعتقد أنّ بوسعه نشر ما يريد نشره هناك، ولكنّه عدل عن ذلك. ولم يطل الوقت حتّى أمره الملك

المنتخب بأن يبرح وتمبرغ بسرعة. وبلغت لوثِرُس أنباء تقول بأنّ سفير روما الجديد أمر بالقبض عليه وبتسليمه إلى البابا.

هنا تصلّبت مواقف لوثِرُس فصرّح بقوله: "أكاد لا أشكّ في أنّ البابا هو المسيح الدجّال". وفي رسائل أوضح فيها "قضاياه" في "الغفران البابويّ"، وقد سمّى لوثر تلك الإيضاحات "التقريرات"، كرّر قوله بأنّ "كلّ مسيحيّ تائب توبة صحيحة، تُغفر خطاياه بدون الغفران البابويّ". وأنّ "البابا نفسه، كأدنى كاهن، لا يقدر على أكثر من إعلان مغفرة اللّه"، وأنّ "القول بأنّ خزانة استحقاق القدّيسين مستودعة بيد البابا، حديث خرافة"، وأنّ "الأسفار المقدّسة وحدها هي دستور الإيمان"؛ ومن أقوال لوثر: "نعم إنّ البابا تقلّد سيفًا من حديد فظهر للمسيحيّين جبّارًا مخيفًا لا أبًا حنونًا، ولم يكن في العالم حروب أفظع من الحروب التي التظت بين المسيحيّين". وتفسيره لمعنى "المفتاحَين اللذَين أعطاهما المسيح لبطرس" قال: "إنّ أحده المفتاحَين لكنوز السماء" والآخر مفتاح كنوز الأرض".

وقال في موضع آخر: "يستحيل على الإنسان أن يكون مسيحيًّا من دون أن يحصل على المسيح. وإذا حصل على المسيح حصل على كلّ ما للمسيح. وإنّ الذي يهب السلام لضمائرنا هو أنّه بالإيمان لا تبقى علينا خطيئة، إذ تُلقى جميع خطايانا على المسيح، ويصبح كلّ برّ المسيح لنا. وعلى ذلك لم يبقَ محلّ للغفران البابويّ. ثمّ قال: "أقول بالإيجاز إنّ الكنيسة في شديد الاحتياج إلى الإصلاح. وهذا لا يقوم به فرد كالبابا، ولا جماعة كالكرادلة والمجامع، بل بعمل اللّه وحده.

وفي حزيران (يونيو) ١٥٢٠، صدرت البراءة البابويّة "EXSURGE" تشجب ٤١ قضيّة منسوبة إلى لوثر. وقد أُمهل شهرَين ليعلن خضوعه. لكنّ لوثر أحرق البراءة على مرأى من الناس، وذلك في ١٠ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٠. وفي كانون الثاني

(يناير) ١٥٢١، حرمه البابا لاون العاشر. ولمّا استدعي إلى مجلس "فورمس WORMS"، وهو مجلس يضمّ أمراء الأمبراطوريّة ومثل أمام الأمبراطور شارل الخامس[١]، أكّد لوثر على أنّه ملتزم بالكتاب المقدّس وبضميره، ولم يحد عن موقفه. فحكم بطرده من الأمبراطوريّة. فاختفى سنة ١٥٢١. ولكن يبدو أنّ الملك المنتخب فريديريك قد أجاره وأسكنه قصرًا نائيًا يُعرف بقلعة قلعة وارتبرغ[٢]. وفي خلوته نقل الكتاب المقدّس إلى اللغة الألمانيّة[٣].

أمام هذا الواقع، حكم الدومينيكان على لوثر بالهلاك، لأنّه على قولهم، مبتدع رديء. أمّا لوثر، الذي كان قادرًا على أن يهيّج الشعب على أولئك الخصوم، فاكتفى بأن يرشد سامعيه. وانتشر صيته في الأقطار ورفع علم المسيح وزادت رغبة الناس في سماع مواعظه. ثمّ قال إنّهم يرغبون في أن يعملوا الصلاح قبل أن تُغفر خطاياهم،

---

١ ـ شارلكان أو كارل الخامس CHARLES QUINT : وُلد ١٥٠٠، ملك إسبانيا ١٥١٦ ـ ١٥٥٦، أمبراطور الغرب ١٥١٩ ـ ١٥٥٦، احتلّ تلمسان ١٥٣٠، وتونس ١٥٣٥، ونصف الجزائر ١٥٤١، انزوى في دير "يوست" وفيه توفّي.

٢ ـ جاء في بعض الأبحاث أنّ أمراء جرمانيا، كانوا يحرصون على إيمانهم ويبذلون الجهد في صيانة صيتهم. فكانوا يمتلئون رعبًا من أدنى تهمة بالزيغ أو بالهرطقة. ويقول لوثريّون إنّ روما قد حاولت الحرص على الإفادة من هذا الواقع بكلّ نباهة. وكان فريديريك الملك المنتخب حريصًا على ديانة أسلافه. وعلّمه الاختبار بالخلاف بين المملكة وروما ألاّ يركن إلى البلاط البابويّ. وأنّه ليس من الضروريّ لأن يكون مسيحيًا أن يكون عبدًا للبابا، فسلّم أمره إلى الله. وقرأ ما كُتب في الإصلاح ولم يعدل عمّا اعتقد صحّته. ولم يكن عاجزًا ليسلّم بما أراد البابا. فإنّه كان مستقلاً بملكه. فضلاً عن أنّه لم يكن اعتبار الناس له ينقص عن اعتبار الأمبراطور إلاّ قليلاً.

٣ ـ يقول اللوثريّون: إنّ الله الذي قاد يوحنّا الرسول إلى جزيرة "بطمس" ليكتب هناك رؤياه هو عينه حبس لوثِرُس في وارتبرغ لكي يترجم هنالك كلامه ويوطّد البناء الجديد على الصخرة الأصليّة ويردّ المسيحيّين من دهاء اللاهوتيّين إلى ينبوع الفداء والخلاص. وكان لوثِرُس قد ترجم أجزاء مختلفة من الكتب المقدّسة وكان أوّل ما ترجمه مزامير التوبة السبعة أي مز ٦ و٣٢ و٣٨ و٥١ و١٠٢ و١٣٠ و ١٤٧. وإنّ لوثِرُس قد فتح الأبواب للإنجيليّين والرسل فدخلوا وطنه بلغة قومه لا باللغة اليونانيّة التي كتبوا بها أناجيلهم ورسائلهم.

والحقّ أنّه يجب أن تُغفر خطاياهم قبل أن يقدروا على عمل الصلاح، فليست الأعمال بنازعة للخطيئة، لكنّ نزع الخطيئة تتبعه الأعمال الصالحة، لأنّ الأعمال الصالحة يجب أن تمارَس بقلب سار وضمير صالح ولا يكون ذلك إلاّ بالشعور بمغفرة الخطيئة.

وفي نظر لوثر، ينطلق كلّ شيء من اختباره الأساسيّ: يشعر الإنسان بأنّه خاطئ في أصله، فيكتشف في الكتاب المقدّس أنّ الخلاص يأتيه من اللّه عن طريق الإيمان وحده، فاللّه يعمل كلّ شيء، والإنسان لا يعمل أيّ شيء. والأعمال الصالحة لا تجعل الإنسان صالحًا، بل الإنسان الذي يبرّره اللّه هو الذي يعمل الأعمال الصالحة. وبناء على ذلك، يرفض لوثر كلّ ما يعارض، في التقليد، أوّليّة الكتاب المقدّس والإيمان، وينبذ كلّ ما يبدو وسيلة يزعم الإنسان أنّه يستحقّ بها خلاصه، كإكرام القدّيسين والغفرانات والنذور الرهبانيّة، والأسرار غير المذكورة في العهد الجديد. فلا قيمة لأيّ شيء لم يرد ذكره صراحة في الكتاب المقدّس. ولا أهميّة إلاّ لكهنوت المؤمنين[1]

---

١ - يتحدّث الكتاب المقدّس عن الكنيسة بمعنَين. فأحيانًا يعني بها الكنيسة كما هي في الحقيقة، لا تضمّ إلاّ الذين هم أبناء اللّه بنعمة التبنّي والذين هم أعضاء يسوع المسيح الحقيقيّون بتقديس روحه. وعند ذلك لا يتكلّم عن القدّيسين الذين على هذه الأرض فحسب، بل يشمل جميع المختارين الذين عاشوا منذ إنشاء العالم. ومن جهة أخرى، كثيرًا ما يعني الكتاب المقدّس بـ "الكنيسة" جماعة البشر بأسرها، المنتشرة في جميع أنحاء العالم، تلك الجماعة التي تكرّم اللّه ويسوع المسيح، وتعترف بأنّ المعموديّة تشهد على إيمانها، وتؤكّد، بمشاركتها في العشاء السريّ، على أنّها واحدة في تعليمها ومحبّتها، وتوافق على كلمة اللّه، متمسّكة بالتبشير بها، وفقًا لما أوصى به يسوع المسيح. وفي هذه الكنيسة يختلط المُراؤون بالصالحين... وكما أنّه يتحتّم علينا أن نؤمن بالكنيسة التي لا نراها والتي لا يعرفها إلاّ اللّه، كذلك يُفرض علينا أن نكرّم هذه الكنيسة غير المنظورة وأن نبقى متّحدين بها...؛ أمّا سمات الكنيسة المنظورة: حيثما نرى كلمة اللّه يُبشّر بها صافية ويُصغى إليها، وأينما مُنحت الأسرار كما أنشأها المسيح، هناك الكنيسة قائمة ولا شكّ (اف،٢/٢٠)، لا سيّما وأنّ الوعد الذي وعدنا به لا يمكن أن ينقصنا: "حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي، كنتُ هناك بينهم" (متّى، ١٨/٢٠)... إنّ الكنيسة الجامعة هي سائر البشر المتّفقين على حقّ اللّه وعلى تعليم كلمته، مهما اختلفت الأمم وابتعدت المناطق التي هي فيها، لا سيّما وأنّها متّحدة برباط الدين. تضمّ هذه الكنيسة الجامعة الكنائس المنتشرة في كلّ مدينة وقرية، بحيث تتمتّع كلّ واحدة منها بصفة الكنيسة وسلطتها.

الشامل. وأمّا الكنيسة، وهي جماعة المؤمنين وحقيقة غير منظورة، فليس من شأنها أن تنظّم نفسها تنظيمًا ظاهرًا وأن يكون لها ممتلكات[1].

نشر لوثر كثيرًا من "كنوز الحكمة"، مثل مواعظه في الوصايا العشر وتفسيره الصلاة الربّانيّة للعامّة. وقال:

إنّ الصلاة الظاهرة هي مجرّد حركات الشفتَين بلا فكر يظهر لعيون الناس ومسامعهم، أمّا الصلاة بالروح والحقّ فهي الشوق الباطن والحركات والأنّات الخارجة من أعماق القلب. والأولى هي صلاة المرائين وكلّ المتّكلين على نفوسهم، والثانية هي صلاة أولاد اللّه المتّقين.

وبتفسيره للعبارة الأولى من الصلاة الربّانيّة وهي "أبانا" قال:

ليس في الأسماء ما يميل بنا إلى اللّه مثل قولنا "أبانا". فإنّنا لا نتعزّى مثل ما نتعزّى بها في دعوتنا إيّاه ربّنا أو إلهنا أو ديّاننا. وقولنا "أبانا" يحرّك قلب الربّ لأنّه لا صوت أحبّ إلى الأب ولا أعزّ عنده من صوت ابنه.

وقال في عبارة "الذي في السماوات":

مَن اعترف بأنّ له أبًا في السماء حسب نفسَه غريبًا على الأرض فيتوق إلى اللّه كما يتوق الولد الغريب في بلاد بعيدة بين الغرباء في الحزن والشقاء إلى أبيه، فكأنّه يقول: آه يا أبي أنت في السماء وأنا ابنك التعيس على الأرض، بعيد عنك يحيط بي الخطر والفاقة والضيق.

وفي "ليتقدّس اسمك" قال:

إنّ الحسود الثالب المفتري يهين اسم اللّه الذي عمّد به إذ يستعمل الإناء الذي قدّسه اللّه لنفسه استعمالاً نجسًا.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

وفي "ليأت ملكوتك" قال:

إنّ الذين يجمعون الأموال وينفقونها على بناء بيوت فاخرة ويطلبون كلّ ما يمنحه العالم ويتلفّظون بهذه الصلاة، يشبهون أنابيب الأرغن الكبيرة التي ترفع أصواتًا شديدة في الكنائس بلا نطق ولا شعور ولا عقل.

وفي "لتكن مشيئتك" قال:

في أيّ من الكنائس تكون مشيئة اللّه؟ فإنّ أسقفًا يقوم على أسقف وكنيسة على كنيسة ورهبان على رهبان ولا ترى في مكان سوى الخلاف والخصام... يأخذون في عمل الشيطان ويقولون إنّهم يعملون لتمجيد اللّه وإكرامه!

وفي "خبزنا كفافنا أعطنا اليوم" قال:

لماذا نقول خبزنا ولا نقول الخبز. لأنّنا لا نريد الخبز العاديّ الذي يأكله الوثنيّون ويهبه اللّه لكلّ الناس بل نريد خبزنا أي الخبز المختصّ بنما نحن أولاد الآب السماويّ.

في الواقع، حافظ لوثر على سرَّين من أسرار الكنيسة، وهما المعموديّة والأفخارستيّا، مع قبول إمكانيّة الاعتراف. على أنّه يجب الاحتفال بالعشاء السرّيّ باللغة الألمانيّة. وفي شأن العشاء، رفض لوثر أن يُشار إلى وجود ذبيحة، لكنّه تمسّك بحضور المسيح الحقيقيّ في سرّ القربان. وأَوْلى أهميّة كبرى للترنيم الجوقيّ. واعترف بأنّ إعلان كلمة اللّه والاحتفال بالأسرار يتطلّبان حدًّا أدنى من التنظيم، يقوم به الأمراء، فهم قابضون على زمام سلطة تأتي من اللّه. ونلاحظ هنا أنّ لوثر يعزّز، إلى حدّ بعيد، سلطة الأمراء على الكنيسة، مع أنّه رفض الاعتراف بوجود سلطة كنسيّة. وبذلك أصبحت الكنائس اللوثريّة كنائس قوميّة يختلف نظامها من دولة إلى دولة. وقد التفّ حول لوثر بعض التلاميذ، كـ "ميلانكتن MÉLANCHTON" (١٤٩٧ ـ ١٥٦٠). لكنّ عددًا كبيرًا من رجال الإصلاح ظهر، في عهد لوثر، في ألمانيا

وسويسرا، معظمهم من الكهنة والرهبان. وقد وافق هؤلاء لوثر، بوجه عامّ، في شأن الإيمان والكتاب المقدّس، ولكنّهم اختلفوا عنه في أمور هامّة تختصّ بسرّ الأفخارستيّا. وقد قاطع لوثر بعضهم في هذا الشأن[1].

نُشوء الكنيسَة اللوثريَّـــــة

ولم يكن لوثِر بدون أنصار. ويقول لوثريّون إنّ شعب جرمانيا سمع صوت لوثِرُس وعرف الناس الحقّ ممّا كتبه ونادى به، واستنار معاصروه من كلامه، وأخذ الناس يهجرون الخرافات ...، وكسدت سوق الغفران البابويّ التي كانت مزدهرة قبلاً، واعتبر متنوّرون لوثِرُس محاميًا عن الحقّ الإلهيّ، وإنّه زعزع سلطان الإكليروس على اختلاف الرتب. وكان في عصره من الإقبال على الحقّ ما لم يكن في عصر من عصور الكنيسة الماضية، وانتشرت كتاباته في جرمانيا وسائر البلاد. فأقامت كلمة الحقّ البسيطة جيشًا عرمرمًا قويًّا للوثِرُس.

في الواقع، إنقسمت ألمانيا بين الذين مع لوثر والذين عليه. لكنّ دوافع أنصاره، بحسب مصادر ومراجع مستقلّة، كانت متنوّعة: فالأشراف وجدوا ضالّتهم في الاستيلاء على أراضي الكنيسة، والفلاّحون انتهزوا الفرصة، باسم المساواة بين البشر أمام اللّه، للثورة على سادتهم الذين يستغلّونهم، فنشبت حرب طاحنة ١٥٢٤ ـ ١٥٢٥ بين أنصار البابويّة وأنصار لوثر، جعلت القلق يستولي على الأخير، لأنّ جميع هؤلاء

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٤.

الناس كانوا يدّعون العمل بحسب ما تقتضيه كلمة اللّه. وعندما لم ينجح لوثر في تهدئة الفلاّحين، دعا الأسياد إلى ضرب المتمرّدين. وفي تلك الأيّام أيضًا، انفصل لوثر عن إيروسيمُس، لأنّ هذا الأخير رفض نظرته التشاؤميّة إلى الإنسان وإلى الحريّة[1].

لم يكن قصد لوثر إنشاء كنيسة جديدة، بل ظنّ أنّ الكنيسة، إنْ عادت إلى الإنجيل أصلحت نفسها. لكنّ التباين في تفسير الكتاب المقدّس وقيام الحركات المتطرّفة حملاه على توضيح بعض النقاط التعليميّة وعلى اتّخاذ بعض الخطوات التنظيميّة. ففي سنة ١٥٢٩، نشر "كتاب تعليم مسيحيّ صغير" و"كتاب تعليم مسيحيّ كبير"، وهما النموذجان الأوّلان لفنّ أدبيّ كُتب له نجاح عظيم.

إنّ ثبات لوثِرُس ولّد مثله في أصدقائه وأهل بلاده. فاجتمعت حوله أمّته وتعلّق الجميع به ولا سيّما مدرسة وتمبرغ. ويقول اللوثريّون أنّه حينئذ رفع "كارلستادت" صوته على أسد فلورنسا الضاري الذي مزّق الشرائع البشريّة والإلهيّة ووطئ مبادئ الحقّ الإلهيّ. وخاطب "ملنكتن" قرب ذلك الوقت ولايات المملكة بكتاب مشرق بالبلاغة والحكمة، وأبان بأدلّة كثيرة من الكتاب المقدّس أنّ البابا ليس بأعلى ممّن سواه من الأساقفة، وأنّ شرائع الأحبار وحكم البابا لا تقتصر على إلقاء النفوس في الخطر بل تؤدّي بها إلى الهلاك: أفليس لنا أن نحرم البابا من الحقوق التي نحن منحناه إيّاها؟ وهل يليق أن نبذل أموالنا في سبيل ترف روما ولذاتها؟ وقد وجّه ملنكتن كلامًا بهذا المعنى إلى أمراء جرمانيا، يحثّهم على "إزالة الخرافات الرومانيّة".

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

فيما كان لوثِرُس محتجبًا في قلعةِ وارتبرغ، كـان الإصـلاح آخـذًا فـي التقدّم، ولـم يبقَ منحصرًا في التعليم، بل تطرّق إلى أعمال الناس، فراعي "كمبرغ المدعو "برنـارد فلدكرخـن" كـان أولّ مَن قـاوم توجّهات رومـا يومئذ وأخـذ بإرشـاد لوثِـرُس، وأوّل إكليروسيّ تزوّج بمقتضى السنّة المسيحيّة الجديدة. وقـال فلدكرخـن وراعٍ آخـر اسـمه "سدلر" اقتدى بـه "إنّـه ليس للبـابوات ولا للمجـامع أن تـأمر الكنيسـة بمـا يوقـع الجسد والنفس في خطر. ووجوب حفظ الشـريعة الإلهيّـة يوجـب إباحـة زواج الإكليروس". ويقول لوثريّون إنّ السلطة الكنسـيّة خـافت مـن إقدام الكـاهنَين علـى الـزواج وحكمـت عليهما بالسجن، وقد مات سدلر في سجنه، أمّا فلدكرخن فأبى الملك المنتخب أن يسلّمه إلى أساقفة مجدبرغ. ففرح لوثِرُس لمّا بلغه هذا النبأ وقال: "إنّي مبتهج بعريس كمـبرج وبأنّه لم يخـف شيئًا بل يتقدّم بسرعة في وسط الشغب". وكـان مـن آراء لوثِـرُس إباحـة الـزواج للكهنـة دون إباحـة زواج الرهبـان فاشـتدّت محاربتـه. وذهـب مذهبـه ملنكتـن وكرلستادت ولكنّهما قالا بوجوب إباحة الزواج للرهبان كما لكهنة الرعايا. ولكـن ذلـك لم يكن قد خطر ببال لوثِرُس. ويوم بلغه أنّ بعضهم حلّل زواج الرهبان صـرخ قـائلاً: عجبًا! وهل في وتمبرغ يحلّلون الزواج لكلّ أحد حتّى الرهبان؟ وحار في ذلك وارتبـك واضطربت نفسه. وقال إنّهم لا يستطيعون إجباري على الزواج. ويقول اللوثريّـون إنّ هذا يبطل زعم الزاعمين أنّ لوثِرُس نادى بالإصلاح بغية أن يتزوّج. على أنّ لوثِـرُس سوف يتزوّج لاحقًا.

في المقابل، يرى اللوثريّون أنّ لوثِرُس "لم يتصدّ للرهبانيّة التي ملأت الأديرة مـن أهل الكسل ...، فكان يتردّد بين اتّباعها وإبطالها لكنّه تحقّق بعد العنـاء أنّـه لا يستطيع نصرها، فوقع علـى قدمَـي يسوع قـائلاً: علّمنـا وخلّصنـا وثبّتنـا برحمتك فـي الحريّـة المختصّة بنا لأنّنا نحن شعبك. ولم يطل على لوثِرُس بعد ذلك المحامـاة عـن الرهبانيّـة

فرفضها وساعده على ذلك عقيدة التبرير بالإيمان. وأرسل قرب أيلول (سبتمبر) إلى أساقفة كنيسة وتمبرغ وشمامستها القضايا الآتية إبطالاً للرهبانيّة:

> كلّ ما ليس من الإيمان فهو خطيئة[1]. كلّ من نذر العزوبة من دون إيمان فإنّما ينذر نذرًا اتّفاقيًّا صنميًّا أي نذرًا للشيطان نفسه، لأنّ بذلك ينسب إلى الأعمال المبتدعة ما يجب أن يُنسب إلى رحمة الله. لا تنفع الأديرة ما لم تحوّل مدارس يتربّى الأولاد فيها حتّى يصيروا رجالاً. فإنّها الآن بيوت يصير فيها الرجال أولادًا ويبقون كذلك مدى الحياة.

حتّى ذلك الوقت، يبدو أنّ لوثِرُس كان لا يزال يرى الأديرة نافعة إذا صارت دُورًا للتعليم، ويقول اللوثريّون إنّه لمّا تذكّر ما يجري فيها من قبائح، اشتدّ كرهه لها.

لمّا كان لوثِرُس متخفّيًا في تلك القلعة النائية يترجم ويفكّر ويجتهد، ظنّت روما أنّها تخلّصت من تعاليمه التي سمّتها. ولكن بعد زمن قليل حصل ما لم يكن بالحسبان. فقد توفّي البابا لاون العاشر سنة ١٥٢١، وهو البابا الذي حرم لوثِرُس، وعقبه البابا هادريانُس السادس (١٥٢٢ - ١٥٣٢) ثمّ البابا اقليمنضُس السابع (١٥٣٢ - ١٥٣٤). وحدثت اضطرابات في إسبانيا. وانشغلت الأمبراطوريّة بهجوم السلطان سليمان العثمانيّ على بلاد "المغيار". وفي هذه الأثناء لعبت بسفينة الإصلاح رياح مضادّة كادت تغرقها ثمّ اعتدلت. ففي يوم الثلاثاء الواقع فيه الثالث من كانون الأوّل (ديسمبر)، وكان القدّاس على وشك أن يُقام، تهافت الناس في وتمبرغ وصعدوا إلى المذابح وأخذوا الكتب وطردوا كهنة الرعايا من الكنيسة. وإذ أغاظ ذلك المجمع والمدرسة، اجتمع المعنيّون ليعاقبوا الذين أتوا بتلك الحركة، ولكنّهم وجدوا أنّه من الصعب إمكانيّة تهدئة العواطف الثائرة بواسطة العقاب. إثر ذلك التأم في وتمبرغ في

---

١ ـ رسالة بولس إلى أهل روما ١٤: ٢٣.

كانون الأوّل (ديسمبر) مجمع لرهبان أغسطينيّين من "مسنيا" و"تورنجيا"، فقالوا بآراء لوثِرُس، إذ حكموا بأنّ النذور الرهبانيّة غير محرّمة، وحكموا أيضًا بأنّها ليست بـ"واجبة الدوام"، أي أنّه بوسع الناذر أن يعود عنها. وقالوا إنّه ليس في دين المسيح من رهبانيّة، فلكلّ راهب أن يترك الدير أو يبقى فيه، على أن يحذر الذي يتركه من أن يسيء مزاولة حرّيته، وليطع الذي يبقى رؤساءه بالمحبّة. ثمّ حكموا بإبطال التسوّل ومزاولة القداديس مقابل المال، وأن يتفرّغ عمل الرهبانِ لتعليم الكلمة الإلهيّة ويقوم سائرهم بأسباب معاش المعلّمين. وانتهت بهذا مسألة النذور، وبقيت مسألة القدّاس معلّقة. وكان الملك المنتخب لا يزال يسعى في تسكين الشغب ويحامي عن ترتيبٍ رآهُ يُراعى في كلّ العالم المسيحيّ.

غير أنّ أعمال الشغب قد استمرّت، ولوثِرُس لا يزال بعيدًا عن وتمبرغ، فكان كثيرون من الأهلين يرفعون أصواتهم بقولهم لوثِرُس... لوثِرُس، مطالبين برجوعه إلى المدينة. ويقول اللوثريّون إنّه يعسر علينا أن نتصوّر انفعالات المصلح حينئذ، فإنّ أهوال روما كلّها لم تكن شيئًا بالنسبة إلى ما عراه من هذا التشويش، إذ رأى أنّه من أهل الإصلاح خرج أعداء للإصلاح، وأنّ التعليم الذي هو وحده أنشأ سلام قلبه وضميره كان علّة قلاقل مهلكة للكنيسة. وقال يومًا: لو علمت أنّ تعليمي يضرّ إنسانًا لكان أحبّ إليّ أن أموت عشر ميتات من أن أضرّ عليه، وأرى الآن مدينة وتمبرغ ساقطة في الفوضى. وانتهى إلى القول:

"إنّني أعتمد نعمة الربّ وأسأله إذا كان في كلمتي شيء من الخطأ فليذكر الله أنّني إنسان خاطئ".

ولمّا تيّقن لوثِرُس من خداع أولئك الدعاة، زاد غمّه، فعزم على الرجوع إلى وتمبرغ غير آبه بالخطر الذي كان يتهدّد حياته، رغبة في إزالة الخطر عن شعبه.

ويروي اللوثريّون أنّ لوثِرُس قد رأى من قمم وارتبرغ شهب الهول تنقضّ وتؤذن بالدمار، فرأى أن يلقي نفسه تحت تلك النيران لكي يخمدها. فنهض في الثالث من آذار (مارس) ١٨٢٢ عازمًا على ترك وارتبرغ إلى الأبد، على رغم اجتهاد الأعداء ونهي الملك المنتخب له عن ترك وارتبرغ. فودّع تلك القلعة ونزل من الجبل إلى حيث كان العالم يطلب قتله. ولم يكترث بذلك، بل تقدّم مبتهجًا باسم الربّ ورجع إلى أصدقائه... فقد خرج لوثِرُس من حصن وارتبرغ لأمر غير الأمر الذي دخل الحصن من أجله، فإنّه دخله لمقاومته التقليد القديم وخرج منه للمحاماة عن تعليم الرسل من خصوم محدثين. وكان إلى ذلك الحين لا ينظر سوى إلى أمر واحد في عمله هو انتصار التعليم بأنّ التبرير بالإيمان. وبهذا السلاح كان قد قتل خرافات قويّة. وإذا كان هنالك وقت للهدم، فلا بدّ من أن يعقبه وقت للبناء، وقد تجلّت له، آنذاك، الكنيسة الكاثوليكيّة القديمة، بعد أن خلع عنها أثواب الأباطيل، ببهائها الأصليّ. ذلك أنّ لوثِرُس لم يخترع شيئًا في الدين، إنّما كشف عنه نقاب البدع والأباطيل، وأبان للناس الأسس القديمة التي كان قد علاها الشوك والعلّيق، فبنى هيكل اللّه على الأسس التي وضعها الرسل. وما كان يمكن تسهيل الطريق للإصلاح الحديث بدون ملاشاة الفساد القديم. فإنّ العمل الذي قدم لوثِرُس لأجله إلى وتمبرغ إنّما هو أن يفحم الموسوسين المدّعين الإلهام، وأن يسوس جماعة مطلقة العنان ويردّها إلى حال الترتيب والسلام والحقّ، وأن يصرف ما كان ينذر بهدم بناء الإصلاح الجديد.

على أثر سكون الشغب، عاد لوثِرُس إلى متابعة العمل الذي كان قد بدأه في وارتبرغ، وهو ترجمة العهد الجديدة، وذلك بمساعدة صديقه ملكنتون. وكانت الحميّة شديدة في طبع أسفار العهد الجديد الذي شغل ثلاث مطابع، كانت تطبع عشرة آلاف ملزمة كلّ يوم. وفي ٢١ أيلول (سبتمبر) ١٥٢٢ كان قد تمّ طبع ثلاثة آلاف كتاب في

مجلّدين من القطع الكبير. ولاقت هذه الترجمة التأييد الكبير من مؤيّدي لوثِرُس وخصومه في آن، كما ساعدت على تأييد التقوى المسيحيّة أكثر من كلّ مؤلّفات لوثِرُس. وما مرّ وقت قصير إلاّ بيع كلّ ما طُبع من تلك الترجمة. وطُبعت ثانية في كانون الثاني (يناير) ١٥٢٣. وفي سنة ١٥٣٣ كان قد صدر سبع عشرة طبعة في وتمبرغ وثلاث عشرة في أوغسبرغ واثنتَي عشرة في لايبزك. وفيما كان العهد الجديد يُطبع أخذ لوثِرُس يعدّ أسفار العهد القديم. واشتغل بذلك منذ سنة ١٥٢٢م. بلا انقطاع، وكان متى فرغ من ترجمة سفر من تلك الأسفار ينشره لشدّة حاجة الجمهور ولتمكينه المساكين من شراء الكتاب على التوالي. فالكتاب المقدّس والإيمان هما مصدر قوّة المذهب الإنجيليّ.

أمام هذا الواقع الجديد وسير الجماعات الإنجيليّة "اللوثريّة" في دروب التعاليم الجديدة، ثار غضب رومانيّ شديد. أمّا العوامل التي تراكمت لتتسبّب في هذا الغضب، فكانت قد غدت عديدة: ما نشره لوثِرُس من مؤلّفات، ومن ترجمات للكتاب المقدّس في عهدَيه القديم والجديد ونشرها من دون الرجوع إلى روما، زواج الكاهن الراعويّ فلدكرخن، ونفي النذور الرهبانيّة، وإرجاع عشاء الربّ إلى ما كان عليه قديمًا. أمّا ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الوطنيّة فكانت أهمّ كلّ تلك الإعمال، فإنّ ذلك العمل قد أنشأ تغييرًا عجيبًا في الجمهور، كما يقول اللوثريّون: في مساكن الكهنة، وصوامع الرهبان، وصروح الأكابر، وبيوت الفلاّحين... حيث تهذّبت الأخلاق وتجدّدت الحياة. وبذلك امتدّ الإصلاح من المدرسة والكنيسة واستولى على منازل الشعب. وعرف الناس أنّ مقاومة المصلحين للبابويّة كانت واجبة وأنّها على وفق الحقّ الإلهيّ. ورغب الرجال والنساء في قراءة الكتاب المقدّس فتعلّم الأمّيّون القراءة رغبة في ذلك الهدف، وكان الناس يحملون الكتاب أين ساروا، واستظهره كثيرون.

ويرى باحثون أنّ الإصلاح الذي قاده لوثِرُس قد قسم العالم المسيحيّ إلى فئتَين. فوقف أصحاب لوثِرُس أمام أعوان كارلوس الخامس ولاون العاشر، وحرّم البابا كلّ أتباع لوثِرُس، وجهد خدّامه في خفض شأن تعليم لوثِرُس بشتّى الوسائل. وكان الأمراء يبذلون الجهد في إبادة ذلك التعليم من أكثر الولايات الجرمانيّة. فتلك الفرقة الحديثة أخافت سلطان روما المطلقة بقوّة إيمانها وسرعة انتصاراتها، وانضمّ إليها كثير من المدن والقرى... وكان الخصوم يضطهدونهم ويقسون عليهم بالقوّة السريّة ويلقون بالكثير منهم في النار. أمّا الرهبانيّات فكانت أوّل مَن تحرّر من الوصاية الرومانيّة ونشر أعضاؤها التعليم الإنجيليّ الجديد. فإنّ أديار رهبانيّة القدّيس أغسطينوس ورهبانها ساروا مع لوثِرُس. واقتدى بالأغسطينيّين رهبان كثر في أديار رهبانيّات أخرى، ما أثار غضب روما. وتفاقمت حدّة اضطهاد أتباع الإصلاح ونزلت عليهم الأحكام الجائرة والاحتقار والتأديب وزُجّوا في السجون. وكثيرًا ما أخذ رؤساء الأديار في الإصلاح، ومنهم رؤساء أديار "هلبرسندت" و"نيونرك" و"هالي" و"سغان"، الذين صاروا قدوة لرهبانهم. وفي كلّ جرمانيا كان الرهبان يخلعون البرانس والقلانس ويركنونها عند أبواب الأديار، لاعتقادهم الجديد بأنّ الرهبانيّة مخالفة لإرادة اللّه ومنافية للعيشة المسيحيّة. ومثلهم فعل كهنة الرعايا. وكانت مؤلّفات لوثِرُس تُقرأ في المدن والقرى والمزارع. وكان الذين يُضطَهَدون من أجل الإنجيل يهربون إلى حيث لم يُعرف الإصلاح وينادون بالإنجيل في كلّ خان وبيت وفي الأزقّة والشوارع والمقابر أو على التلال والآكام، وكانوا يقولون للسامعين إنّه بمقتضى الإنجيل جميع الناس أخوة يسوع المسيح، وإنّهم متساوون... فيجذبون السامعين.

وحين كان الشغب يعمّ المدينة، كان المبشّرون يلقون عظاتهم في بعض الكنائس التي سُمح الوعظ فيها، بعد أن تُغلق الأبواب. وكان شبّان الإصلاح يبذلون الجهد في

درس الإنجيل وتحصيل العلوم، وكانت قوّة إيمانهم ووفرة علمهم ونشاطهم وحسن أساليبهم في الخطابة، عناصر ميّزتهم ورفعتهم على معاصريهم. وساعدت المصلحين المطبعة التي اختُرعت في القرن الخامس عشر "فهدمت قنابلها أسوار الأعداء ودكّت حصونهم" بحسب تعبير اللوثريّين. وكثرت المؤلّفات في عصر الإصلاح فنُشر ٣٥ مؤلّفًا في سنة ١٥١٣ و ٣٧ مؤلّفًا سنة ١٥١٧، و٧١ سنة ١٥١٨، و١١١ سنة ١٥١٩، و٢٠٨ سنة ١٥٢٠، و٢١١ سنة ١٥٢١، و٢٤٧ سنة ١٥٢٢، و٤٩٨ سنة ١٥٢٣، وطُبع أكثرها في وتمبرغ ومؤلّفوها هم لوثِرُس وأصحابه. ففي سنة ١٥٢٢ طُبع ١٣٠ من مؤلّفات لوثِرُس. والرهبان الذين اقتنعوا ببطلان النذور الرهبانيّة، رغبوا في طرح الكسل والعمل، وإذ كانوا غير أهل للمنادة بكلمة اللّه، وذلك بسبب جهلهم، راحوا يجولون في القرى والضياع يبيعون كتب لوثِرُس وأصدقائه، ففاضت جرمانيا بأولئك الباعة الذين ساعدهم الطبّاعون وأصحاب المكتبات في مهمّة نشر الكتب والمحاماة عن الإصلاح. وكثيرًا ما أمر الأمبراطور والأمراء بمنع مؤلّفات المصلحين فلم يأتمر أحد بأمرهم بل كانوا يزيدون رغبة في مطالعتها. ولم يكن ذلك في جرمانيا وحدها لأنّ مؤلّفات لوثِرُس كانت قد تُرجمت إلى اللغات الفرنسيّة والإسبانيّة والإنكليزيّة والإيطاليّة ووُزّعت بين أهل تلك اللغات.

وتمبـــــرغ

مركز إشعاع

يروي اللوثريّون أنّه في تلك الحقبة، لبس لوثِرُس ثياب العامّة وجال واعظًا في بلاد "الدوق جرجس". وإذ كان منطلقًا للوعظ في "زويكاو"، شاع الخبر في "شيخينبرغ" و"إنابرغ" وما جاورهما، فازدحم الناس حوله بالآلاف. وإذا لم يكن في المدينة كنيسة

تتّسع لهذا الجمع الغفير، ذهب لوثِرُس إلى شرفة منتدى المدينة ووعظ على خمسة وعشرين ألف نسمة كانوا قد ملأوا الساحة. وكان ثبات لوثِرُس قد هيّج مدينة "وُرمس" وأخاف أمر الأمبراطور الولاة فأوصدوا الكنائس، لكن كان هنالك واعظ يقف في ساحة تغصّ بالناس على منبر خشن البناء، يُحمل وينقل وينادي بالإنجيل بعبارات مقنعة، فإذا تصدّت الحكومة لذلك تفرّق السامعون في مثل طرفة عين، وحمل بعضهم المنبر وهرب به، حتّى إذا أمن الجند في مكان آخر اجتمع الناس ثانية واستأنف الواعظ الوعظ. وقد شدّد ذلك عزم المجلس، فأمر الواعظون جميعًا بأن ينادوا بكلام اللّه الخالص أو يتركوا المدينة، فانتشر النور من وتمبرغ في كافّة أرجاء المملكة الجرمانيّة، وأصغت مدن الغرب ومدن الجنوب وكثير غيرها من الأقطار التي قبلت الإنجيل بفرح، وفتحت له في الشرق الأبواب إمارات "لياغنتز" و"بروسيا" و"بوميرانيا". ومالت إليه في الشمال "بونسويك" و"هالبرستدت" و"غسلر" و"زيل" و"فريمند" و"بريمن" و"همبرج" و"هلستين". وجرت على هذه السنن "الدانمارك" وغيرها من الممالك المجاورة. وكان الملك المنتخب فريديرك قد أعلن أنّ للأساقفة أن يعظوا بلا معارض في بلاده. وكان المعلّمون الإنجيليّون إذ اضطُهدوا في بلاد، لجأوا إلى "سكسونيا"، وإلى "وتمبرغ" التي كانت بمثابة الملجأ الوحيد الآمن. فكانت وبحسب اللوثريّين أنّ وتمبرغ كانت مشرق شمس الهدى للعالم. والمدرسة التي بناها الملك فريديريك وأحياها لوثِرُس فيها كانت مركزًا لتجديد الكنيسة تجديدًا عظيمًا. وفاقت وحدتها الحقيقيّة وحدة كنيسة روما الخارجيّة كثيرًا.

ساد الكتاب المقدّس في وتمبرغ وسُمع كلامه في كلّ جهة، وكانت لتلك المدرسة الأحدث بين المدارس، الرتبة العليا والصولة في العالم المسيحيّ بعد أن كانت لمدرسة باريس القديمة. ولمّا ترك بعضهم تلك المدينة التي اعتبروها مقدّسة حملوا إلى الكنائس

والشعوب كلمة الشفاء والخلاص. ولمّا رأى لوثِرُس ذلك النجاح تشجّع كثيرًا إذ رأى عمله الذي باشره وسط الأهوال قد غيّر مشهد العالم المسيحيّ، فاعترف أنّ العمل هو عمل اللّه، لذلك رفض أن يُنسب الانتصار إليه وأن يؤمن الناس به، فقال إنّ التلاميذ الحقيقيّين لا يؤمنون بي بل بيسوع المسيح.

في تلك الحقبة، أخذت روما بالذات تقاوم البابويّة مقاومة ضعيفة وأقام بعض أتقيائها مصلّى للعامّة قرب الأرض التي كان المسيحيّون القدماء يتمتّعون فيها على ما في تقليدهم. وكان إمام المجتمعين في ذلك المصلى "كتاريني"، وهو ممّن سمعوا لوثِرُس في وُرمس. وكان هذا بداءة نوع من الإصلاح في روما وكان زمانه زمان بداءة الإصلاح في وُرمس. ذلك أنّ شعب روما كان، في أوّل الأمر، غير راضٍ بانتخاب البابا "هادريانُس السادس" لأنّه كان هولّنديًا، ومع ذلك ذهب إلى روما في آب (أغسطس) سنة ١٥٢٢ فقُبل قبولاً حسنًا وشاع أنّ في يده أكثر من خمسة آلاف راتب فطمع كلّ إنسان براتب منها. وكان العرش البابويّ قد تقضّى عليه سنين كثيرة لم يجلس عليه مثل هذا البابا. فإنّه إذ كان عادلاً نشيطًا تقيًّا مخلصًا أديبًا لم يكن لشيء من الهدايا والهوى أن يعميه، فسار على الطريق الوسطى التي مهّدها "إيراسموس". وإذ كان هادريانُس أمينًا في مقصده شرع في طرد كلّ حانث ومدنّس وآخذِ ربا في المدينة، وكان ذلك صعبًا على كثيرين من الأهلين، فهزئ به الرومانيّون في أوّل الأمر، ثمّ أبغضوه لأنّهم رأوا أنّه لا بدّ من أن يتسبّب بخسارة كبيرة من مردودات الحكم الكهنوتيّ، والأرباح العظيمة، والملاهي، والأعياد، والإسراف... إلى أمثال ذلك ممّا كان يملأ المدينة، إذا رجعوا إلى السيرة الرسوليّة. وممّا ثقل على أولئك الناس أكثر من سواه الرجوع إلى التأديب المسيحيّ، فقاوموه بشدّة. وكان في ٢٣ آذار (مارس) ١٥٢٢ قد انعقد المجمع في نورمبرغ قبل وصول هادريانُس إلى روما، فسأل

أهل المجمع الحكّام أن يعاقبوا المصلحين وأتباعهم، فقال لهم أعوان الملك إنّ هذه القضيّة يجب أن يُنظر فيها بمقتضى الكتاب المقدّس، وإنّ الملك المنتخب لا يستطيع أن يشرع في درس اللاهوت لأنّه كبير السنّ، فعجزت اجتهادات الأساقفة في أن تُرجع أحدًا إلى حظيرة روما. وفي كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٢، انعقد المجمع أيضًا في نورمبرغ ودلّ على أنّ لوثِرُس العدوّ العظيم موضوع اجتماعه، ويقول اللوثريّون إنّ البابا "هادريانُس السادس"، مال، بسبب أنّ أصله جرمانيّ، إلى إرضاء أمّته، بخلاف ما لو كان بابا أصله إيطاليّ... ولمّا اجتمع المجمع طعن كثيرون من الأمراء في لوثِرُس وطلب الكردينال رئيس أساقفة "سلزبرغ"، الذي كان ذا وجاهة عند الأمبراطور، أن يعاقب لوثِرُس قبل وصول فريديريك ملك سكسونيا المنتخب. وسُمع في كنائس نورمبرغ ما يخالف ذلك كلّ المخالفة، فإنّ الناس كانوا يجتمعون أفواجًا في المعبد المجاور لمحلّ المرضى والكنائس الأغسطينيّين ليسمعوا الوعظ بالإنجيل. فقد مدح البابا على إقراره ومطالبه وطالب بسرعة استجابتها بعقد مجمع مسيحيّ حرّ في "ستراسبرغ" أو "منتزاو كولون" أو "متز" مؤلّف من الإكليروس والعامّة. فعجب الإكليروس لهذا الطلب الذي يسمح بدخول العامّة المجامع والمساهمة في تدبير مصالح الكنيسة مع الكهنة. وهذه النار التي أضرمها البابا هادريانُس انتشر لهبها في كلّ العالم المسيحيّ فتوقّد الاضطهاد الذي خمد وقتًا، فخاف لوثِرُس على جرمانيا واجتهد في تسكين العاصفة وقال:

> إذا قاوم الأمراء الحقّ كانت العاقبة اضطرابًا يُهلك الأمراء والولاة والكهنة والشعب، فإنّي أخشى أن أرى جرمانيا بعد قليل غارقة في الدم، فلنقم كَسُور ونحفظ شعبنا من سخط ربّنا.

وكان الدوق جرجس من قوّاد الاضطهـاد، وقد استقلّ في بلاده. فرغب في أن يخرّب سكسونيا التي هي "مصدر البدع" على حدّ زعمه، فبذل كلّ جهده في تهييج الملك المنتخب فريديريك والدوق يوحنّا فكتب إليهما من نورمبرغ أنّ التجّار الآتين من سكسونيا أخبروا بالغرائب من أمور تلك البلاد من احتقار اللّه والقدّيسين. فأجابه الملك المنتخب جوابًا لطيفًا... حاسمًا: "إذا تعدّى الإنسان الشريعة المدنيّة وجب أن يعاقَب على قدر ذنبه، ولكن إذا أراد أن يعبد اللّه على وفق ضميره وجب ترك ذلك للّه". ولمّا عجز الدوق جرجس عن إقناع فريديريك، بادر الأوّل إلى اضطهاد الإنجيليّين، فسجن الرهبان والكهنة التابعين للوثِرُس، وأخرج من مدارس المصلحين التلاميذ الذين هم من بلاده، وأمر الناس بأن يعطوا الولاة كلّ نسخ العهد الجديد التي هي في لغة الشعب، وأجري مثل ذلك في "أوستريا" و"برنسويك". لكنّ تلك الاضطهادات لم تُخف الرهبان في دير "لتورين" فظلّوا ينادون بالإنجيل جهد المستطاع، وكان الناس يزدحمون لسماعهم في كنيسة الأغسطينيّين في تلك المدينة حتّى ضاقت بهم كما حصل في كنيسة وتمبرغ. وفي تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥٢٢ أُغلق الدير وأُلقي رهبانه في السجن وقُضي عليهم بالموت وهرب قليلون منهم. وكان على الأساقفة أن يسيروا بمقتضى أحكام وُرمس ونورمبرغ وألاّ يسمحوا بتغيير شيء من أسلوب العبادة الجماهيريّة، وألاّ يُبقوا كاهنًا متزوّجًا في بلادهم، وأن يسترجعوا كلّ رعاياهم الذين يتعلّمون في وتمبرغ، وأن يبذلوا الجهد في إزالة "البدعة اللوثريّة"، وأُمر الواعظون بأن يعتمدوا، في تفسير الآيات العويصة، آباء الكنيسة اللاتينيّة كـ "أمبروسيُس" و"إيرونيمُس" و"أوغسطينُس" و"غريغوريُس".

في هذا الوقت، نشر رجل من "فينا" إسمه "غسبرد توبر"، مؤلّفات لوثِرُس. وكان قد كتب في إبطال شفاعة القدّيسين والمطهر والإستحالة، فأُلقي في السجن. لكنّ "توبر"

ما فتئ يؤثر الموت على الكفر بالإنجيل فقُطع عنقه وأُحرقت جثّته. فترك ذلك في نفوس أهل فينا آثارًا لا تُمحى. ونشر بائع كتب إنجيليّ اسمه يوحنّا، العهد الجديد الذي ترجمه لوثِرُس وغيره من مؤلّفاته، فربطوه بوتدٍ وجمعوا كتبه حوله وأحرقوها فصرخ وهو في وسط اللّهب قائلاً: أنا مبتهج بالألم من أجل عمل الربّ.

تسميَة الإصلاحيِّين بالبروتِستَانـــْت

بينما كانت قضيّة الإصلاح وبروز الإصلاحيّين تشكّل الأحداث الأكبر على مسرح الكنيسة، وقد أوجدت الحركة الإصلاحيّة انفصامًا جديدًا في كنيسة الغرب وشعوبه ودوله، تريّث الأمبراطور كارل الخامس* طويلاً قبل أن يفقد الأمل بإعادة الوحدة إلى الأمبراطوريّة. لقد فكّر، على التوالي، وأحيانًا في الوقت نفسه، في عقد مجمع عام وفي النقاش الودّي وفي القتال المسلّح. وكان الأمراء الكاثوليك من جهة، والمناصرون للإصلاح من جهة ثانية، قد انتظموا في تحالفات متنافسة مستعدّة لخوض حرب أهليّة. وقد أثارت محاربة الكنيسة لتعاليم لوثر الشعب الجرمانيّ الذي، بحسب المصادر اللوثريّة، "أبى أن تُنزع منه كلمة اللّه بعد أن رُدّت إليه". وردّ الجرمانيّون على مناشير البابا وغيره من الأمراء الرومانيّين البابويّين بقولهم: "إنّنا نحرص على الإنجيل". ولمّا سارت المدن، في مقدّمة جيش الإصلاح، مال إليه كثيرون من الأمراء. وكان مجلس "إسبيرا[1]" سنة ١٥٢٨ قد أتاح للأمراء حريّة الإصلاح في نطاق حكم كلّ منهم. ولكنّ

---

١ - إسبيرا أو سبيرس SPIRE وفي الألمانيّة SPEYER: مدينة ألمانيّة على الرين، تحتضن كاتدرائيّة من القرن الحادي عشر.

مجلسًا آخر عُقد في إسبيرا أيضًا سنة ١٥٢٩، سحب هذا الامتياز. عندئذ قدّم الأمراء الذين اختاروا الإصلاح احتجاجًا رسميًّا، فجاء من هنا لقب "البروتستانت PROTESTANTS" أي "المحتجّون" الذي استُعمل منذ ذلك التاريخ للدلالة على جميع الذين انفصلوا عن روما على أثر قيام الحركة الإصلاحيّة[1].

في هذا الوقت، طلب لوثر أن يتناول الشعب العشاء الربّانيّ بمادّتَيه الخبز والخمر، وإلغاء كلّ ما يشير إلى أنّ ذلك العشاء ذبيحة. وأن يوعظ بالإنجيل في كلّ اجتماع، وأن يجتمع المؤمنون أو خدَمة الدين، على أقلّ الإمكان، كلّ صبيحة لقراءة العهد القديم وكلّ مساء لقراءة العهد الجديد، وأن تجتمع الكنيسة كلّها يوم الأحد قبل الظهر وبعده للعبادة، وأن تكون غاية عبادتهم نشر كلمة اللّه في العالم. وهكذا سقط القدّاس ولم يستطع الملك المنتخب أن يمنع ذلك، فرأى أنّ إبطال القدّاس كان بإرادة اللّه. وإبطال الرسوم الرومانيّة في كنيسة جميع القدّيسين عجّل إبطالها في كثير من الكنائس. وكانت المدرسة حليفة للكنيسة المصلحة فاتّحد العلم والدين وانتصرا، ودخل الإصلاح أقطار الدنيا.

ثمّ ناشد لوثر الولاة الاهتمام بالأولاد لأنّ كثيرين من الآباء يسيئون معاملتهم ويقسون على الصغار، وقال:

> إنّه بالعناية بالأولاد تحسن المملكة. ونجاح المدينة لا يقوم بمجرّد ثروتها وقوّة أسوارها وتشييد صروحها وحسن أسلحتها ووفرتها، فإنّها إذا هاجمها المجانين دمّروها. فغنى المدينة الحقّ وأمنها وقوّتها تقوم بكثرة علمائها وعقلائها ومهذّبيها، فإن لم يُعتنَ بذلك فما اللوم إلاّ عليكم أيّها الولاة.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

وحثّ لوثر الناس، لا سيّما الإكليروس، على درس العلوم واللغات وبخاصّة لغات الكتاب الأصليّة واللغة اللاتينيّة، لاستخراج الحقّ الكتابيّ. ولم يقتصر الإصلاح على نصرة الدين الحقّ والعلم، فامتدّ إلى الصناعات الجميلة كالنقش والتصوير والموسيقى وإلى الآداب والرقيّ.

كان الشعب قبل ذلك الوقت في هياج سياسيّ ضدّ الظلم. وكانت إمارات ذلك التذمّر قد ظهرت قبل الإصلاح بزمن طويل. وكان الدين يومئذ ممتزجًا بالسياسة المدنيّة. فتعذّر فصل أحدهما عن الآخر في القرن السادس عشر لتمكّن اقترانهما في الشعوب، حتّى صار من أخلاقهم، فعصى الفلاّحون في هولّندا مرارًا وصوّروا على أعلامهم رغيفًا وقطعة من الجبن، لأنّ الخبز والجبن كانا البركتَين العظيمتَين عند أولئك المساكين. وكان كلّ شيء يشير إلى أنّه لا يمكن منع الهياج العامّ زمنًا طويلاً. فإنّ الحكومة التي أفرغ فريديريك السكسونيّ الجهد في ترتيبها ووثقت بها الأمّة، انحلّت، والأمبراطور كان غائبًا، وتغلغل الانقسام ما بين الأمراء الذين بهم قوّة جرمانيا. لذلك فإنّ النهضة الدينيّة لم تولّد الاضطرابات السياسيّة لكنّها نبّهت، في أماكن كثيرة، إلى المظالم الدينيّة والسياسيّة، فاستشرى تذمّر الشعب. ولا ريب في أنّ قساوة لوثر وكتاباته وجرأته على الأعمال وغلاظة القضايا التي خاطب بها البابا والأساقفة والأمراء، عوامل ساعدت على تحفيز العقول الثائرة، طالما أنّ كتاب اللّه يدعو إلى الحريّة. كما اقتنع الناس بضرورة زوال تسلّط الحكومات، لأنّ الإنجيل ينادي بالرفق واللطف. ولمّا قبل الأمراء والشعب الإصلاح بابتهاج، حارب القسم الأقوى من الأمّة الإصلاح السياسيّ، ولمّا كان الإنجيل هو الدستور والسند الأوّل للحقّ لم يبقَ للمقاومين سوى القساوة والجور. وقد بدأت الفتنة في "الغابة السوداء"، وفي ١٩ تمّوز (يوليو) ١٥٢٤، حين قام بعض الفلاّحين من ثورنجيا على رئيس "ريخيناو" لأنّه

لم يسمح لهم بواعظ، وما كاد يمرّ قليل من الوقت حتّى اجتمع عدّة آلاف حول بلدة "تتغن" ليُطلقوا كاهنًا مسجونًا... وامتدّت الفتنة إلى فرنكونيا وثورنجيا وسكسونيا بسرعة غريبة. وفي كانون الثاني (يناير) ١٥٢٥ عصت كلّ تلك البلاد. وأضحت أجراس الكنائس تدعو إلى القتال بدل الصلاة، فكان الناس، عند سماعهم قرع الجرس، يجرون إلى السلاح. واجتمعت جماهير الغابة السوداء حول "يوحنّا مولار" قائدهم الذي راح ينتقل من قرية إلى أخرى ووراءه الفلاّحون، وخلفهم جميعًا مركبة عليها راية مثلّثة الألوان من أسود وأحمر وأبيض، دلالة على العصيان. وكانت كلّ مدينة لا تقدر على مقاومتهم تفتح لهم الأبواب وتتّحد معهم فيدخلون المعابد ويكسرون الصور والتماثيل والصلبان. وفي ٧ أيّار (مايو) إذ دخل الفلاّحون ورتنبرغ حيث لاقاهم الأهلون بالمديح، انسحبت جيوش أمراء سوابيا وفرنكونيا ولجأت إلى القلعة. وكانت الفتنة قد بلغت أقسامًا أخرى من جرمانيا وطالت الفلاّحين في بافاريا ووستفاليا والتيرول وسكسونيا ولورين. وقد قصد الثائرون إلغاء كلّ الحقوق الكنسيّة والمدنيّة الثقيلة. وعزموا على بيع أملاك الإكليروس أو منحها للأمراء والقيام بحاجات المملكة. واعترفوا بالسلطة الملكيّة بناءً على نصّ العهد الجديد وأرادوا منع الأمراء من الحكومة وإقامة أربع وستّين محكمة مطلقة أعضاؤها من كلّ طبقة، وطالبوا بإرجاع الرتب إلى سابق عهدها، وبأن يكون رؤساء الدين، على كافّة مستوياتهم، مجرّد رعاة؛ والأمراء والفرسان مجرّد محامين عن الضعفاء؛ وأن تكون الموازين والمكاييل متسواية، وتكون النقود واحدة في كلّ أجزاء المملكة.

كان لوثر يجول في نورنجيا ليسكّن الشغب، ولم يكن قد رأى الملك المنتخب إلاّ عن بعد وهو جالس في وُرمس إلى جانب كارل الخامس، لكنّهما اجتمعا بالروح منذ

أوّل ظهور المصلح، فكان فريديريك يسعى في نفع الشعب وفي الحريّة، ولوثر يسعى في سبيل الحقّ والإصلاح. وفي يوم الأحد ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢٤ طرح لوثر ثوب الرهبانيّة الأغسطينيّ ولبس ثوب كاهن رعويّ عاديّ وذهب إلى الكنيسة فسرّ المسيحيّون بذلك. وبعد قليل لم يبقَ في الدير راهب واحد، فانفرد به ولم يعد يُسمع فيه سوى وقع قدمَيه. وفي أواخر كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٤ أرسل لوثر مفاتيح الدير إلى الملك المنتخب الذي أعطى الدير للمدرسة، وسأل لوثر أن يبقى ساكنًا فيه، فتحوّل مسكن الرهبان بعد قليل مقدسَ أهل بيت مسيحيّ. وفي ١١ حزيران (يونيو) ١٥٢٥ تزوّج لوثر راهبة سابقة تُدعى "كاترينا بورا BORA" "استهزاءً بالشيطان وقشوره، وبجميع الذين ذهب بهم الجنون إلى حدّ نهي رجال الإكليروس عن الزواج"[١]، وبارك قرانه "بوميرانس" الذي كان يلقّبه لوثر بالراعي. وبعد سنة لزواجه وُلد له ابن.

وفي سنة ١٥٣٠ أراد كارل الخامس أن يبتّ في المسألة الدينيّة بالإقناع، وذلك في مجلس "أوغسبورغ[٢]"، طالبًا أن يتقدّم كلّ طرف بتعاليمه. فقام "ميلنغتن" باسم أنصار "لوثر" وحرّر مذكّرة سمّاها "شهادة إيمان أوغسبورغ" ما زالت حتّى اليوم مرجع جميع أنصار لوثر. وقد أبدى ميلنغتن كثيرًا من الاعتدال، محاولاً تفادي أهمّ المسائل المتنازع عليها[٣]. وواصل المذهب اللوثريّ انتشاره. وقد ناصر الأمراء الألمان مذهب لوثر لأنّهم، بحسب المؤرّخين الكاثوليك، رأوا فيه واسطة ناجعة للاستيلاء على

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٣.

٢ ـ أوغسبورغ AUGSBOURG: مدينة في جنوب غرب ألمانيا (بافاريا).

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩.

ممتلكات الكنيسة الواسعة[1]. في هذه الأثناء، كانت الحركة الإصلاحيّة الكالفينيّة قد بدأت في فرنسا.

ويذكر باحثون كنسيّون[2] أنّه إذ لم ينجح الحوار ولا انعقاد المجمع "التريدنتينيّ" في إعادة السلام والوحدة الدينيّة، قام الأمبراطور كارل الخامس بإعلان الحرب على البروتستانت؛ إلاّ أنّ المحالفة المعقودة بين السلطان العثمانيّ سليمان القانوني وملك فرنسا فرنسوا الأوّل قد أرغمته على التساهل معهم، فعقد اتّفاقيّة أوغسبرغ سنة ١٥٥٥ التي أقرّت وجوب الإعتراف بكيان الكنائس البروتستانتيّة في الدولة الألمانيّة، وفرضت المذهب البروتستانتيّ على السكّان متى كان الأمير بروتستانتيًّا، وفيما احتفظ بعض الأمراء بممتلكات الكنيسة التي "اغتصبوها"[3]، بقي آخرون على الكثلكة.

وفي سنة ١٦١٨ حاول الأمبراطور فرديناندُس الثاني[4] محاولة جديدة لقمع الأمراء البروتستانت في ألمانيا، فكسر عدّة محالفات قاموا بها. إلاّ أنّ فرنسا خافت على نفسها من انتصار الأمبراطور البوهيميّ، فآزرت البروتستانت وساندتهم. فعُقدت سنة ١٦٤٨ معاهدة "وِتْسفاليا[5]" التي منحت الناس الحريّة الدينيّة وأقرّت تجزئة ألمانيا

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٢.

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٣٨ - ٢٣٩.

٣ - المرجع السابق.

٤ **فرديناندُس الثّاني** FERDINAND (١٥٧٨ - ١٦٣٧): ملك بوهيميا والمجر ثمّ أمبراطور ١٦١٩، سبّب عداؤه للبروتستانتيّة حرب الثلاثين سنة.

٥ - **ويستفاليا** WESTPHALIE: منطقة في مونستير MUNSTER في الرين الأعلى، حصلت فيها تلك المعاهدات فنُسبت إليها، وكانت أهمّ الدول المشتركة في المفاوضات الحليفتَين فرنسا والسويد وخصومهما إسبانيا والأمبراطوريّة الرومانيّة المقدّسة والدويلات

وأضعفت سلطة الأمبراطور. وانتشر مذهب لوثر في معظم دويلات ألمانيا والدول الاسكنديناڤيّة (السويد ١٥٢٧، والدانمارك والنروج ١٥٣٧) وهولندا حيث أصبح المذهب الكالڤينيّ دين الدولة، إضافة إلى دول البلطيق. ولمّا مات لوثر في ١٩ شباط (فبراير) ١٥٤٦ كان "كَالْڤن" الفرنسيّ قد دعا لتعاليم جديدة فيها الكثير من أقوال لوثر. فيما كان الشعب غير معنيّ بالأمر لأنّه لم يكد يشعر بأيّ تغيير لأنّ معظم العادات القديمة بقيت كما هي[١].

التابعة للأمبراطوريّة والأراضي المنخفضة (هولندا)، وقد أضعفت المعاهدة سلطة ونفوذ الأمبراطوريّة وآل هابسبورغ فصارت الأمبراطوريّة مجرّد اتّحاد تعاهديّ يتألّف من دول ذات سيادة، وظفرت فرنسا بمعظم الألزاس وبعض المدن المحصّنة على الحدود، وحصلت السويد على غرب بومرانيا والمدينتّين بريمن وفرن اللتّين يحكمهما أسقفان، كما حصلت السويد والمقاطعات المتّحدة للأراضي المنخفضة على الاستقلال التام، ولكنّ فرنسا التي خرجت من الحرب منتصرة مظفّرة الجانب واصلت القتال ضدّ إسبانيا حتّى صلح البرانس ١٦٥٩.

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٠؛ ذكر مؤرّخون أنّه لمّا انتصر فرديناندُس الثاني في أوّل أمره، أصدر مرسومًا أرغم فيه البروتستانت على ردّ الممتلكات الكنسيّة التي صادروها من الكاثوليك سنة ١٥٥٢، لكنّ البروتستانت تحالفوا مع السويد وفرنسا. فامتدّ الخلاف إلى مجمل أوروبّا، ولم ينتهِ إلاّ بتوقيع معاهدات "ويستفاليا" سنة ١٦٤٨. بذلك عاد البروتستانت إلى ما كانوا عليه سنة ١٦١٨، وتمّ الاعتراف بالمذهب الكالڤينيّ في الأمبراطوريّة. فاحتجّ البابا "إينوقنطيوس INNOCENT" العاشر (١٦٤٤ ـ ١٦٥٥) على ما في المعاهدات من بنود دينيّة، لكنّ الكرسيّ الرسوليّ كان قد فقد دوره في القرارات السياسيّة الدوليّة؛ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

الفَصلُ الثَّالِث

تَعَدُّد الكَنائِس البرُوتستَانِيَّة

يُوحَنَّا كَالفِن في فَرنسَا؛ جنيف مدينة كُنسيَّة؛ إنتشَار الكالفينيَّة؛

زِفينغلي السّويسريّ؛ نشأة هولدريخ زفينغلي وجهاده واستشهَاده؛

إيرَاسمُس في بازل؛ غليوم فَاريل في إيغل وَبرن؛

حَركَة الإصلاحَ في فرنسَا؛ في إنكلترا؛ إنشقَاقَات وهجرَة.

يُوحَنّا كَالِفِن في فَرَنسَا

بينما كانت حركة الإصلاح ناشطة فـي جرمانيـا علـى يد مـارتن لوثـر وأصدقائـه وأتباعـه، بـرز مـن بيـن المصلحيـن، يومئذ عـدّة علمـاء أبرزهـم: "كـالفن"، "ويتمبـاخ"، "زونكل"، "كـابيتو"، "هـالر"، "إسكولمباديوس"، "أُسْوَلْد ميكونيـوس"، "ليويبهـودا"، "فَـرِل" و"كلوينُـس". وكـانت ميـادينهم: "جنيـف"، "غلاريـس"، "باسـل"، "زوريـخ"، "بـرن"، "نيوفشـاتل"، "جنيفـا" أو "جنـوا"، "لوسـرن"، "شـاف هوسـن"، "ايـنزل"، "سـنت غـال"، و"الغريسون". أمّا الإصلاح الجرمانيّ فكان له ميدان واحد مستوٍ كـالبلاد نفسـها وأمّـا الإصلاح السويسريّ فكان منقسمًا كالبلاد عينها بجبالهـا الكثيرة وأوديتهـا، فكـان لكـلّ منها مصلح خاصّ.

جان كَالْفِن JEAN CALVIN ، ويُعرف أيضًا باسـم يوحنّـا كـالفينُس، وُلـد فـي نويـون NOYON بفرنسا سنة ١٥٠٩، كان أبوه جيرارد كالفينُس كاتبًا رسوليًّا، وخـازن وكـاتب ونائب المجمع في أبرشيّة "نويون"، وكان عاقلاً مقتدرًا، وكـان ذا مقام رفيـع عند كـلّ آباء الولاية لا سيّما أسرة "مومور" الشريفة. وكان جيرارد يعاشر رؤسـاء الإكليـروس وأكابر الأبرشيّة. فرغب في أن يربّي أولاده تربيـة لائقـة. فتربّى يوحنّـا مـع أولاد آل مومور وعاش بينهم كأنّه واحد منهم، وحصّل مبادئ العلوم والآداب وتهذيب الأخـلاق. ثمّ ذهب إلـى مدرسـة "الكـابيتيّين" فـي "بويـون" حيـث لـم يكـن يتـنزّه إلاّ قليـلاً، ويحبّ الانفراد والتأمّل في الأفكار العظيمة. وكان يتردّد إلى قرية "بُنت لافيك" على مقربة من

نويون، لوجود جدّه وأقاربه هناك، فكانوا يستقبلونه بمحبّة[١]. وتقول المصادر الكالفينيّة إنّ كالفن قد مال منذ الصغر إلى التقوى، واعتاد في حداثته أن يصلّي في الصحراء فنبّه ذلك في قلبه وجود اللّه في كلّ مكان، على أنّه بقي شديد المحافظة على السنن البابويّة، فلمّا رأى الوالد ذلك من ابنه عزم أن يعلّمه اللاهوت. وتفرّغ كالفينُس للدرس بباريس وبرع في الحقوق والآداب وإحكام اللغة اللاتينيّة وطالع كلام شيشرون واعتاد التكلّم بلغة الرومانيّين بفصاحة وسهولة[٢]. وحين أخذ يهتمّ بحياته المسيحيّة، أي عند اهتدائه كما يقول، كان تفكيره إصلاحيًّا. وقد ذكرت مراجع بروتستانتيّة أنّ تحول كالفن عن الكثلكة إلى البروتستانتيّة قد حدث سنة ١٥٣٢. وقبيل وقوع "قضيّة الإعلانات" اللوثريّة، غادر باريس وطاف في أنحاء فرنسا وأصبح لاهوتيًّا في خدمة المنشقّين الفرنسيّين. ذلك أنّه كان قد تأثّر بمذهب لوثر، إلاّ أنّه غيّر فيه بعض القضايا كبرى، أهمّها يتعلّق بالإيمان والتبرير والكنيسة والأسرار. فخالفه لوثر في بعض الأمور وضيّق حدود الإصلاح. وشرع هذان الصديقان: لوثر وكالفن، يتجادلان. وانقسم المصلحون إلى حزبَين، كان مع كلّ منهما قسم من الحقّ، على أنّ كلاًّ منهما قاوم النظم الرومانيّة، وكانت الحركتان تعملان تحت راية واحدة هي راية يسوع المسيح الذي هو وحده الحقّ[٣]. على أنّه لاحت في الأفق كنيستان إصلاحيّتان: الكنيسة اللوثريّة، والكنيسة الكالفينيّة.

---

١ - سوف تتغيّر هذه العائلة كنوتها كرهًا بكالفن عندما صار إنجيليًّا.

٢ - بما أنّ اللغة اللاتينيّة كانت إلى ذلك العهد لغة العلم الوحيدة، وبقيت إلى أيّامنا لغة الكنيسة الرومانيّة، فقد كانت أيضًا سلاحًا لكالفينُس في المناظرة والاستدلال وإنارة العامّة بالتعليم باللغة الفرنسيّة واعتادت فرنسا لغة كالفينُس.

٣ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٣؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٥ - ٢٣٦.

أقام كالفِن في "بال" ونشر، سنة ١٥٣٦، باللاتينيّة، "إنشاء الدين المسيحيّ"[١] ليوفّر للفرنسيّين تعليمًا قويمًا ودفاعًا عن ذكرى الشهداء. وقد تُرجم هذا الكتاب إلى الفرنسيّة سنة ١٥٤١ وتعاقبت طبعاته بعد أن زيد عليها في كلّ مرّة، حتّى شكّلت، في ١٥٥٩، أربعة مجلّدات، جعلت من الكتاب خلاصة علم اللاهوت البروتستانتيّ، وممّا جاء فيه:

> علينا أن نلاحظ باجتهاد أنّ اللّه يأمر كلاً منّا أن يتأمّل دعوته في جميع أعمال حياته. لأنّه يعرف حقّ المعرفة كيف أنّ عقل الإنسان يتحرّق قلقًا، وبأيّة خفّة يميل إلى هنا وهناك، وأيّ طموح وأيّ جشع يستميله إلى مزاولة عدّة أمور مختلفة في آن واحد. ولئلاّ نلقي الفوضى في جميع الأشياء بسبب جنوننا وتهوّرنا، فإنّ اللّه، الذي يميّز تلك الحالات والطرق في الحياة، فرض على كلّ واحد ما يجب عليه أن يعمله. ولئلاّ يتخطّى أحد حدوده، سمّى اللّه تلك الطرق في الحياة "دعوات". فعلى كلّ واحد أن يعتقد بأنّ حالته عبارة عن محطّة عيّنها اللّه، كي لا يلفّ ويدور من هنا إلى هناك طول حياته[٢]...

ألغى كَالفِن من الكنيسة النظام الأسقفيّ، ووضع لها نظامًا شديدًا. فانتشر مذهبه في سويسرا وهولّندا واسكوتلندا وبوهيميا والمجر وفرنسا. وقد سبّب انتشاره في فرنسا حروبًا دامت عدّة سنوات. وأقرّ الملك هنري الرابع[٣] في مرسوم نانت[٤] سنة ١٥٩٨ حريّة الضمير والمذهب، فوضعت قرارات ذلك المرسوم حدًّا للحرب الدينيّة

---

١ ـ ترجم آخرون هذا الكتاب باسم "أنظمة الدين المسيحيّ".

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٦.

٣ ـ هنري الرابع (١٥٥٣ ـ ١٦١٠): ملك ١٥٨٩ ـ ١٦١٠، خلف نسيبه هنري الثالث، كان بروتستانتيًا فنشأت بسبب ذلك أزمة سياسيّة، حارب معارضيه ثمّ ارتدّ إلى الكثلكة ١٥٩٣، دخل باريس ١٥٩٤ وانتصر على الإسبان، أذاع "قرار نانت" الذي وضع حدًّا للحروب الدينيّة في بلاده، قضى اغتيالاً، به يبدأ الفرع البوربونيّ في السلالة الفرنسيّة.

٤ ـ نانت NANTES: مدينة ومرفأ في غرب فرنسا، قاعدة محافظة اللوار الأطلسيّ على نهر اللوار، مركز كرسيّ أسقفيّ.

الكاثوليكيّة ـ البروتستانتيّة في فرنسا. وبقيت فرنسا الدولة الوحيدة التي أمكن فيها التعايش السلميّ بين الكاثوليك والبروتستانت، مع قلّة عدد هؤلاء[1].

بين ١٥٣٦ و١٥٣٨، أقام كَالفن في جنيف بسويرا مدّة قصيرة[2] وقضى ثلاث سنوات في ستراسبورغ[3] اهتمّ بخلالها باللاجئين الفرنسيّين. وقَبِل، بتحفّظ، أن يعود إلى جنيف نزولاً عند طلب سكّانها. وكان ذلك في سنة ١٥٤١. لكنّه بقي فيها إلى يوم وفاته في ١٥٦٤. وكان تنظيمه لكنيسة جنيف نموذجًا انتشر في ما بعد انتشارًا واسعًا في أوروبّا وفي العالم كلّه[4].

إلاّ أنّه قد ظهر، طوال القرن السابع عشر أناس مسالمون، وإن كان عددهم قليلاً، عملوا على التقارب بين مسيحيّي مختلف المذاهب. وفي هذا الإطار جاءت المراسلات التي كان محورها الفيلسوف "لايبنيتز[5]". ففي مرحلة أولى قام "سبينولا SPINOLA"، وهو أسقف فرنسيسكانيّ صديق للأمبراطور "ليوبولد الأوّل[6]" فاتّصل بكاهن لوثريّ في

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٢٦٣؛ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

٢ ـ ذكرت مراجع أنّ كالفن قد نُفي من جنيف ١٥٣٨ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٩٧٤.

٣ ـ ستراسبورغ STRASBOURG : مدينة في شرق فرنسا، قاعدة الألزاس، مرفأ على نهر الرين ومركز جامعيّ وثقافيّ.

٤ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦.

٥ ـ غونفريد فيلهلم لايبنيتز LEIBNIZ (١٦٤٦ ـ ١٧١٦): رياضيّ وفيلسوف ومخترع ألمانيّ، وُلد في لايبسك، حاول مع بوسويه وسواه دمج الكنيستَين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة، اكتشف أسس التحليل الحسابيّ، من أتباع الفلسفة المثاليّة، اشتهر بنزعته التفاؤليّة، له "المونادولوجيا".

٦ ـ ليوبولد الأوّل LÉOPOLD (١٦٤٠ ـ ١٧٠٥)، ملك المجر ١٦٥٥ ثمّ أمبراطور جرمانيّ ١٦٥٧، استعان بدول أوروبّا لدفع الخطر العثمانيّ عن فيينّا ١٦٨٣، عقد مع الأتراك معاهدة "كارلوفيتش" فضمن انسحابهم من البحر ١٦٩٩، اشترك في حرب الوراثة الإسبانيّة.

"هانوفر[1]" يدعى "مولانُس MOLANUS" كما اتّصل بـ"لايبنيتز"، ووضع الثلاثة سنة ١٦٨٣ نصًّا سياسيًّا بعنوان "قواعد لتوحيد عامّ للمسيحيّين". وفي مرحلة ثانية، أقيمت مراسلة مكثّفة بين "جاك بوسويه BOSSUET" أسقف "مو" الفرنسيّ، ولايبنيتز (١٦٩١ ـ ١٦٩٤). وقد أراد لايبنيتز أن يعلّق العمل بموجب المجمع التريدنتينيّ، ريثما يُعقد مجمع عامّ جديد. لكنّ الاتّفاق لم يتمّ، إذ إنّ بوسويه كان يرى أن على لايبنيتز أن يصبح كاثوليكيًّا، في حين كان يرغب لايبنيتز في أن يسلّم بوسويه بوجود عدّة وجهات نظر مسيحيّة[2].

جنيــــــف

مدينةٌ كنسيَّة

يشبه تعليم كَالفِن تعليم لوثِر في فكره الأساسيّ، لكنّه أكثر منه منهجيّة بكثير. ويشدّد على بعض الأمور الخاصّة. وتختلف مبادئ اللاهوت الكالفينيّ عن العقيدة الكاثوليكيّة في أشياء أساسيّة كعدم الإعتراف بسلطات البابا وقبول فكرة التبرير بالإيمان فقط؛ وتنظيم عقيدة القضاء المحتوم، وهي أهمّ عقيدة تتميّز بها الكالفينيّة؛ والتمسّك بأنّ الخلاص يتمّ للمختارين فقط، وأنّه عطيّة من الله لا تكتسب بالأعمال الصالحة. وآمن كالفن بأنّ الكتاب المقدّس هو المصدر الوحيد لشريعة الله ونواميسه. وأنّ من واجب الإنسان أن يفسّر تلك الشريعة، وأن يحافظ على النظام في العالم[3].

---

١ ـ هانوفر HANOVRE: مدينة في وسط ألمانياعلى نهر لينه، ومقاطعة بروسيّة سابقة أصبحت جزءًا من سكسونيا السفلى.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

٣ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٩٧٤.

ويبدو كَالفِن مأخوذًا بسيادة اللّه: "للّه وحده المجد". ويشدّد، بقوّة، على انحطاط الإنسان بعد ارتكاب الخطيئة الأصليّة: "نحن كلّنا هالكون، لكنّ اللّه السيّد المطلق يخلّص الذين اختارهم"... هذا هو الاختيار السابق الذي كثيرًا ما يُعتبر ميزة التعليم الكَالفينيّ. ويقترح كَالفِن نظامًا أخلاقيًا عمليًا هو بمثابة تأييد التبنّي الذي به يقبلنا اللّه كأبناء له. وهذا النظام الأخلاقيّ نظام اجتماعيّ، لأنّ الإنسان هو "خليقة مرافقة". ويحتاج الإنسان، عند كَالفِن، لترسيخ إيمانه، إلى "عون خارجيّ هو الكنيسة". فيشدّد كَالفِن، مع الإشارة إلى الكنيسة غير المنظورة، على الكنيسة المنظورة التي هي الجماعة المحليّة. و"حيثما تُعلن كلمة اللّه صافية وتُمنح الأسرار"، كانت هناك كنيسة حقيقيّة. و"أمّا الأسرار فهي الدليل الخارجيّ" على نعمة اللّه علينا وتثبيت إيماننا. والمعموديّة هي الدليل على مغفرة الخطايا. ويدافع كَالفِن بقوّة عن معموديّة الأطفال. لكنّ تعليمه في الأفخارستيّا، في العشاء السرّيّ، يختلف عن تعليم لوثر: فـ"المسيح يهبنا نفسه في الوقت الذي نتناول الخبز والخمر". و"لا بدّ أن تُنظَّم الكنيسة تنظيمًا دقيقًا"، فإنّ "عدم النظام تجديف على المسيح، رئيس الجسد الذي هو الكنيسة". وكتاب "الترتيبات الكنسيّة" الذي صدر لكَالفِن سنة ١٥٤١ وضع أسس كنيسة جنيف. وهذا التنظيم ينبثق من الكتاب المقدّس، لا بل من شخصيّة كَالفِن أيضًا، وقد تأثّرت بدراسة الحقوق وبالاطّلاع على مؤلّفات أفلاطون. فهناك أربع خدمات: الرعاة، والملافنة، والشيوخ، والشمامسة[١]. وحياة الكنيسة يراقبها "المجمع" الذي يضمّ الرعاة واثنَي عشر شيخًا

---

١ ـ نظام المشيخيّة الكنسيّ: ترتكز السلطة فيه على سلسلة مجالس من الشيوخ العلمانيّين ورجال الإكليروس، وهو وسط بين النظام الكنسيّ الجمهوريّ والنظام الأسقفيّ، ويدير الشيوخ شؤون الكنيسة الروحيّة، بينما يهتمّ الأمناء والشمامسة بالأمور الزمنيّة، ومجلس الطائفة يُسمّى مجمعًا، ويليه السينودوس، أمّا المجمع الأعلى فهو المرجع الأعلى في هذا التنظيم، وله سلطة الإشراف على الطائفة، ورئيس المجمع هو المدير العامّ. والكنائس المشيخيّة وريثة النظم الكالفينيّة في العقيدة والنظام، والمشيخيّون يعتقدون أنّ الكتاب

تنتخبهم السلطات. ويسهر المجمع على كلّ شيء في الكنيسة، وتكلّف السلطة المدنيّة بتطبيق قراراته. ويميّز كَالفِن، مبدئيًا، تمييزًا دقيقًا بين السلطة المدنيّة والسلطة الكنسيّة. لكنّهما يرتبطان ارتباطًا وثيقًا، لأنّ الدولة تتدخّل في تعيين خدّام الكنيسة، ولأنّ المجمع ينبثق من السلطة المدنيّة. وقد أراد كَالفِن أن يجعل من جنيف مدينة مسيحيّة، فجعل رجال الكنيسة يشرفون على نشاط الدولة. وقد رأى باحثون أنّ كَالفِن قد قرّب المجتمع المسيحيّ بذلك إلى القرون الوسطى[1]. كما أنّه حاول تحقيق مبادئه في جنيف بجعل الحكومة تعتمد على شريعة الله دون سواها. فنشأ بذلك من تعاليمه أحد المذاهب المسيحيّة الهامّة: الكالفينيّة[2].

كانت التعليمات والتوجيهات تشمل حياة أهل جنيف برمّتها، وكان الحكم بالإعدام غير نادر، وكذلك الخلافات بين الأفراد. وكانت الخلافات المذهبيّة هي الأخطر، وربّما اتّخذت طابعًا مأسويًّا يوم أُحرق "ميشال سِرفه SERVET" سنة ١٥٥٣ لأنّه أنكر سرّ الثالوث الأقدس[3].

المقدّس هو المقياس الوحيد للإنسان، وأنّ هناك سرّين فقط من الأسرار المقدّسة هما: المعموديّة، والعشاء الربّانيّ، ويتبع المشيخيّون في الجزر البريطانيّة اعترافات وستمنستر للإيمان، وكاتيكسموس لوثر، وقويت المشيخيّة في إنكلترا في القرن ١٦، وخصوصًا في اسكتلندا تحت قيادة جون نوكس، أمّا المنشقّون عن كنيسة اسكتلندا فهم الكمرونيّون أو أصحاب الميثاق، والسينودوس المساعد والبرغرس، وكنيسة اسكتلندا الحرة، وتنحصر المشيخيّة الإيرلنديّة في شرق إيرلندا، وتتمثّل في ويلز بالكنيسة الكالفينيّة الميثوديّة، وقد أسّس فرنسيس ماكامين وهو مرسل إيرلنديّ، أوّل مشيخيّة في فيلادلفيا الولايات المتّحدة ١٧٠٦، وتشكّل السينودوس ١٧١٦. وفي الولايات المتّحدة الآن عدّة كنائس مشيخيّة.

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨.

٢ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٩٧٤.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

لقد أسهم في انتشار الإصلاح الكَالفيني إنشاء مدرسة جنيف سنة ١٥٥٩ عن يد "ثيودور دي بيز THÉODORE DE BÈZE"، لتدرّس فيها جميع الموادّ من الابتدائيّ إلى التعليم العالي. تلك المدرسة التي قصدها كثير من الأجانب لدرس العلوم اللاهوتيّة وأصبحوا المسؤولين عن الكنائس البروتستانتيّة ذات النهج الكَالفينيّ. وبذلك يكون كَالفن قد قدّم للحركة الإصلاحيّة الشموليّة والسلطة. واقتبست كنائس كثيرة بعض عناصرها من كنيسة جنيف، خاصّة لجهة النظام المشيخيّ والجماعة المحليّة بخدماتها الرعويّة الأربع. ومن جهة أخرى، يمكن القول بأنّ كَالفن قد أنشأ نهجًا جديدًا للإنسان والحضارة، بتقديمه نمطًا جديدًا لتطبيق الإنجيل في الحياة اليوميّة، وبإعادة الاعتبار، على الصعيد اللاهوتيّ، إلى الحياة الماديّة. فهو يقطع صلته بنظريّات القرون الوسطى، باعتباره الإقراض بالفائدة أمرًا مشروعًا. ولذلك يرى فيه بعض المؤرّخين أحد الدعاة إلى النظام الرأسماليّ[1].

إنتشَـــار الكالفينيَّة

يرى باحثون كنسيّون[2] أنّه في عهد كَالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) دخلت البروتستانتيّة في الجيل الثاني للإصلاح، الجيل الذي لم يصنع الإصلاح، بل وطّده. ولم يكن كالفن من رجال الإكليروس، بل كان علمانيًّا. ومن جهة أخرى، كان فرنسيًّا، في حين أنّ لوثر ورفاقه كانوا جرمانيّين. وكان الإصلاح في فرنسا قد اقتصر على بعض

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٨.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٣٥.

المجموعات الصغيرة، إلى أن أُحرق أحد اللوثريّين في باريس سنة ١٥٢٣، فأبدى الملك فرنسوا الأوّل[1]، في أوّل أمره، بعض التسامح، لكنّ "قضيّة الملصقات" التي كانت توجّه الشتائم إلى ذبيحة القدّاس وأُلصقت على باب غرفة الملك سنة ١٥٣٤، أثارت غضبه وأدّت إلى ملاحقة بعض المنشقّين، فأُحرق بعضهم. وبذلك اكتسب المجدّدون شهداءهم، وما لبثوا أن وجدوا في كالفن معلّمهم اللاهوتيّ[2].

وقد انتشرت الكالفينيّة على نطاق واسع، وأضحت النظام المتّبع في الكنائس البروتستانتيّة المعروفة بالمُصلحة، للتمييز بينها وبين الكنائس المتمسّكة بالعقائد اللوثريّة. واعتنق العقيدة الكالفينيّة جماعات من "أهل الميثاق" في اسكتلندا، و"البيوريتان" في إنكلترا ونيوإنغلند في الولايات المتّحدة الأميركيّة، و"الهيغولوت" في فرنسا[3].

زفينغلي السوسري

"هولدريخ زفِينغلي ZWINGLI" (١٤٨٤ ـ ١٥٣١) يلقّب بالرجل الثالث في الإصلاح، بعد لوثر وكالفن. وهو مصلح سويسريّ بروتستانتيّ. كان قسّيسًا متضلّعًا من الآداب القديمة وتلميذًا لإيروسيمُس وكاهن رعيّة في سويسرا. من دعاة الحركة الإنسانيّة.

---

١ ـ فرنسوا الأوّل (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧): ملك فرنسا ١٥١٥، حارب أمبراطور إسبانيا والنمسا كارل الخامس، أقرّ الفرنسيّة لغة البلاد الرسميّة عوضًا عن اللاتينيّة، على أيّامه أبرمت معاهدة "الإمتيازات الأجنبيّة" بينه وبين السلطان سليمان القانوني العثمانيّ ١٥٣٦.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

٣ ـ الموسوعة العربيّة الميسّرة، مرجع سابق، ٣: ١٩٧٤.

رافق رعاياه المتطوّعين في خدمة البابا في الحروب التي خاضتها إيطاليا. ولمّا أصبح كاهن رعيّة زوريخ، وجّه المدينة إلى صفوف الإصلاح: فعلمن الأديرة وأدخل الألمانيّة إلى الليتورجيا وحطّم التماثيل. وهو لم يتأثّر مثل لوثر باختبار شخصيّ، فكان أشدّ ميلاً منه إلى تنظيم الكنيسة بحسب روح الإنجيل وتحرير شعبه من التبعيّة لسلطة غريبة. ولم يتردّد في اللجوء إلى الإكراه لإرغام المعارضين. واختلف عن لوثر في شأن الأفخارستيّا، ولم يرَ فيها سوى حضور رمزيّ للمسيح. وقال إنّ الأسرار هي مجرّد تذكارات ووعود، وأضاف أنّ المعموديّة ليس لها فعاليّة في حدّ ذاتها، بل تعني أنّ اللّه اختار فحسب. لكنّ بعض الكانتونات السويسريّة عارض انتشار الإصلاح، فكانت الحرب الاهليّة. ويقول مؤرّخو البروتستانت إنّ زفينغلي شعر أنّه بنهجه نهج الحكّام الدنيويّين، ضلّ عن طريق خدمة المسيح، لذلك أخذ يبرّر نفسه بقوله: "لا شكّ في أنّه بقوّة اللّه وحده يجب نصر كلمة الربّ لا بالقوّة البشريّة ولكنّه تعالى كثيرًا ما يستخدم الناس لنجدة الناس، فلنتّفق إذًا ولنكن شعبًا واحدًا ومعاهدة واحدة من منابع الرين إلى ستراسبورغ"[1]. ومات "زفينغلي" في ساحة القتال وهو في صحبة جيش زوريخ. أمّا الإصلاح "الزفينغليّ" فقد امتدّ تأثيره إلى "برن BERNE" وإلى كافّة أنحاء سويسرا[2]. غير أنّ أتباعه قد هُزموا في الحرب التي قامت بين البروتستانت والكاثوليك في سويسرا. وذابت تعاليمه في تعاليم كالفن. تلك التعاليم التي ارتكزت في بعض

---

١ ـ عندما رأى زفينغلي ازدياد عدد الإنجيليّين، سعى في جمعهم في عهد ميثاق مقدّس، فأدخل في ذلك الميثاق سنة ١٥٢٧ كلاً من: "ستراسبورغ" و"أنوغسبرغ" و"أولم" و"ريوتلنغن" و"لنداو" و"مامنغن" ولماكن أخرى من جرمانيا العليا. ودخلت "قسطنسيا" في المعاهدة في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٧، ودخلت "برن" في حزيران (يونيو) و"سانت غال" في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢٨، و"بيال" في كانون الثاني (يناير) و"ملهوسن" في شباط (فبراير) و"بازل" في آذار (مارس) و"شافهوسن" في أيلول (سبتمبر) و"ستراسبورغ" في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٩.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥.

نواحيها على عقيدة زفينغلي[١]. ويرى باحثون بروتستانتيّون أنّ تقدّم زفينغلي في تلك الطريق المهلكة التي ساقه إليها طبعه ومحبّته للوطن وما تعوّده منذ الحداثة، ولمّا رأى الأعداء يقاومونه على اعتقاده والأصدقاء يقاومونه على طريقته السياسيّة أصابه الدوار. ولا شكّ في أنّ زفينغلي كان في السياسة من أعظم رجال العصور الحديثة. فكان كلّ قصده أن يأتي بحركة تغيّر تاريخ أوروبّا، وكان يرى أن يكون مكان كارل الخامس صديقُه أمير "هسّ". والخلاصة أنّ عيوب الإصلاح كانت يومئذ الجمع بين الديانة والسياسة. والظاهر أنّ زفينغلي وأمير هسّ كانا قد كتبا في مربرغ الصورة الأولى للمعاهدة العامّة ضدّ كارلس الخامس، فتكفّل الأمير باستمالة الأمراء وتكفّل زفينغلي باستمالة المدن الحرّة في جرمانيا وسويسرا الجنوبيّتَين. ودبّر أمرًا لينظّم في سلك تلك المعاهدة جمهوريّات إيطاليا أو جمهوريّة فينيسيا القويّة على أقلّ الإمكان لتشغل الأمبراطور بما وراء جبال الألب وتمنعه من جمع كلّ قوّاته في جرمانيا. وبهذا أعدّ الطريق للويل الهائل الذي كان على وشك أن ينزل في بيته وبلاده وكنيسته. وذكر باحثون بروتستانت أيضًا أنّ نبأ انكسار الزوريخيّين تسبّب في اضطراب أهل زوريخ وخوفهم وحزنهم إلى حدّ بعيد، واغتاظ كثيرون من الذين حثّوا على الحرب أو كانوا علّتها. كما اتّهم كثيرون من القوّاد بالخيانة، وسُمع رجل يقول: فلنقطع رؤوس بعض الذين يتصدّرون في المجالس. وثار بعضهم على المصلحين وتهدّدوا "ليون يهودا" الذي كان يتوقّع أن يكون خليفة زفينغلي فحمله أحدهم وخبّأه في بيته. ثمّ سكن الثائرون. ويقول الباحثون أنفسهم إنّ روما أخذت، حينذاك، ترجع في الحال إلى سويسرا حيث حُكم على جماعة من أهل

---

[١] - يذكر الإنجيليّون أنّه بعد وفاة زفينغلي حدث فراغ عظيم في الكنيسة الإصلاحيّة، وأسف لوثرُس عليه كثيرًا.

الإصلاح بالنفي، وعلى غيرهم بتأدية مبلغ ثقيل من المال. ثمّ أرجعوا القدّاس والمذابح والأيقونات في كلّ مكان ولم تزل إلى يومنا هذا.

كان زفينغلي مقتنعًا بأنّ الدين يجب أن يُستوحى مباشرة من الكتاب المقدّس، وقد بدأ في مدينة زوريخ باتّباع الطريقة البروتستانتيّة. وظهرت مبادؤه واضحة في كتابَيه: "أركيتيليس" ١٥٢٢، و"القضايا السبع والستّون" ١٥٢٣. فقاوم استعمال الطقوس والصور والتماثيل في الكنائس. وكذلك عارض مبدأ عزوبة رجال الإكليروس والرهبان، وقيام البابويّة، وحبّذ المسؤوليّة الفرديّة في المعتقد، وأيّدته السلطات المدنيّة في زوريخ. وهكذا أصبح زعيمًا بروتستانتيًّا بارزًا في جنوب ألمانيا وفي معظم أرجاء سويسرا. وتختلف عقيدته في العشاء الربّانيّ عن لوثر، لأنّه يعتقد بأنّ الاحتفال به إنّما هو للذكرى فقط. وفي حوار "ماربورغ" سنة ١٥٢٩، اختلف المصلحان حول هذه العقيدة. وكان معهما "أوكلامباديوس" و"ميلنكتُن"[1].

١ ـ بحسب المصادر البروتستانتيّة أنّه في تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥٢٩ ذهب زفينغلي إلى "مربرغ" بدعوة "فيليبس" والي "همس" فاتّفقا سريعًا لتماثلهما في الجسارة وعجزهما عن أن يتّفقا مع لوثِرُس. فلوثِرُس تربّى في الدير بالطاعة الرهبانيّة فامتلأ منذ الحداثة من أقوال الآباء وأقوال الكنيسة خلافًا لزفينغلي الذي تربّى في الحريّة السويسريّة وامتلأ منذ حداثته من تاريخ الجمهوريّات القديمة؛ فكان لوثِرُس يميل إلى الطاعة مطلقًا وكان زفينغلي يوجب مقاومة الظالمين. وهذان الرجلان كانا رسمَين لأمّتهما، ففي شمالي جرمانيا كان قوام الأمّة الأمراء والأشراف ولم يكن للشعب من حريّة مدنيّة فاكتفى باتّباع العلماء والرؤساء. وفي سويسرا، وعلى الرين، كان للأهلين حريّة مدنيّة فساعدوا كلّ المساعدة على إصلاح الكنيسة. وفي سنة ١٥٣٠ اجتمع في بازل وكلاء "الجمهوريّة المسيحيّة" وحاول معتمدو ستراتسبورغ جاهدين أن يوفّقوا بين لوثِرُس وزفينغلي، وكان من بين المجتمعين أناس قد عزموا على بتّ الأمر فكانت المحبّة الأخويّة على وشك أن تنتصر وكان السلام متوقّعًا أن يُنال بالاتّحاد. ومنتخب سكسونيا نفسه رغب في اتّحاد جميع المسيحيّين فدعى الأمير المدن السويسريّة إلى قبول ذلك. وشاع أنّ لوثِرُس وزفينغلي كانا مزمعَين أن يقرّا إقرارًا واحدًا بالإيمان. وقال زفينغلي أمام كثيرين "إنّ لوثِرُس لم يتمسّك بالغلط في مسألة العشاء الربّانيّ لو لم يطعه ملنكتون"، ولكنّ لوثِرُس برهن على أنّ زفينغلي قد أخطأ في نظريّته. فطلب صكًّا مكتوبًا ينقاد به زفينغلي إلى اعتقاده فكان ذلك سببًا لانقطاع المراسلات.

كان مبدأ لوثر يقول بعدم الإبقاء على أيّ شيء من تعليم الكنيسة وعاداتها ما لم يوجب ذلك نصّ الكتب المقدّسة؛ من هذا المنطلق جاءت مقولته في مسألة العشاء الربّانيّ. أمّا زفينغلي فكان مخالفًا للوثر في بعض الأمور، وكان أقلّ ميلاً إلى حفظ الإتّحاد بالكنيسة العامّة والبقاء على تقاليد القرون الماضية. ورأى في العشاء الربّانيّ علامة شراكة روحيّة بين المسيح والمؤمنين. وإذ قال: "كلّ مَن تناول هذا العشاء بغير استحقاق فإنّه مذنب إلى جسد المسيح الذي هو من أعضائه"... كان لهذا البيان أثر عظيم ثبت في عقول الناس وثبت زفينغلي فيه. هذا الاختلاف، بعّد بين لوثر وزفينغلي إلى حدّ واضح المعالم، بلغ وضع الانفصال. ويقول باحثون إنجيليّون إنّ أنصار الإصلاح، مع ما بينهم من خلاف في الشكليّات، بذلوا الجهد في نقض المفاهيم البابويّة، ما أدّى إلى تكتّل البابويّين، رغم خلافاتهم السابقة، وعلى مختلف شيعهم، ضدّ تيّار الإصلاح.

نشأة هولدْريخ زفينْغلي وجهاده واستشهَاده

أمّا عن نشأة زفينغلي فيروي أتباعه أنّه كان في منتصف القرن الحادي عشر ناسكان من "سانت غال" أقاما كوخَين قرب نهر صغير اسمه "تور"، نشأت قربهما، في ذلك الوادي، قرية سُمّيت "وايلد هاوس"، أي البيت البريّ. ففي نهاية القرن الخامس عشر سكن الكوخَين رجل إسمه "زفينغلي"، وهو شيخ ضيعة صغيرة، وكان ذلك الشيخ يتحدّر من أسرة عريقة ذات شأن عند سكّان الجبال هناك، وكان أخوه "برثلماوس" كاهن رعيّة القرية، وكانت زوجة شيخ وايلد هاوس "مرغريتّا ميلي"، فهذه ولدت له "هنري" و"كلاوس"، ثمّ ولدت له، لسبعة أسابيع من ولادة مارتينُس لوثِرُس، ابنًا ثالثًا

عام ١٤٨٤ سمّاه "هولدريخ"، ثمّ زادت تلك الأسرة خمسة أبناء وهم "يوحنّا" و"فولفغانغ" و"برثلماوس" و"يعقوب" و"إندراوس"، وابنة وحيدة اسمها "حنّة".

لم يكن أحد في تلك المقاطعة كالشيخ زفينغلي اعتبارًا، فإنّ سجيّته ورتبته وكثرة أولاده جعلته أبًا لأهل الجبال. وكان هو وأولاده رعاة. وقد سرّ الشيخ بأخلاق ابنه هولدريخ الحسنة إذ رأى فيه أنّه أهل لأحسن من رعاية الماشية، فأخذه إلى "ويسن" ودخل بيت أخيه الذي أوكل تهذيبه إلى معلّم مدرسة هناك، فأحكم هولدريخ زفينغلي، في زمن قصير، كلّ معارف ذلك المعلّم. ولمّا بلغ سنّ العاشرة أرسله أبوه وعمّه إلى "بازل"، وأُدخل مدرسة القدّيس "ثيودورُس" هناك، وكان رئيسها يومذاك "غريغوريُس بنزلي" المشهور بالرقّة واللطف، فتقدّم هولدريخ زفينغلي سريعًا. وكان "لوبُولُس"، أحد مشاهير الأساتذة وشعراء العصر، قد أنشأ في برن المدرسة الأولى للعلوم العالية فأُرسل هولدريخ إليها سنة ١٤٩٧، وفي تلك المدرسة اتّسع عقله وحسن إنشاؤه وصار شاعرًا مجيدًا. وكان أشهر أديرة برن دير الدومينيكان، وكان الخصام بين رهبانه ورهبان مار فرنسيس على غاية الشدّة. فإنّ هؤلاء كانوا يقولون إنّ مريم حُبل بها بلا دنس، وأولئك ينفون ذلك. ولم يكن للدومينيكان من همّ سوى أن يذلّوا خصومهم. وكانوا قد سمعوا صوت هولدريخ وبلغهم أنّه قويّ الإدراك وافر الفهم على حداثته، فاجتهدوا في جذبه إلى رهبانيّتهم ودعوه إلى الإقامة في ديرهم إلى أن يبلغ سنّ الابتداء الرهبانيّ. فلمّا عرف والد هولدريخ بذلك خشي حيلهم وأمر ابنه بهجر برن سريعًا، فسافر إلى فيينّا عاصمة أوستريا وكان من رفاقه في الدرس شابّ من "سانت غال" إسمه "يواكيم فاديان" وكان يُرجى، لسموّ عقله، أن يكون زينة سويسرا في العلم والفقه.

اجتهد زفينكلي في درس اللاهوت واكتشاف المغالطات فيه، وكان يستريح من أتعاب الدرس بالتنزّهات الجائزة والعزف على الآلات الموسيقيّة. وعندما خلا مقام

"راعي غلاريس" أُفيد زفينغلي بانتخابه راعيًا برقيم من الحبر الرومانيّ أعلمه به شاب اسمه "هنري غلُدلي" وهو شمّاس البابا. لكنّ رعاة غلاريس الذين يفتخرون بقدَم جنسهم وبجهادهم في سبيل الحريّة، أبوا أن يحنوا رؤوسهم لقطعة رقّ من روما. وكانت وايلد هاوس قريبة من غلاريس فرغب الغلاريسيّون في أن يكون زفينغلي راعيًا لهم فدعوه سنة ١٥٠٦ ورسمه الأسقف في "كنستانس" وألقى أولى عظاته في "رابل سويس" واحتفل بالقدّاس الأوّل في "وايلد هاوس" في عيد مار ميخائيل أمام أقاربه وأصدقاء أسرته. وفي نحو آخر السنة وصل إلى غلاريس. فاجتهد زفينغلي في القيام بأمور أبرشيّته العظيمة. وإذ لم يكن قد تجاوز العشرين من العمر كان كثيرًا ما يطلق لنفسه العنان في الملاهي وخلاعة أهل العصر. فلقد كان خوريًّا بابويًّا كسائر خوارنة عصره، إذ لم يكن التعليم الإنجيليّ قد غيّر قلبه، لكنّه لم يرتكب تلك الذنوب التي كانت مرارًا كثيرة تتعب الكنيسة، وكثيرًا ما كان يشعر بضرورة إخضاع انفعالاته لقانون الإنجيل الطاهر.

في سنة ١٥١٢ نادى الكردينال بالجهاد دفاعًا عن الكنيسة، فزحفت سويسرا، وكانت غلاريس في المقدّمة، فاضطرّ زفينغلي إلى الزحف معهم حيث كسروا الفرنسيّين في كلّ جهة، فقال الرهبان والأساقفة على المنابر بأنّ أهل سويسرا هم شعب اللّه الذي انتقم لعروس الربّ من أعدائها. وأثّر هذا الأمر في نفس زفينغلي وزاد من رغبته في الإصلاح، فأخذ يُحكم اليونانيّة ليعرف الحقّ في لغته الأصليّة، وكتب إلى "فاديان" في ٢٣ شباط (فبراير) يقول: "إنّي مجتهد في التوسّع في اللغة اليونانيّة بغية إحكام العلوم المقدّسة". وبعد قليل زاره كاهن كان رفيقه في المدرسة وقال: يا معلّم زفينغلي قد بلغني أنّك ضللت فصرت من أتباع لوثِرُس. فقال زفينغلي: ليس الأمر هكذا فإنّي تعلّمت اليونانيّة قبل أن أسمع اسم لوثِرُس. ولم يقف زفينغلي عند

الاعتراف بمبدأ الديانة الإنجيليّة وهو الكتاب المقدّس المعصوم، فعلِم أنّه هو القاضي المعصوم، ويجب أن تخضع العقول لمعانيه لا أن تحوّل معانيه لتوافق الأفكار. وراح يفسّر الكتاب المقدّس بمقابلة بعضه ببعض، وعند ذلك أخذت سويسرا تخطو إلى الإصلاح. ولمّا فسّر الأسفار المقدّسة والعبارات الغامضة بالواضحة رأى أنّ تعليم الإنسان من اللّه لا من الإنسان.

لم يستخفّ زفينغلي بتفسير العلماء المسيحيّين القدماء، فطالع تفاسير أوريجانُس وأمبروسيُس وإيرونيمُس وأغسطينُس وفم الذهب، لا لأنّهم ذوو سلطان، بل لأنّهم مساعدون، فكانوا بمنزلة أصدقاء يسألهم عمّا رأوه من المعاني وكان يمتحن تفسيراتهم بنصوص الكتاب الواضحة. وكان زفينغلي يعتبر إيراسمُس ويشتري كلّ ما يظهر من مؤلّفاته. وفي سنة ١٥١٤ أتى إيراسمُس إلى بازل فاستقبله الأسقف بالإكرام واكتنفه محبّو العلوم. فلمّا عرف بأمر زفينغلي كتب إليه: "إنّي أهنّئ أهل "هلفيتا" باجتهادك في تهذيبهم بعلومك وآدابك التي هي في الطبقة العليا". فرغب زفينغلي في مشاهدته. ولمّا وصل إلى بازل رأى هناك رجلاً في نحو سنّ الأربعين قصير القامة ضعيف البنية لكنّه محبوب جدًّا، وعلى غاية من اللطف وكان ذلك الرجل: إيراسمُس.

وأتى بازل، على أثر وصول زفينغلي، واعظ صالح اسمه "يوحنّا همشين" أي "نور البيت" وترجمته إلى اليونانيّة "إيكولمباذيُس"، وهو من مواليد "فرنكفونيا" قبل ميلاد زفينغلي بسنة واحدة، كان والداه غنيَّين وكان وحيدًا، وإذ رغبت أمّه التقيّة في أن تقفه للّه وللعلم، وجّهه أبوه إلى التجارة أوّلاً ثمّ علّمه الفقه، ثمّ دعاه اللّه إلى درس اللاهوت، وأخذ يعظ في بلد مولده، إلى أن سعى "كابيتو" الذي عرفه في "ملدبرغ" في أن يقيمه واعظًا في بازل، فنادى بالمسيح بفصاحة جذبت قلوب سامعيه، وصادقه إيراسمُس

وقال له: "ليس سوى واحد يجب أن نفتّش عنه في الكتب المقدّسة وهو يسوع المسيح". وأهدى إليه تذكارًا للمودّة: إنجيل يوحنّا.

أخذ زفينغلي مذذاك يجاهر بكلام اللّه، ففسّر الأقسام المنتخبة للصلاة الجماهيريّة من الإنجيل والرسائل، ولم يتعرّض لروما كما فعل لوثِرُس بل علّم الحقّ وقال إنّه هو الكفيل بإزالة الباطل. ويقول زفينغلي: "إنّ سنة ١٥١٦ كانت بداءة وقت الإصلاح في سويسرا". وذهب بعضهم إلى أنّ إصلاح زفينغلي قد سبق إصلاح لوثِرُس. ولعلّ زفينغلي نادى بالإنجيل قبل أن يعلن لوثِرُس قضاياه بسنة، ولكنّ لوثِرُس أخذ في الإصلاح قبل إعلان تلك القضايا بأربع سنين.

إستظهر زفينغلي سنة ١٥١٧ رسائل بولس الرسول، ثمّ استظهر سائر أسفار العهد الجديد وبعض أسفار العهد القديم. ويقول أتباع زفينغلي إنّه "كان يطّلع على الضلالات البابويّة ويكرهها ويرغب في إبطالها"، وإنّه قد "أثّر في زفينغلي ما عرفه من البدع البابويّة تأثيرًا كذلك الذي كان في لوثِرُس ممّا شاهده في روما، فعرف في أنسدلن أنّ اللّه وحده مصدر الخلاص وأنّه في كلّ مكان. فأخذ في تفنيد الضلالات الرومانيّة بفصاحة غريبة. وقال على المنبر: لا تتوّهموا أنّ اللّه في هذا الهيكل على نوع أسمى من كونه في مكان آخر، فاللّه معكم أنّى كنتم ويسمع طلباتكم حيث توجّهتم. فلا نفع لكم من السياحات الطويلة والتماثيل وشفاعة العذراء والقدّيسين ولا من كثرة الكلام في الصلاة. وأيّ قوّة في القلانس الخبيثة الرائحة والرؤوس المحلوقة والأديرة الطويلة الفاخرة والأحذية الموشّاة بالذهب. إنّ اللّه ينظر إلى القلوب والقلوب بعيدة عنه".

في شهر آب (أغسطس) ١٥١٨ سافر راهب فرنسيسيّ يُعرف بشمشون إلى أنجاد "سانت غوثرد" في الطريق الوعرة، وهو يحمل الغفران البابويّ ليبيعها إلى أتقياء

المسيحيّين من الجمهوريّة الهلفينيّة، ومعه أعوان يمدحون تلك التجارة... وتقدّموا بسكوت إلى حيث تهدر المجاري التي يتألّف منها الرين والرون والتيشينو وغيرها من الأنهر آملين في اغتنام سكّان سويسرا البسطاء. فوصل شمشون الفرنسيسيّ بمَن معه أوّلاً إلى ليسدن وقال لأهل العاصمة: إنّي قادر على أن أغفر جميع الخطايا، السماء وجهنّم خاضعتان لسلطاني فأبيع استحقاق المسيح كلّ مَن ابتغاه بالدراهم نقدًا. فلمّا سمع زفينغلي ذلك توقّد غيرة وقال: إنّ يسوع المسيح قال تعالوا إليّ يا ثقيلي الأحمال وأنا أريحكم، أفلا تكون المناداة بما ينافي ذلك حماقة فظيعة جدًّا وجسارة عظيمة؟

من جهة ثانية، كان كارلُس الكبير، منذ سبعة قرون، قد أضاف جماعة من الرهبان القانونيّين إلى كرسيّ زوريخ التي كان مدير مدرستها ميكونيُس. فأهمل هؤلاء الرهبان قانونهم الأصليّ وأخذوا يُنفقون دخلهم على لذّات العيش واعتادوا أن يختاروا خوريًّا يوكلون إليه الوعظ والعناية بالنفوس. وفرغ ذلك المقام بعد إتيان ميكونيُس فخطر في باله زفينغلي الذي انتخب في النهاية واعظًا في ١١ كانون الأوّل (ديسمبر). ومنذ ذلك الحين أصبحت زوريخ مصدر النور لكلّ سويسرا.

تعب زفينغلي فأمره الأطبّاء بالذهاب إلى حمّامات ففرس للراحة، فاستغلّ وجوده هناك للتبشير. وإذ بلغه أنّ الطاعون تفشّى في زوريخ وأهلك ٢,٥٠٠ نفسًا ووصل إلى وايلد هاوس وقضى على العشرات، أرسل أخاه الصغير أندراوس إلى بلدته لخدمة المصابين وللمناداة بالمسيح وتعزياته. ولم يَثْن هذا الوباء زفينغلي نفسه عن التقرّب من المرضى غير آبه بالمرض، فتملّك منه واشتدّ مرضه حتّى قرب من الموت، فعمّ الحزن جرمانيا وسويسرا، لكنّ اللّه شفاه تامًا، وقال زفينغلي بخشوع: لقد شفيتني يا إلهي فلذلك أعود إلى خدمتك وأقف شاهدًا بحقّك. وتابع مقاومة خصومه عاملاً على الإصلاح وخاصّة على إبطال بيع الغفران البابويّ، فتبعه أكثر من ألفَي نفس في

زوريخ، واعترفوا بالتعليم الإنجيليّ واستعدّوا للتبشير بـه، وكـانت الحـوادث تـدلّ علـى قرب اشتعال الحرب بين الإنجيل والبابويّة. وكان زفينغلي قد ربـح كثـيرين مـن الـولاة بتعليمه. وكان أرباب المجلـس يكرهـون أن يسـمعوا مواعـظ الكهنـة والرهبـان، وشـاع القول بأنّ أوّل ما يجب على الكاهن المسـيحيّ هـو أن يحـامي عـن كـلام اللّـه. فـارتبك الرهبان حين نُهوا عن أن ينادوا بغير كلمة اللّه، وأكثرهم لم يقرأها فقاوموا الإصـلاح، وأصبحت حياة زفينغلي في خطر.

في هذه الأثناء، كان الاضطهاد على وشك أن يستعر في مكان آخر من سويسـرا، هو مدينة "لوسرن"، حيث لمّـا وصلـت مؤلّفـات لوثـر قرأهـا بعـض الأهليـن فاغتـاظوا وقالوا بأنّ يد الشيطان قد كتبتها فطرحوها. وبالرغم من أنّ "ميكونيُس أزولـد" لـم يكـن يذكر اسم لوثـر إلاّ بيـن أصدقائـه المقرّبيـن ولا ينـادي إلاّ بـالإنجيل، فقـد سـمع النـاس يصرخون بضرورة: "فليحرق لوثِرُس وميكونيُس". وإذا كانت الموانـع قـد حـالت دون تقدّم الإصلاح في لوسرن، إلاّ أنّ الإصلاح قد عمّ في زوريخ حيث لم ينقطع زفينغلـي عن التبشير. وكان الفلاّحون الذين يأتون إلـى سوق المدينـة يـوم الجمعـة لبيـع الغـلال يسمعون كلام اللّه بابتهاج. فأخذ زفينغلي يفسّر لهم المزامير في كانون الأوّل (ديسمبر) ١٥٢٠ وكان يوضّح تعاليم المسيح للجميع، ويفسّر أعمال الرسل، وأبـان قـاعدة الحيـاة المسيحيّة من رسالتَي بولس إلى تيموثاوس، وأبان برسـالة العبرانيّين تجميـع البركـات الناشئة عن هبة المسيح الذي هو رئيس الأحبار العظيم للمسيحيّين. واسـتمرّ الإصـلاح يسير قدمًا في سويسرا ولا سيّما في زوريخ، ولكـنّ مـا حـدث فـي سـنة ١٥٢١ أحزن قلب زفينغلي . ذلك أنّ بعض الحوادث السياسيّة ذات الشأن قد حوّلت عقول الناس عن الإنجيـل، إذ يقول البروتستانت إنّ البابـا لاون العاشـر قـد عـرض مسـاعدته علـى المتخاصمين: الأمبراطور كارلُس الخامس*، والملك فرنسوا الأوّل* فـي وقـت واحـد،

ثمّ مال إلى كارلُس. فغاظ ذلك زفينغلي الذي نهى أهل سويسرا عن الحرب. لكنّ الكردينال نجح في إرسال نحو ألفَين وسبعمائة من أهل زوريخ إلى الحرب، إلاّ أنّ زفينغلي قد نجح في آخر الأمر دون نشر ألوية زوريخ للمحاماة عن الملوك الأجانب[1]... وراح زفينغلي يعمل على إعادة الكنيسة إلى حالها الأصليّة، فأخذ يبيّن الفرق بين وصايا الإنجيل ووصايا الكنيسة وهي التي سمّاها وصايا الناس. فقاوم "التنحيس[2]" لأنّ اللّه لم ينه عن أكل اللحوم كما يفعلون. واشتدّت الحرب بين المنطق الإنجيليّ ووكلاء الحبر الرومانيّ. وإذ حاول الرومانيّون إضعاف قوّة الإصلاح في زوريخ زادوها شدّة، وتقابل الخصوم، في مبارزات الوعظ التي استشرت بينهم تهجّمًا. وكان قطباها في زوريخ وكيل البابا من جهة، وزفينغلي من الجهة المقابلة، وقد خطب قائلاً: "أو ليست الديانة المسيحيّة هي أقوى حصون العدل، فما هي نتيجة الرسوم المعروفة بالطقوس سوى ستر هيئة المسيح وتلاميذه سترًا معيبًا؟ نعم إنّ لنا طريقًا أخرى غير الرسوم الباطلة للإتيان بالشعب البسيط إلى معرفة الحقّ، وهو الطريق الذي سلك فيها المسيح ورسله أي الإنجيل نفسه... ومَن يؤمن يفهم. وذلك عمل الروح لا مجرّد العقل". ويبدو أنّ هذا الجدال جاء مناسبًا للإصلاحيّين إذ تناظروا مع أنصار روما على مرأى من الشعب فانتصر الإنجيليّون. ويقول البروتستانت في مدوّناتهم إنّ أصوات الابتهاج قد وصلت أقاصي جرمانيا تفيد بأنّ زفينغلي هو فخر علم اللاهوت، وأنّ هذا النصر أبهج الناس لأنّهم كانوا عطشى لكلمة الحقّ التي أسكتها أنصار روما بخطف لوثِرُس إلى قلعة وارتبرغ في تلك الحقبة. وفي ٢ أيّار (مايو) ١٥٢٢ نشر

---

١ - يشار إلى أنّ تلك الحرب كانت بين كارل الخامس أو شارلكان ملك إسبانيا وأمبراطور الغرب من جهة، وبين فرنسوا الأوّل ملك فرنسا.

٢ - التنحيس: وهو الامتناع عن أكل اللحوم في أوقات معيّنة ويُعرف عند العامّة بالقطاعة.

أسقف قسطنسيا ما معناه "أنّ أناسًا لا خبرة لهم ينادون بتعاليم محظورة"، من دون أن يسمّي زفينغلي، وتصدّى أوّلاً لـ"يوحنّا ونر" واعظ كنيسة الكرسيّ في قسطنسيا الذي قال: "أحبّ إليّ أن أكون مسيحيًّا ويبغضني الكثيرون من أن أترك المسيح ويحبّني العالم كلّه". فكتب زفينغلي جوابًا على ذلك رسالته المسمّاة "أركيتيليس" أي البداءة والنهاية وقال فيها: "أرجو أن يكون هذا الجواب الأوّل هو الأخير أيضًا". وحكم بأنّ الذين عادوه قليلون محتالون. وقال: "ما فعلت سوى أنّي أبنت للناس ضعفهم وجهدت في أن أقودهم إلى اللّه الإله الحقّ الواحد، وإلى يسوع المسيح، بعبارات واضحة يقدر كلّ أهل سويسرا على فهمها، لا براهين عويصة يصعب عليهم إدراكها".

لمّا رأى خصوم الإصلاح أنّ اعتراضاتهم قد ذهبت سدى، قرّروا أن يضربوا الإصلاح بقوّة أكبر. وقرّر "فابر" و"لندنبرغ" أن يعتمدا مجلس أمّة "هلفيثيا" الأعلى لتحقيق أهدافهما. وبقي مجلس زوريخ لا يدري كيف يتصرّف. وفي ٧ حزيران (يونيو) وضع قانون ينهي كلّ إنسان عن القدح في الرهبان. فاشتدّت حرب المنابر، وراحت تشتدّ استشراءً مع الأيّام، فأقام المجلس عمدة وأُمر رعاة زوريخ وقرّاء الأديرة وواعظوها بالامتثال لها، ونهى الوالي الفريقَين عن الوعظ بشيء يشوّش الأمن. لكنّ زفينغلي أبى السكوت حتّى لم يبقَ في زوريخ مكان لم يناصره سوى دير راهبات "أتنباخ". وكان دأب بنات الأكابر في زوريخ أن يترهّبن في ذلك الدير، وكان من الجور أن تُحرم أولئك المسجونات فيه من سماع كلام اللّه، فأمر المجلس الكبير زفينغلي أن يزورهنّ ويعظهنّ، فعلا زفينغلي المنبر الذي كان للدومينيكان، دون غيرهم وكان موضوع وعظِه: وضوح كلام اللّه وصدقه. ونشر على أثر ذلك خطّته هناك فزاد الرهبان حنقًا. وفي يوم السبت الواقع فيه ١٢ تمّوز (يوليو) شوهد في

أسواق زوريخ راهب اسمه "فرنسيس لمبرت" عليه لباس الفرنسيسيّين، لا يعرف كلمة جرمانيّة، بل كان يعبّر عن أفكاره باللاتينيّة، فسأل عن زفينغلي وأعطاه رقيمًا من "برثلد" فيه أنّ هذا الأب الفرنسيسيّ هو الواعظ الرسوليّ لدير "افغنون"، حيث نادى بالحقّ مدّة خمس سنوات واعظًا باللاتينيّة على مسامع الكهنة في جنيف وفي لوزان أمام الأسقف، وفي فريبرغ ثمّ برن، وكانت مواضيع مواعظه "الكنيسة والكهنوت والقدّاس وذبائح القدّاس وتقاليد الأساقفة الرومانيّين و"خرافات الرهبان..."

في تلك الحقبة، كان الإصلاح يسود في أقسام أخرى من سويسرا، ففي سنة ١٥٢١ رجع من مدرسة باريس إلى وطنه "ابنزل" شاب اسمه "والتر كلازر"، وإذ وقف على مؤلّفات لوثر... نادى سنة ١٥٢٢ بالإنجيل؛ وفتح تاجر غنيّ اسمه "رسبرغ" بيته لكلّ أنصار الحقّ؛ وكان هنالك قائد حرب اسمه "برثلماوس بروغر" ممّن حاربوا في سبيل يوليوس الثاني ولاون العاشر، فهذا لمّا رجع من روما أخذ يضطهد خدم الإنجيل، ثمّ شرع يقرأ الكتاب المقدّس ويسمع مواعظ الإنجيليّين فاهتدى، ولمّا رأى الكنيسة تضيق بالمصلّين قال: "فليعظ الواعظ في البريّة والساحات والمنتزهات"... فأضحت رياض ابنزل وتلالها وجبالها منابر للواعظين ومعابد للمؤمنين. وانتشر الإصلاح في الولايات العشر. وكان كاهن رعيّة مانيفلدت قد ذهب إلى روما حنقًا من انتصار الإنجيليّين فرجع منها يقول: "إنّ روما صيّرتني إنجيليًّا"... وصار من المصلحين.

في هذه الأثناء طرح زفينغلي إبطال العزوبيّة الاضطراريّة المعروفة بالبتوليّة، ولم يكن له غرض ذاتيّ في ذلك لأنّه كان متزوّجًا، ولكنّه اهتمّ بإخوته. فإنّ العهد الجديد يمدح الزواج وينهي عن الفجور. فطلب الإنجيليّون المجتمعون في إنسدلن من

الأسقف أن ينقض شريعة المنع من الزواج الطاهر. وعلّق زفينغلي وأصحابه قضاياهم على أبواب القصر الأسقفيّ ومجمع الأمّة، وانتظموا جماعات في إنسدلن وعزموا على الجهاد وتوقّعوا القتال. وكانت أولى الجولات القتاليّة أن خلع مجلس لوسرن "ميكونيوس" من رتبته وحكم بنفيه لأنّه كان من تلاميذ لوثر، فلم يجد مكانًا يستظلّ فيه هو زوجته وابنه وكانوا كلّهم مرضى وضعفاء وحوله سويسرا في حالة هياج طائفيّ. وإذ كان زفينغلي مضطربًا ممّا أصاب ميكونيوس، رأى في موضوع عزله بداية الاضطرابات، إذ راح الكهنة والرهبان يشدّدون الاضطهاد، والمجالس والمجامع تستعدّ للقتال، وأهل سويسرا يُرسلون أبناءهم للجهاد في سبيل الإصلاح. في تلك الأجواء المضطربة، أذاع زفينغلي سبعًا وستّين قضيّة من أهمّها: كلّ مَن يزعم أنّ الإنجيل ليس شيئًا بدون تثبيت الكنيسة يجدّف على اللّه؛ إنّ يسوع المسيح هو الطريق الوحيد للخلاص لمَن كانوا وللكائنين ولمَن سيكونون؛ إنّ المسيحيّين أخوة لا أب لهم على الأرض وسيسقط التحزّب والطوائف والرهبانيّات إلى الحضيض؛ لا يجوز أن نقهر الذين لا يقرّون بخطئهم ما لم يقلقوا راحة المجتمع بسوء سيرتهم.

في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٢٢ غصّت دار الحكومة البلديّة بأكثر من ٩٠٠ من أعضاء المجلس الكبير و٣٥٠ كاهنًا. فتكلّم زفينغلي مبطلاً سلطان الرئاسة الكنسيّة وسلطان مجامعها، مثبتًا حقوق كلّ كنيسة في تدبير أمورها، وفي أن تكون لها تلك الحريّة التي كانت تحياها الكنائس في العصور السابقة للمجامع المسكونيّة والمجامع الإقليميّة، وأنّ البابوات وكرادلتهم ومجامعهم ليسوا كنيسة عامّة بل هم كنيسة خاصّة. وهكذا فصل زفينغلي زوريخ عن سلطة أسقف "قسطنسيا" وعن الرئاسة اللاتينيّة، وبنى على ذلك أنّ الجماعة المسيحيّة هي الكنيسة. وكان سائر البلاد مستعدّ لأن

يذهب على هذه السنن. فقام كثيرون من الكهنة يدافعون عن الصور المعروفة بالإيقونات، لكنّهم لم يأتوا لجوازها بدليل من الكتب المقدّسة. وكانت نتيجة تلك المناظرة ازدياد عدد الكهنة الذين أتوا من مختلف المناطق ليؤيّدوا الإصلاح، واستقلّت سويسرا عن روما.

إثر ذلك، إلتأم المجمع في لوسرن، واجتهد الإكليروس في نيل تأييد مجلس الأمّة الكبير. فسلّمت فيربرغ والمناطق الوعريّة، وتردّدت برن وبازل وسوليور وغلاريس وإبنزيل، وكانت شفافهوسن مائلة إلى الإنجيل، لكنّ زوريخ وحدها جسرت على المحاماة عنه، ولم تتنازل عن شيء من المعلنات بل دفنت الذخائر. وأمر المجلس بنزع الصور والتماثيل من كلّ كنائس المنطقة وبيع حليّها وإنفاقه على البائسين. وأحرق بعض الكنائس الأيقونات والصور. فكان إصلاح سويسرا أتمّ من إصلاح جرمانيا. ذلك أنّ لوثر لم يرد كسر الصور والتماثيل في كنيسة وتمبرغ لاعتقاده انّها إذا لم تُعبد لا تنافي الكتاب، بينما وافق زفينغلي على طرح أصنام زوريخ في حضرته لأنّه رغب في أن يزيل من الكنيسة كلّ ما لا يمكن إثباته بآيات الوحي، وأن يردّها إلى ما كانت عليه في العصر الرسوليّ.

إيرَاسمُس

في بازل

تقع مدينة بازل BASEL شمالي سويسرا على الرين، كان قد عُقد فيها مجمع مسكونيّ انتقل إلى فلورنسا سنة ١٤٣١، وفيها سوف تُعقد معاهدة شهيرة بين فرنسا وبروسيا وبين فرنسا وإسبانيا سنة ١٧٩٥. وهي مدينة ذات شأن لُقّبت بأثينا

سويسرا[1]. وكان في بازل مسكن المصلح الهولنديّ إيراسمُس ERASMUS (حوالى ١٤٦٩ ـ ١٥٣٦) المولود في روتردام هولندا والمتوفّي في بال سويسرا. وهو من مشاهير رجال الفكر في عصر النهضة، لُقِّب بـ"رئيس جمهوريّة العلماء في القرن السادس عشر". وقد طرق إيراسمُس أكثر المواضيع الإصلاحيّة بتروٍّ وعمق. وجال أوروبّا في طلب الكتب القديمة، وله طبعة العهد الجديد الأولى باليونانيّة مرفقة بترجمة لاتينيّة.

لجأ إيراسمُس إلى بازل إذ كانت آمنة في مركز النهضة العلميّة، فاستطاع بواسطة مطبعة فروبانيوس أن يعمل في فرنسا وجرمانيا وسويسرا وإيطاليا وإنكلترا، لكنّه لم يرد أن يقصده الناس إلى بازل. وكان يرى وجوب أن يجتمع الأساقفة كلّ سنة لتدبير مصالح الكنيسة وأن ينتشر نور الحقّ من جرمانيا، وكان يخاف لوثِرُس بسبب اختلاف إصلاحَيهما. فلوثِرُس كان يبتغي إصلاحًا تامًّا وإيراسمُس كان يريد إصلاحًا متوسّطًا، فاجتهد في مصالحة الرئاسة والشعب، ما أغاظ لوثِرُس الذي رأى في سلوك إيراسمُس تقلّبًا ومناقضة لبعض مذاهبه فقال له: "إنّك ترغب في أن تمشي على البيض دون أن تكسره وعلى الزجاج دون أن تسحقه". وإذا كان إيراسمُس مجتهدًا في إبطال ما سمّاه الإصلاحيّون "البدع البابويّة" فإنّه لم يكن متمتّعًا بشجاعة لوثِرُس. وقد ذاع صيت إيراسمُس في باريس وإنكلترا. وقيل إنّ لوثِرُس لم يفتح الباب في باريس إلاّ بعد أن نزع إيراسمُس القفل. وكان هنري الثامن ملك إنكلترا والأشراف، قد ألحّوا على إيراسمُس بأن يقاوم الإصلاح، فكان مضطربًا على الدوام لخوفه من لوثِرُس وعجزه

---

١ ـ إمتازت كلّ مدينة من مدن الاتّحاد السويسريّ عن غيرها ببعض الصفات، فامتازت برن بالأسر العظيمة، وزوريخ بخدّام الكلمة وابرزهم زفينغلي وليون ويهوذا وميكونيوس وشميدت، ولوسرن بالأسلحة والمعاهدات الحربيّة، وبازل بالعلوم والمطابع.

عن الردّ عليه. فإنّ دراسة لوثِرُس كتب القدّيس أغوسطينُس قد أقنعته بأنّ قوى الإنسان الطبيعيّة شديدة الميل إلى الشرّ، إلى حدّ أنّه يعجز من تلقاء نفسه، إلى ما فوق الاستقامة الخارجيّة الناقصة في نظر اللّه. وعرف أنّ اللّه هو الذي يهب البرّ الحقيقيّ بإجرائه عمل الإيمان في الإنسان مجّانًا بواسطة روحه القدّوس. وهذا المبدأ صار مصدر مذهبه والتعليم الغالب، والمحور الذي دار عليه الإصلاح بأسره. ولمّا قال لوثِرُس "إنّ كلّ إصلاح في الإنسان هو من اللّه"، إنّما هو رجع إلى مذهب القائلين "إنّ صلاح الإنسان يصدر من الإنسان نفسه". وعندما أعلن إيراسمُس رسالته المشهورة بعنوان: "خطب في حريّة الإرادة" في خريف ١٥٢٤، رأى لوثِرُس ما وقع فيه خصمه من تناقض فقال له: "إن كانت الآيات التي احتَجَجْتَ بها تثبت أنّه يسهل علينا عمل الصلاح فلماذا نتجادل؟ وما حاجتنا إلى المسيح وإلى الروح القدس؟ وينتج عن ذلك أنّ سفك المسيح لدمه من الحماقة، لأنّه يكون قد سعى بذلك إلى تحصيل قوّة لنا نحن حاصلون عليها في أيّ حال". ويرى اللوثريّون أنّ معنى الآيات التي احتجّ بها إيراسمُس غير المعنى الذي أراده، فإنّ أوامر الكتاب مبنيّة على مساعدة النعمة لا على مجرّد قدرة المأمور، فإنّ اللّه يوصي ويهب القدرة على القيام بالوصايا، فقول المسيح للعازار وهو في قبره: أخرج، لا يستلزم أن يكون للعازر قدرة على إحياء نفسه، إنّما يستلزم أن يأمره المسيح بالخروج من القبر، ليمنحه القدرة على ذلك.

بالرغم من رويّة إيراسمُس في طرح تعاليمه، فقد كان أهل بازل ممّن حملوا السلاح للقتال في الحرب الأهليّة الطائفيّة بين الكاثوليك والبروتستانت في القرن السادس عشر.

غليوم فَاريــل

في إيغِل وَبِرن

في هذه الأثناء، وبعد أن كانت سويسرا مـن أقوى حصـون البابويّـة، قد أظهرت ميلاً كبيرًا للإصلاح البروتستانتيّ في بعـض المنـاطق، كـانت منـاطق أخـرى لا تـزال متحمّسـة لسلطة رومـا. وقـد كـان مـن المصلحيـن، آنـذاك، رجـال فرنسيّون أبرزهـم "فاريل[1]"، الذي أخذ يعلّم الأهل والأولاد، فأبطل أوّلاً المطهر ثمّ شـفاعة القدّيسين. وقد أرسل مجلس برن فـاريل إلـى إيغـل فـي ٩ آذار (مـارس) ١٥٢٧ ليفسّـر لأهلهـا ومـا جاورها كلمة اللّه. فقاومه أرباب الرتب والكهنة، وكان من بين هؤلاء الأخـيرين واحـد راح يعظ بأنّ "الشيطان نفسه هو الذي يتكلّم بفم فاريل". وعندما بلغ ذلك فاريل أراد أن يعرف سبب هذا الاتّهام فواجه الكاهن الذي أخذ يصرخ ويتظلّم علـى فـاريل، وانتهـى الأمر بأن سجن الوالي الإثنين، كلاًّ في برج منفرد. وفي صباح اليوم التالي أُخذ فاريل من سجنه إلى القلعة ليمثل أمـام أربـاب المجلـس، وكـان الراهـب قـد سبقه إلـى هنـاك وجرت مناظرة بينهما أمام الحضـور. وعلـى أثرهـا أمـر مجمـع بـرن باجتمـاع رعايـا الأبرشيّات الأربع، فنادوا بــ"كسـر الإصـلاح"، واقتـدت بهـم إيغـل. أمّـا فلاّحـو الجبـال الواقعـة فـوق "إيلـون" فلـم يجسـروا علـى الإسـاءة إلـى "فــاريل" بــل جيّشــوا نســاءهم اللواتـي وثبـن عليـه بالمدقّــات. كمــا نــزل الرعــاة مــن "أرمنــد" مهــاجمين الكنيســة الإنجيليّة، وطالـب الأرمنديّون بالبحث عن "المنافقين الإنجيليّين وقتلهم وقطـع رؤوسـهم وحرقهم ثمّ طرح رمادهم في البحر". لكنّ هذه النـوازل لـم تضعـف فـاريل بـل كـانت تزيده نشاطًا.

---

١ - فاريل GUILLAUME FAREL (١٤٨٩ - ١٥٦٥): وُلد في فارو في الألب العليا، كان من أصدقاء كالفن.

كانت برن أقلّ مناطق سويسرا ميلاً إلى الإصلاح لأنّها كانت غارقة في المصالح السياسيّة، فلم تكن المسائل الدينيّة موضوع اهتمام فعاليّاتها. وكان الشعب يتنعّم بخيرات قطعان الماشية. ولمّا لم تكن حكومة برن قد خبرت القضايا الدينيّة، رأت أن تمنع حركة الإصلاح سنة ١٥٢٣. فكانت برن ثابتة في الأمور السياسيّة لكنّها كانت مضطربة في الشؤون الدينيّة، تميل تارة إلى روما وطورًا إلى الإصلاح. واختارت من ثمّ ألاّ تكون بابويّة ولا إصلاحيّة. وظهر هذا التغيير سريعًا في برن. على أنّه في سنة ١٥٢٧، انتُخب كثيرون من محبّي الإصلاح أعضاء في مجلس برن الكبير. فبادر هؤلاء إلى عزل أشدّ أعضاء أحزاب الرئاسة الرومانيّة تعصّبًا عن عضويّة الحكومة. وكانت محكمة برن قد حكمت سنة ١٥٢٣ بإباحة التبشير بالإنجيل، وفي سنة ١٥٢٦ بإثبات الأسرار وشفاعة القدّيسين وأمّ اللّه وزينة الكنائس...، فجمعت بذلك بين المتناقضات تحت شعار حريّة الانتماء الدينيّ. وتقول المصادر البروتستانتيّة إنّ الشعب رفض كلّ شريعة تنافي الحريّة. فحكم المجلسان، الكبير والصغير، بمساعدة الأمّة، في إباحة المناداة بكلمة اللّه[1]، فـ"انتصر الشعب والإنجيل على المشيخة والكهنة". إلاّ أنّ نتيجة ذلك كانت أن عمّت الاضطرابات المقاطعة كلّها، وأضحت كلّ أبرشيّة جبهة حرب. فأخذ الفلاّحون يجادلون الكهنة والرهبان ببيّنات الكتب المقدّسة، وقال كثيرون: إذا كانت الحكومة أباحت الوعظ فلماذا لم تبح للشعب التبشير؟ فغاظ ذلك المجلسَين اللذَين لم تكترث بهما الرعايا، بل قالت بإبطال القدّاس وبتثبيت الكتاب المقدّس. ثمّ قام الحرفيّون، باستثناء الجزّارين، فأبطلوا، في كنائس مناطقهم والأديرة، القداديس والمواسم والنذور وزيارات الأماكن المقدّسة. بينما تمسّك الجزّارون بالتعصّب للبابا.

---

١ ـ يقصد الإصلاحيّون بـ"كلمة اللّه"، التبشير بالإنجيل والمقولة الإصلاحيّة.

وهكذا أضحى أكثر أهالي مقاطعة برن إنجيليّين. ولمّا أراد ديوان برن الإنفصال عن البابا استند إلى الشعب. فجال في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٥٢٨ رُسُل رسميّون من بيت إلى بيت يدعون الأهالي إلى الاجتماع في ٢ شباط (فبراير) حيث عُقد اجتماع في كنيسة الكرسيّ حضره الأكابر والأعيان وسائر الأهلين والعبيد، "كأنّهم أهل بيت واحد... ورفعوا أيديهم إلى السماء وحلفوا على أن يحموا الديوانَين في كلّ ما يفعلانه لنفع الحكومة والكنيسة". وفي ٧ شباط (فبراير) ١٥٢٨ أمر الديوان بالإصلاح وبطرح نير الأساقفة الأربعة عن أعناق أهل برن، على حدّ تعبير البروتستانت. وعلى أثر الإصلاح في عدّة ولايات في برن طُرحت الأصنام في قسم كبير من سويسرا. كما كان الناس يُسقطون الأيقونات ويذوّبون الكؤوس الذهبيّة ويوزّعون أثمانها على الفقراء ويبطلون القداديس، في مختلف المناطق التي وصلها الإصلاح، وهذا ما حدث في "سانت غال" و"غلاريس" و"مات" و"إِلم" و"بستسوندن" و"شافهوسن" و"زوريخ". ولمّا رأى فاريل امتداد الحركة الإنجيليّة، حوّل نظره إلى غير مكان، بمساندة برن. فراح يعظ في القرى والبلدات المحيطة، حيث سرعان ما هُدمت المذابح وكُسّرت الأيقونات وأُبطلت البابويّة. ودان بالإنجيليّة قسم كبير من أبرشيّة بازل في خلال بضعة أسابيع، تعرّض في خلالها فاريل للمحاكمة في "نيوفشاتل"[1] بسبب بعض المناشير المناهضة للكهنة والرهبان، التي وزّعها أتباع له. على أنّ فاريل قد استغلّ المحاكمة ليهاجم

---

١ ـ ذكرت المراجع البروتستانتيّة أنّ اللاجئين الفرنسيّين إلى بازل نظّموا كنيسة فرنسيّة. ولمّا وصل فاريل إلى سويسرا كان معروفًا أنّه من أكبر أنصار الإنجيل. وكان فاريل يستاء من كبرياء إيراسمُس فغضب عليه هذا الأخير وعلى سائر الفرنسيّين الذين لجأوا إلى بازل لأنّهم أغاظوه بحريّتهم، فإنّهم ما كانوا يبالون بعالِم سامي المدارك ما لم يعترف بالحقّ جهارًا. وأغلق إيراسمُس بابه دون فاريل فلم يأسف هذا الأخير لاعتقاده أن ليس لإيراسمُس التقوى القلبيّة التي هي أساس علم اللاهوت الحق، وكان إيراسمُس قد كتب إلى البابا يبيّن له كيف يطفئ اللهب اللوثريّ فقال فاريل بأنّ إيراسمُس يخنق الإنجيل. فغضب هذا الأخير غضبًا شديدًا وعزم على معاقبة فاريل.

"المضلّين الذين يبيعون الفردوس السماويّ بـالدراهم، ويبطلـون بذلـك استحقاقات ربّنـا يسوع المسيح"، وراحت الدعوى تُحال من محكمة إلى محكمة حتّـى وصـل ملفّهـا إلـى الأمبراطور كي ينظر فيها مجمع عام.

توالى جهاد فاريل جنوبيّ نيوفشاتل حيث أدّت بعض الأعمال العدائيّة من قِبَل البابويّين إلى إثارة الشعب وهدم المذابـح وطـرح الأيقونـات، ومهاجمـة أديـار الرهبـان ومنازل الكهنة، ففرّ هؤلاء إلى الجبال. وبنهاية كلّ ذلك أصبحت "والنجن" إنجيليّة مثـل نيوفشاتل. واستمرّ فاريل على هذا النحو حتّى وفاته سنة ١٥٦٥. ولـم يمنـع اضطهـاد الإنجيليّين في فرنسا غليوم فاريل عن الإستمرار في الدعوة إلى العودة للإنجيل، فكـان من أهمّ أتباعه أخوته "دانيال" و"والتر" و"كلودي"، ثمّ أخذ فاريل يبشّر أصدقاءه وأقاربـه في "غاب"[1] وضواحيها. وصادق بعض الكهنة ونادى بالإنجيل في عـدّة كنـائس، فـأراد أخصامه إسكاته واجتمعت عليه السلطتان الزمنيّـة والكنسيّة ودعتـاه إلـى المثـول أمـام الحكّام وطُرد من المدينة، فخرج واعظًا في بيوت البلاد التي يدخلها والحقول التي يمرّ بها، وكان يلجأ إلى الآجام وشواطئ الأنهار. فقبل الحقّ كثيرون ممّن سمعوه. فكـان طردُ فاريل من باريس وميوكس سببًا فـي نشـر الإصـلاح فـي أقـاليم سـافواه والـرون وجبال ألبا. وفي بعض التفاصيل جاء في مراجع إنجيليّـة أنّـه فـي أيّـار (مـايو) ١٥٤٢ سافر فاريل وبعض أصدقائه لزيارة شافهوسن وزوريخ وقسطنسيا فرحّب بهم زفينغلي وميكونيوس. ثمّ عاد فاريل إلى بازل ليجد أنّ إيراسمُس وسـائر الأعـداء يسـعون فـي مقاومته فأتاه أمر بأن يغادر المدينة، ففعل. وفي "منفاه" تجدّدت قـوّة فـاريل وأصدقائـه وشُحذت أسلحتهم في سويسرا وجرمانيا فرجعوا إلى الميـدان وازدادوا قـوّة فـي فرنسـا

---

١ - غاب GAP: من منطقة الألب العليا، على مسافة ٧٦٨ كلم جنوب شرق باريس، فيها مركز أسقفيّ.

واستعدّوا لتجديد العمل فيها. وبقيت "ليون" زمانًا طويلاً مركز العمل الإنجيليّ داخل المملكة كما كانت بازل خارجها. وانتشر المجاهدون الروحيّون في أماكن كثيرة لم يكن أهلها قد عرفوا التعاليم الإنجيليّة فنادوا بالحقّ في جوار نهر سارون في مدينة ماكون، ثمّ انتقلوا إلى ألبا.

حَركَة الإصلاَح في فَرنسَا

يروي المؤرّخون البروتستانت أنّه بينما كان "الشيخ لافيفر" مشتغلاً بعمل شاقّ، وهو جمع أخبار القدّيسين والشهداء وترتيبها، شعر بكراهة نشأت عن الخلافات التي في تلك الروايات الباطلة، فطرح تلك القصص ومال كلّ الميل إلى الكتب المقدّسة، وإذذاك... بدأ تاريخ جديد في فرنسا وشرع في الإصلاح. ويقولون إنّه لمّا هجر لافيفر كتاب أخبار القدّيسين أخذ يدرس رسائل بولس الرسول، فاهتدى سريعًا وهدى تلاميذه بتفاسيره. وشاعت تلك التفاسير أوّلاً في باريس، ثمّ نُشرت بواسطة المطبعة، في الأقطار، فانتبه الطلبة الشبّان من غفلتهم وأخذ النور ينتشر في فرنسا قبل سنة ١٥١٢. وبهذا دخل مدرسة باريس تعليم جديد... وصار علماؤها حزبَين، فكانت تعاليم لافيفر وسيرة تلاميذه تنافي تعاليم أكثر اللاهوتيّين فيها وسيرة تلاميذهم. ويقول فاريل*، الذي يبدو أنّه كان من تلامذة لافيفر: إنّ لافيفر أنقذني من المذهب الباطل وهو القول باستحقاق الإنسان، وعلّمني أنّ كلّ السعادة من النعمة. كان فاريل يُعجب لقول لافيفر بأنّه يجب ألاّ نطلب شفاعة إلاّ من المسيح... وهكذا يظهر أنّ باريس، كانت السبّاقة منذ سنة ١٥١٢ في مجال الإصلاح الإنجيلي، قبل لوثر وزفينغلي. ويستنتج الإنجيليّون أنّ الإصلاح في فرنسا "لم يكن بضاعة أجنبيّة بل نشأ في أرض فرنسيّة وتأصّل في

باريس وانتشرت فروعه الأولى في المدرسة نفسها التي هي سلطة الكنيسة الرومانيّة الثانية". وأنّ "اللّه قد زرع بذور الإصلاح في قلب لافيفر وفاريل قبل أن يظهر في مكان آخر على وجه الأرض"[1]، فالإصلاح السويسريّ كان مستقلاً عن الإصلاح الجرمانيّ والإصلاح الفرنسيّ كان مستقلاً عن كلّ من هذَين. فقد نشأ الإصلاح في بلدان مختلفة في وقت واحد تقريبًا. وهذا يدلّ على أنّ حركة القرن السادس عشر الدينيّة كانت عمل اللّه. فشرف ابتداء الإصلاح لفرنسا لا لغيرها. ومع ذلك يُعتبر لوثِرُس المصلح العظيم الذي ظهر في ذلك القرن بل المصلح الأوّل بالنظر إلى اجتهاده وعمله. وعلى ما ذُكر دخلت الآراء الإنجيليّة بلاط فرنسيس الأوّل، ومال كثيرون من رجال البلاط إلى هذه الآراء، وانقاد فرنسيس نفسه إلى أخته مرغريتّا مودعًا إلى ولايته العلماء المائلين إلى التعليم الإنجيليّ، وشهد مناظرات العلماء ومذكّراتهم، ومهّد طريق اللّه بإقامته أماكن لعلماء اللغة العبرانيّة واللغة اليونانيّة. ويقول الإنجيليّون إنّه "في الوقت الذي حقّق الإنجيل انتصارات عظيمة في فرنسا، كان اضطهاد شديد يُعدّ في البلاط وفي مدرسة السوربون. وقست فرنسا باضطهاداتها لأهل الإصلاح قساوة لم يعهد لها نظير. فكان القرن السادس عشر عصر قتال، والقرن السابع عشر عصر انتصار دمويّ، وربّما لم يُعذّب الإنجيليّين قومٌ خلوا من الرحمة مثل الفرنسيّين في ذلك العصر، فإنّ أعداء إنجيليّي جرمانيا كانوا في الأقاليم البابويّة، وأعداء إنجيليّي سويسرا في الكور البابويّة، لكنّ إنجيليّي فرنسا كان أعداؤهم معهم. وبرز في بلاط فرنسيس رجل في الثلاثين من العمر أصله من أرتوان واسمه لويس دي بركوين، ندّد بالظلم وقرأ الكتاب المقدّس فاتّحد بمرغريتّا ولافيفر وبريكنت

---

١ ـ جاء في بعض المراجع البروتستانتيّة أنّ لافيفر قد نشر في فرنسا بعض أسفار العهد الجديد بلغة البلاد، وذلك بدءًا من ١٢ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥٢٤. وعليه قُدّم كلام اللّه لفرنسا بدلاً من تقاليد الكنيسة.

وغيرهم، ورأى أن يأتي شيئًا فوق تفنيد السوربون، فشرع يترجم بعض الكتب المسيحيّة إلى الفرنسيّة فواجه تعصّب الرهبان والخوارنة المنحازين إلى السوربون. وكان من المتعصّبين ستّة عشر نائبًا هاجوا على باريس. وكانت مدينة ميوكس التي اشتهرت بالفقيه البليغ المحامي عن كنيسة فرنسا ودفع تمويهات روما الظالمة على وشك أن تكون أولى مدن فرنسا التي ترفع فيها الديانة الإنجيليّة لواءها. فبريكنت شجّع هذا اللواء في أبرشيّته وشدّد عزم الجميع وأرشدهم. وأراد لافيفر أن يمكّن كلّ مسيحيّ من قراءة الكتب المقدّسة فنشر في ٣٠ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٥٢٢ ترجمة فرنسيّة للأناجيل الأربعة، وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة نشر ترجمة بقيّة أسفار العهد الجديد. وفي ١٥٢٥ نشر ترجمة المزامير فابتدأ في فرنسا طبع الكتب المقدّسة وتوزيعها في اللغة الوطنيّة التي شاعت بعد ثلاثة قرون في كلّ الأرض. وكان ذلك في فرنسا في نحو الزمن الذي كان مثله في جرمانيا... وكثر الوعّاظ في ميوكس وقصدهم أفواج من القرى ليسمعوا الوعظ وقامت كنيسة إنجيليّة في فرنسا".

... ولا ينسى الإنجيليّون ذكر فرنسيس لمبرت الأفينيونيّ المولود سنة ١٤٨٧ قبل سنتَين لولادة فاريل، وإذ كان أبوه قد توفّي، تولّت أمّه تربيته فوكلته إلى عناية الفرنسيسيّين. وكان يظنّ، بمشاهدته أولئك الرهبان في الثياب الخشنة حفاة يتسوّلون، أنّه وصل إلى السماء، فدخل الرهبانيّة وهو ابن خمس عشرة سنة. وبدأ يشعر بقوّة تدفعه إلى مطالعة الكتب المقدّسة وتحمله على الإيمان بكلام اللّه والتبشير بها. واختير سنة ١٥١٧ واعظًا رسوليًّا للدير، فأخذ يجول ماشيًا داعيًا الناس إلى التوبة فاجتذبهم بإيمانه. وإذ كان لمبرت... مكروهًا من الرهبان، شعر برغبة في العودة إلى العالم، وكانت قد وصلت إليه كتب لوثِرُس فانتُزعت منه وأُحرقت، واعتقد أنّ الزواج مقدّس والعيشة فيه مقدّسة، وأنّ الزواج هو من ترتيب اللّه وواسطة للنعمة والطهارة وأنّ

عزوبة الإكليروس هي من أقوى وسائط الفساد وتشويش الأفكار وسوق الجماعات إلى سيّئات لا تُحصى. فهجر الدير والبابويّة وفرنسا وجال في جنيف ولوسرن وبرن وزوريخ ووصل أوّل سنة ١٥٢٢ إلى وتمبرغ وصافح لوثِرُس هناك. وفي سنة ١٥٢٤ كان لمبرت قد تزوّج في ٣ تمّوز (يوليو) وهو ابن ثلاثين سنة، فكان زواجه قبل زواج لوثِرُس بسنتَين، وهو أوّل مَن تزوّج من الرهبان أو الكهنة الفرنسيّين. وبعد أن قبله لوثِرُس، أخذ يخطب على نبوءة هوشع في المدرسة الكبيرة "أمام جماعة حارت ألبابها بسماعها الأصول الإنجيليّة من فمّ فرنسيّ"، ثمّ أخذ، لنفع شعبه، يترجم بعض الرسائل الإنجيليّة ممّا ألّفه لوثِرُس وغيره إلى الفرنسيّة والإيطاليّة. وإذ كان عدد من المبشّرين الفرنسيّين الإنجيليّين قد لجأ إلى سويسرا وألمانيا هربًا من الاضطهادات في فرنسا، أخذ بعض هؤلاء يعود إلى فرنسا حاملين الكتب الإنجيليّة إلى وطنهم مستهينين بكلّ اضطهاد حتّى بالقتل. وكان من جملة هؤلاء شاب إسمه "كلودي[1]" ذهب من وتمبرغ في أيّار (مايو) سنة ١٥٢٢ بكثير من الرسائل والرُّقم الفرنسيّة التي زوّده بها لمبرت إلى كثيرين من مشاهير فرنسا وسافوا. ويتحدّث البروتستانت عن الفرنسيّ "لا كلرك" الذي كان قد ذهب في أواخر سنة ١٥٢٢ إلى "متز" في الـ"لورين" حيث كان يعلّم الناس فهدى الكثيرين. وسبق لا كلرك في إرشاد أهل متز أحد طلاّب العلم وهو "أغريفا النتسهيمي" وكان يتكلّم عدّة لغات، اشترى مؤلّفات لوثِرُس ووزّعها على أصدقائه ومال إليه كثيرون من الشرفاء والإكليروس الذين شاهدوا جماعة لوثِرُس في وُرمس حتّى أنّه علّق هناك في آذار ١٥٢٢ ورقة إنجيليّة على إحدى زوايا القصر الأسقفيّ تمدح عمل لوثِرُس وكانت مكتوبة بأحرف كبيرة فكان لها تأثير في الناس؛

---

١ - الراجح أنّ كلودي هذا كان أخًا شقيقًا للإصلاحيّ الشهير غليوم فاريل الذي جاء ذكره سابقًا.

وكانت متز على وشك أن تصبح إنجيليّة، ولكنّ غيرة لا كلرك المجرّدة من الفطنة أوقفت التقدّم بغتة وهيّجت عاصفة أنذرت الكنيسة الجديدة بالخراب التام. فإنّ عامّة متز كانوا لا يزالون على إيمانهم القديم، فامتلأ لا كلرك حنقًا من مشاهدته المدينة مولعة بعبادة الأصنام، فسار إلى معبد على بعد فرسخ من المدينة كان فيه تمثال للعذراء مريم ولأشهر قدّيسيّ البلاد، وكان غد ذلك اليوم عيدًا فقال مساء في نفسه: ألم يقل اللّه: "لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم بل تبيدهم وتكسر أصنامهم[1]" فأنزل الصور والتماثيل وكسّرها ونشر كسرها أمام المذبح ثمّ رجع إلى متز عند الفجر فلم يره إلاّ قليلون. وإذ كان لا كلرك مشهورًا يعرفه الجميع وكثيرًا ما سمعوه يدعو التماثيل أصنامًا، وأنّه، فوق ذلك، شوهد راجعًا عند الفجر من جهة المعبد، قُبض عليه بعد الاشتباه به، فاعترف بأنّه هو الذي حطّم التماثيل وأمر الشعب بأن يعبد اللّه وحده، لكنّ هذا الكلام زاد حنق الشعب فأرادوا قتله حالاً، وقادوه إلى القضاة الذين حكموا بإحراقه حيًّا فسيق إلى المحرقة، حيث أذيق ألوانًا قاسية من العذاب قبل إحراقه بنار بطيئة الوقود بمقتضى ما حُكم عليه. فكان لا كلرك أوّل شهداء الإنجيل في فرنسا.

وسط الاضطهاد، كان من وسائل توزيع الكتب الإنجيليّة في فرنسا أن عيّن أعضاء الجمعيّة الإنجيليّة في بازل أناسًا من أتقياء العامّة يجولون في المدن والقرى الفرنسيّة ويبيعون تلك الكتب بأثمان رخيصة ويعطونها للفقراء مجّانًا. ومن الكتب الأولى التي أرسلتها الجمعيّة إلى فرنسا تفسير لوثِرُس للصلاة الربّانيّة.

---

١ ـ سفر الخروج ٣٠: ٤، ٢٣: ٢٤.

لم تلبث حركة الإصلاح في فرنسا أن اتّخذت منحًى بالغ العنف من قِبَل السلطات التقليديّة. ومَن يطالع مقولات البروتستانت حول ما جرى للإصلاحيّين في فرنسا إبّان القرن السادس عشر، يأنف عن نقل تلك المطالعات بالنظر لِما جاء فيها من اتّهامات بالغة الخطورة[1]. على أنّ ما يمكن نقله في هذا المجال، هو أنّ الشكوك كانت كثيرة في الكنيسة، في خلال حكم فرنسوا الأوّل* (١٤٩٤ - ١٥٤٧) وكاترين دي مديتشي[2]. فلم يصب الإصلاحيّين من الاضطهاد والعذاب في عصر من العصور مثل ما أصابهم في فرنسا[3]، فهناك اجتمعوا في الكهوف وأُحرقوا ولقوا الكثير من الإذلال. ذلك أنّ سياسة الملوك الفرنسيّين في تلك الحقبة، كانت متأرجحة[4]، ما أدّى إلى منازعات أهليّة قُتل في خلالها سنة ١٥٤٥ ثلاثة آلاف من الإصلاحيّين. بينما أُنشئت كنائس بروتستانتيّة كثيرة في عدّة مدن فرنسيّة. وفي سنة ١٥٥٩ عُقد سينودوس باريس الذي حضره ممثّلون من نحو خمسين كنيسة مصلحة، حيث حرّروا وثائق "النظام" و"شهادة الإيمان". وفي سنة

---

١ - تقول المراجع البروتستانتيّة إنّه في ٢٧ نيسان (إبريل) ١٤٨٧ كتب البابا أنوقنتيوس الثامن (١٤٨٤ - ١٤٩٢) منشورًا في اضطهاد البروتستانت جاء فيه: السلاح السلاح ودوسوا أولئك المبتدعين كما تدوسون الحيّات السامّة. فصار الإنجيليّون يصادون كالوحوش في جانب من ألبا. ولم يزل أتباع البابا يضطهدون ويعذّبون ويقتلون حتّى أعيوا ولم يبقَ لأرجلهم من قوّة على الارتقاء إلى الوعور التي هرب أولئك المظلومون إليها.

٢ - كاترين دي مديتشي (١٥١٩ - ١٥٨٩): ملكة فرنسا ١٥٥٩ - ١٥٧٤ بعد زواجها من هنري الثاني الذي ملك ١٥٤٧ - ١٥٥٩، والدة ثلاثة ملوك هم: فرانسوا الثاني، شارل التاسع، وهنري الثالث ١٥٧٤ - ١٥٨٩، أتقنت السياسة ومارستها دون رادع أخلاقيّ، فكانت سببًا في اضطرام الحروب الدينيّة وفي المذابح التي رافقتها.

٣ - عندما وقعت الحرب بين فرنسيس الأوّل ملك فرنسا والأمبراطور كارلوس، وانتهت بانكسار فرنسيس ووقوعه في الأسر، نُسبت البلايا التي وقعت على المملكة الفرنسيّة إلى الإنجيليّين، فراح بعضهم يطالب بسفك دماء الإنجيليّين وبنفيهم وبالقضاء عليهم نهائيًا.

٤ - يقول مؤرّخو البروتستانت إنّ الملك لويس الثاني عشر طلب من نوّاب إكليروس فرنسا الاجتماع في تورس لأنّه، كما يبدو، كان عارفًا بأزمان الإصلاح قبل مجيئها حتّى إنّه لو حدثت تلك الحركة في مدّة ملكه لكانت فرنسا كلّها إنجيليّة على ما يرجّح.

١٥٧١ أعاد سينودوس "لاروشيل[١]" النظر في النصوص. لكنّ البروتستانت الملقّبين بالـ"هوغنو HUGUENOTS" أي "المتحالفين" قد ألّفوا حزبًا سياسيًّا قصد الدفاع عن حريّته بالسلاح. وفي محاولة توفيقيّة قامت الوصيّة على العرش "كاترينا دي ميديتشي DE MEDICIS" والمستشار "ميشال دي لوبيتال DE L'HÔPITAL" بمنح الهوغنو بعض الحريّات (١٥٦١ و١٥٦٢)، لكنّ مجزرة البروتستانت في "فاسي[٢]" سنة ١٥٦٢ كانت بداية الحروب الدينيّة التي استمرّت حتّى سنة ١٥٩٨. وكانت الحلقة الأدمى في تلك الحروب مجزرة "سان برتِلِمي[٣]" في ٢٤ آب (أغسطس) ١٥٧٢. فقد ادّعت كاترينا دي ميديتشي أنّها تريد إحباط مؤامرة بروتستانتيّة، فأفنت جماعة الهوغنو بباريس، وسار على مثالها العديدون في مدن فرنسيّة، ما أدّى إلى سقوط عشرات ألوف الضحايا. وبعد أن ارتدّ هنري الرابع[٤] عن البروتستانتيّة، أعاد السلام بتوقيعه "مرسوم نانت[٥]" سنة ١٥٩٨، الذي نصّ على حلّ وسط عدّه الكثيرون موقّتًا، فتمّ الاعتراف بحريّة

---

١ ـ **لاروشيل** LA ROCHELLE: عاصمة قسم "شارنت ــ ماريتيم" في غرب فرنسا، أهمّ موانئ فرنسا على الأطلنطيّ في القرون الوسطى، كانت آخر معاقل "الهوغنو"، استولت عليها قوّات ريشوليو بعد حصار ١٤ شهرًا ١٦٢٧ ـ ١٦٢٨.

٢ ـ **فاسي** WASSY: مدينة في مقاطعة المارن العليا، قضى بنتيجة تلك المجزرة نحو ٦٠ بروتستانتيًّا من أبنائها على يد أتباع دوق غيز ما أشعل حرب الديانات في فرنسا.

٣ ـ **سان برتلمي** SAINT BARTHÉLEMY: إحدى مقاطعات الأنتيل الفرنسيّة التابعة للغواذلوب.

٤ ـ **هنري الرابع** (١٥٥٣ ـ ١٦١٠) ملك فرنسيّ ١٥٨٩ ـ ١٦١٠ خلفًا لنسيبه هنري الثالث، كان بروتستانتيًّا فنشأت بسبب ذلك أزمة سياسيّة، حارب معارضيه ثمّ ارتدّ إلى الكثلكة ١٥٩٣، دخل باريس ١٥٩٤ وانتصر على الإسبان، قضى اغتيالاً ١٦١٠ بعد إذاعته مرسوم نانت ١٥٩٨ الذي وضع حدًّا للحروب الدينيّة في بلاده، به يبدأ الفرع البوربونيّ في السلالة الفرنسيّة.

٥ ـ **نانت** NANTES: مدينة ومرفأ في غرب فرنسا وقاعدة محافظة اللوار الأطلسيّ على نهر اللوار، فيها مركز أسقفيّ، وقد أصدر هنري الرابع قرار أو مرسوم نانت في ١٣ نيسان (إبريل) ١٥٩٨ وحدّد فيه وضع الكنيسة الكالفينيّة القانونيّ في المملكة الفرنسيّة وما يمنح لها من حريّة دينيّة وحقوق سياسيّة وعسكريّة فوضع حدًّا للحروب الدينيّة، ألغى هذا القرار لويس الرابع عشر في ١٨ تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٦٨٥ وشنّ حملة تضييق واضطهاد على الكالفينيّين فهاجر قسم منهم إلى سويسرا وألمانيا وهولندا.

الضمير، وأُقرّت حريّة العبادة مع بعض الشروط، وبذلك حصل البروتستانت على بعض الضمانات القانونيّة، وبقيت فرنسا الرسميّة كاثوليكيّة. وفي نهاية القرن السادس عشر، كان العالم المسيحيّ في أوروبّا قد انقسم إلى عدّة كنائس معارضة لروما: اللوثريّة أو الإنجيليّة، والكنائس الكالفينيّة. فبُترت الكنيسة الرومانيّة إلى حدّ بعيد، لكنّها ستقوم بنهضة محاولة إصلاح نفسها، وسيندفع بعض الأمراء الكاثوليك إلى استعادة السيطرة بالسلاح. وهذا ما يُسمّى أحيانًا "الإصلاح المضادّ"[1]. وإذ نقض لويس الرابع عشر مرسوم نانت سنة ١٦٨٥، هاجر معظم البروتستانت الفرنسيّين إلى هولّندا[2] وألمانيا.

في المَملكَة المُتَّحِدَة

في إنكلترا، قام بين الملك هنري الثامن[3] وبين الكرسيّ الرسوليّ نزاع بسبب أنّ الأوّل لم يحصل من البابا على حكم بفسخ زواجه من "كاترينا الأرغونيّة D'ARGON" الإسبانيّة الأصل التي لم تنجب له إلاّ بنتًا، وكان الملك شغفًا بامرأة غيرها. فطالب الإكليروس الإنكليزيّ بمنحه الفسخ وأعلن نفسه رئيس كنيسة إنكلترا سنة ١٥٣٤، وعيّن لمدينة كانتربري رئيس أساقفة جديدًا، فسمح له بالزواج. وأعدم الملك الذين

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٤٢.

٢ ـ عدد سكّان هولندا اليوم حوالى ١٦ مليون نسمة، عدد البروتستانت فيها يزيد على عدد الكاثوليك بنحو نصف مليون نسمة.

٣ ـ هنري الثامن (١٤٩١ ـ ١٥٤٧): ملك إنكلترا ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧، انتصر على الفرنسيّين ١٥١٣، انفصل عن الكنيسة الكاثوليكيّة ١٥٣٥، تزوّج ستّ نساء.

ظلّوا أمناء لروما، ومنهم "توماس مور[1]" والأسقف "فيشر FISHER" وكثيرون آخرون. إلاّ أنّ هنري الثامن حافظ على جوهر الإيمان الكاثوليكيّ. وأعلن البرلمان سنة ١٥٣٤ أن لا دخل للبابا في شؤون الكنيسة الأنغليكانيّة، فانفصلت هذه الكنيسة عن الكنيسة الرومانيّة، دون أن يُنكر الإنكليز جوهر المعتقد الكاثوليكيّ[2].

ولمّا كان وريث الملك، إدوارد السادس (١٥٤٧ ـ ١٥٥٣) ما زال قاصرًا تغلغلت الأفكار "الكالفينيّة" إلى "كتاب الصلوات" سنة ١٥٤٩. وإلى "البنود الإثنَين والأربعين" سنة ١٥٥٢[3]. وحين أصبحت "ماري تيودور TUDOR"، إبنة هنري الثامن من كاترينا الأرغونيّة، ملكة، أعادت المذهب الكاثوليكيّ وأعدمت أكثر من مئتَي معارض فلُقّبت بالملكة السفّاحة. لكنّ إليزابيت الأولى (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) أنشأت المذهب "الأنغليكانيّ" في صيغته النهائيّة، واتّخذت لقب "حاكمة المملكة المطلقة في الأمور الروحيّة والزمنيّة"، وأعادت "كتاب الصلوات" الذي وافق عليه إدوارد السادس، وأصدرت "البنود التسعة والثلاثين" التي يقوم عليها الإيمان الأنغليكانيّ. وتمّت ملاحقة الكاثوليك

---

١ ـ السير توماس مور MORE (١٤٧٨ ـ ١٥٣٥) سياسيّ وكاتب إنكليزيّ، قضى عامَين في أوكسفورد حيث تأثّر بالتعليم الجديد، ظلّ مهتمًا بالمذهب الإنسانيّ بعد أن كرّس حياته لدراسة القانون، كان كبير وزراء هنري الثامن واعتزل منصبه ١٥٣٢، أعدمه هنري لعدم موافقته على طلاقه فاتّهمه بالخيانة مع أنّه كان صديقًا له شغل مناصب هامّة في عهده، ألّف كتاب "يوتوبيا" العالميّ المعروف بكتاب "المدينة الفاضلة" نُشر باللاتينيّة ١٥١٦ وبالانكليزيّة ١٥٥١، أوجز فيه آراءه التربويّة فوصف مدينة مثاليّة تعمّ فيها الاشتراكيّة والتعليم والتسامح الدينيّ، وله مقالات دينيّة عديدة منها "دفاع سير توماس مور" ١٥٣٢، و"حياة جون بيكوس" ١٥١٠، ألّف "روبرت بولت" مسرحيّة عن حياته بعنوان "رجل لكلّ العصور"، تعتبره الكنيسة الكاثوليكيّة شهيدًا قدّيسًا.

٢ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

٣ ـ أدخل الملك إدوارد السادس والملكة إليزابيت بعض التعاليم المقتبسة عن البروتستانتيّة. غير أنّ الأنغليكان احتفظوا ببعض المعتقدات الكاثوليكيّة، كما حافظوا على النظام الأسقفيّ والقدّاس الإلهيّ. ولذلك فهم يعتبرون أنفسهم حلقة الوصل بين الكاثوليك والبروتستانت. وانتشرت كنيستهم في المستعمرات الإنكليزيّة.

والمنشقّين البروتستانت. واعتنقت اسكتلندا المذهب الكالفينيّ، وحصلت الكنيسة الإنجيليّة الاسكتلنديّة (المشيخة) على نظامها الأساسيّ الرسميّ سنة ١٥٦٠. أمّا إيرلندا فرفضت رفضًا باتًّا الإصلاح الذي حاولت إنكلترا فرضه عليها.

إنشقاقات وهُجرة

وبينما كانت الحكومة تلاحق في إنكلترا الكاثوليك والبروتستانت المنشقّين الذين يرفضون الرتب التقليديّة المتبقّية في المذهب الأنغليكانيّ، وبدءًا من سنة ١٦٢٠، أخذ بعض أولئك المنشقّين يهاجرون إلى أميركا ليعيشوا فيها وفقًا لمعتقداتهم. لكنّ "أوليفر كرومويل[١]"، الذي تزعّم حركة المنشقّين، انقلب على الملك شارلز الأوّل وأعدمه سنة ١٦٤٩. وباسم الكتاب المقدّس، قام كرومويل بتقتيل الإيرلنديّين، لأنّهم رفضوا العدول عن معتقدهم الكاثوليكيّ. ولمّا أُعيد الحكم الملكيّ إلى بلاد الإنكليز، لم يتغيّر أيّ شيء بالنسبة إلى الكاثوليك. ومن مظاهر ذلك الواقع شنق رئيس الأساقفة الإيرلنديّ "أرماغ ARMAGH" سنة ١٦٨١.

تفرّع من المجموعات الكنسيّة التي نشأت في عهد الإصلاح مذاهب أخرى احتجاجًا على ارتباطها بالدولة، أو نتيجة حركة روحيّة تجدّديّة، ثمّ تشعّبت هذه إلى فروع يصعب حصرها. واندفعت إلى التبشير في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع

---

١ ـ أوليفر كرومويل OLIVIER CROMWELL (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨): سياسيّ إنكليزيّ، عضو في البرلمان، تزعّم حركة المعارضة لسلطة الملك وبثّ روح الثورة وقاد رجالها فانتصر على جيش الملك شارلز الأوّل وحكم عليه بالإعدام ١٦٤٩، أخضع إيرلندا وحلّ البرلمان وتولّى الحكم بصورة ديكتاتوريّة ١٦٥٣.

القرن التاسع عشر، فأُسّست جمعيّات تبشيريّة كثـيرة، وصـل العديد منهـا إلـى الشـرق العربيّ في مطلع القرن التاسع عشر، فأُسّس جرّاء ذلك كنائس إنجيليّة محليّة أقرّت لهـا السلطنة العثمانيّة بالكيان الطائفيّ عام ١٨٥٠[1].

---

١ - يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٣ - ٢٦٤.

الفَصلُ الرَّابِع

الكَنَائِسُ الإنجيليَّة فِي القَرنِ الثَّامِن عَشَر

النزعَة التقويَّة عنـدَ الألمـان؛

زنتزنـدورف المُستبدُّ المُستَنير؛

جُـون وِسلـي والحَركةِ المِيثُوديَّة.

النزعة التقويّة عند الألمان

ذكر باحثون كنسيّون أنّ النزعة التقويّة "PIÉTISME"، جاءت ردّ فعل على النزعات الدنيويّة التي اتّسمت بها البروتستانتيّة في نهاية القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، إذ كانت الكنائس البروتستانتيّة مؤسّسات حكوميّة ذات طابع وظيفيّ. وكان الاختبار الشخصيّ الذي دعا إليه لوثر قد أخلى المجال للتعليم العقائديّ القويم. فتمنّى عدد من البروتستانت إعادة الصدارة للعنصر الشخصيّ في الإيمان. لقد دأبت البروتستانتيّة على التوجّس من التصوّف، الذي اعتبرته الوجه المشوّه للتديّن تجاه الإيمان الخالص. ومع ذلك، كان ما زال هناك مَن يحنّ إلى التصوّف ويواصل قراءة "الإقتداء بالمسيح" ومؤلّفات القرون الوسطى. فجاءت النزعة التقويّة لتلبّي تلك الطموحات المنطلقة من داخل البروتستانتيّة. وكان أبو تلك النزعة القسّيس اللوثريّ "فيليب سبينر PHILIPPE SPENER" (١٦٣٥ ـ ١٧٠٥) وهو من إقليم الـ"ألزاس ALSACE" في فرنسا. طاف أنحاء أوروبّا وجمع عنده مجموعات صغيرة لقراءة الكتاب المقدّس وللصلاة. وكانوا يُسمّون تلك المجموعات "مجموعات تقوى"، ومن هنا عبارة "النزعة التقويّة" التي كانت في أوّل أمرها عبارة تهكّميّة. ووضع "سبينر" أساسًا لعمله في كتاب سمّاه "الرغبات التقويّة" سنة ١٦٧٥، ضمّنه أهمّ مبادئه، وهي: تشكيل مجموعات صغيرة لمعرفة الكتاب المقدّس؛ الرفع من شأن الكهنوت الشامل؛ أسبقيّة الاختبار الشخصيّ على علم اللاهوت؛ المحبّة في المناظرات اللاهوتيّة؛ إحياء روحانيّات

القرون الوسطى؛ وإصلاح الوعظ في ضوء التعليم المسيحيّ. وقد حظيت خبرة الاهتداء أهميّة كبرى في الحركة التقويّة، "لأنّها تُكتسب عبر أزمة عميقة... فإنّ ابن اللّه يمرّ أوّلاً بمرحلة يأس، ثمّ يعاني صراعًا باطنيًا، ثمّ يخرج من مأزقه ويجد السلام. وفي أثناء هذه الخبرة، يشعر بسعادة لا توصف. وعليه أن يكون قادرًا على سرد ما جرى له علنًا. فالنزعة التقويّة ترفع من شأن التقوى العاطفيّة وتُعيد للأعمال كلّ ما لها من اعتبار"... ورأى باحثون كنسيّون أنّ فيليب سبينر، الذي كان قسّيسًا لوثريًا، أراد إعادة العاطفيّة إلى الدين، بدون الخروج عن البروتستانتيّة[1].

كانت جامعة "هال HALLE" في "ساكس[2]" مركز الإشعاع الرئيسيّ لحركة التقويّة، فساعدت على نشأة العديد من المؤسّسات الخيريّة، من مدارس ومياتم، وعلى ظهور دعوات إرساليّة إلى البلدان النائية، وألهمت بعض الموسيقيّين أمثال "هندل HAENDEL" (ت١٧٥٩). وبالرغم من بعض المعارضة اللوثريّة لـ "جمعيّات القدّيسين المتهوّسة"، رأى كنسيّون أنّه بوسعنا القول إنّ جزءًا كبيرًا من ألمانيا، في القرن الثامن عشر، تأثّر بالنزعة التقويّة. وسيضيف الكونت "زنزندورف ZINZENDORF" إلى النزعة التقويّة بُعدًا دوليًا[3].

وقد اختصر باحثون لاهوتيّون مبدأ النزعة التقويّة بالتالي:

> لا يقوم الدين المسيحيّ على العلم والفزلكة في مسائل تافهة، كما جرت العادة، إلى حدّ الإفراط في أيّامنا هذه، بل يقوم على معرفة مخلّصنا يسوع المسيح، الإله

---

١ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

٢ - ساكس SAXE أو SACHSEN : مقاطعة في جنوب شرق ألمانيا، عاصمتها "درسدن"، أهمّ مدنها "لايبزك".

٣ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٧.

الحقيقيّ، كما يجب أن يُعرف، بواسطة كلمته، وعلى مخافته من صميم قلوبنا، وعلى محبّته ومناجاته بإيمان حقيقيّ، وعلى طاعته على الصليب وفي حياته، وعلى حبّ الآخرين من صميم قلوبنا ومساعدتهم بروح الرحمة. وأمّا نحن في حياتنا، أمام الخطر والموت، فعلينا أن نستسلم بثقة لا تتزعزع للنعمة التي يمنحنا إيّاها المسيح منتظرين الحياة الأبديّة مع الله[1].

وقد ظهر، طوال القرن السابع عشر أناس مسالمون، وإن كان عددهم قليلاً، عملوا على التقارب بين مسيحيّي مختلف المذاهب. وفي هذا الإطار جاءت المراسلات التي كان محورها الفيلسوف "لايبنيتز[2]". ففي مرحلة أولى قام "سبينولا SPINOLA"، وهو أسقف فرنسيسكانيّ صديق للأمبراطور "ليوبولد الأول[3]" فاتّصل بكاهن لوثريّ في "هانوفر[4]" يدعى "مولانُس MOLANUS" كما اتّصل بـ"لايبنيتز"، ووضع الثلاثة سنة ١٦٨٣ نصًّا سياسيًّا بعنوان "قواعد لتوحيد عامّ للمسيحيّين". وفي مرحلة ثانية، أقيمت مراسلات مكثّفة بين "جاك بوسويه[5] BOSSUET" أسقف "مو" الفرنسيّ، ولايبنيتز ما بين

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

٢ ـ غونفريد فيلهلم لايبنيتز LEIBNIZ (١٦٤٦ ـ ١٧١٦): رياضيّ وفيلسوف ومخترع ألمانيّ، وُلد في لايبسك، حاول مع بوسويه وسواه دمج الكنيستَين الكاثوليكيّة والبروتستانتيّة، اكتشف أسس التحليل الحسابيّ، من أتباع الفلسفة المثاليّة، اشتهر بنزعته التفاؤليّة، له "المونادولوجيا".

٣ ـ ليوبولد الأول LÉOPOLD (١٦٤٠ ـ ١٧٠٥)، ملك المجر ١٦٥٥ ثمّ أمبراطور جرمانيّ ١٦٥٧، استعان بدول أوروبّا لدفع الخطر العثمانيّ عن فيينّا ١٦٨٣، عقد مع الأتراك معاهدة "كارلوفيتش" فضمن انسحابهم من البحر ١٦٩٩، اشترك في حرب الوراثة الإسبانيّة.

٤ ـ هانوفر HANOVRE: مدينة في وسط ألمانياعلى نهر لينه، ومقاطعة بروسيّة سابقة أصبحت جزءًا من سكسونيا السفلى.

٥ ـ بوسويه BOSSUET (١٦٢٧ ـ ١٧٠٤): وُلد في ديجون فرنسا، أسقف مو، اشتهر بمواعظه وتأبينه الفصيحة ومؤلّفاته اللاهوتيّة والفلسفيّة والتاريخيّة.

١٦٩١ ـ ١٦٩٤. وقد أراد لايبنيتز أن يعلّق العمل بموجب المجمع التريدنتينيّ، ريثما يُعقد مجمع عامّ جديد. لكنّ الاتّفاق لم يتمّ، إذ إنّ بوسويه كان يرى أن على لايبنيتز أن يصبح كاثوليكيًّا، في حين كان يرغب لايبنيتز في أن يسلّم بوسويه بوجود عدّة وجهات نظر مسيحيّة[١].

زنزنـــــدورف

المُستبدّ المُستنير

وُلد نقولا لويس، كونت "زنزندورف ZINZENDORF" (١٧٠٠ ــ ١٧٦٠) في "درسد DRESDE" في ألمانيا، وكان ابن "سبينر" بالمعموديّة، رُبّي في أجواء تقوى أنثويّة إلى حدّ بعيد، ولم يعد له رفاق من الذكور. فعدّ يسوع أخًا له. منذ نعومة أظفاره، أدرك أنّ الدين هو مسألة قلبيّة، لا عقليّة. وفي الحال، شعر بهزّة نفسيّة عميقة عند مشاركته الأولى في العشاء السرّيّ، لكنّه رفض الاهتداء المنظّم الذي ينادي به أنصار الحركة التقويّة. ولمّا التقى، في أنحاء أوروبّا، مسيحيّين من جميع المذاهب، رأى فيهم مجرّد جزئيّات للحقيقة. إستقبل في أراضيه بعض الناجين من الإخوة المورافيّين MORAVES ورثة الهسيّين HUSSITES. فنظّمهم في نوع من الحكم الدينيّ المتميّز بتسلّطه. رُسم زنزندورف قسًّا، ثمّ أسقفًا لمورافيا. وبقي في الكنيسة اللوثريّة، لكنّه قَبِل شركة جميع الطوائف البروتستانتيّة وطبع مجموعته بطابع النزعة التقويّة[٢].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

نُفي زنزندورف من ساكس سنة ١٧٣٨ بسبب ابتداعاته، فتحوّل إلى مرسَل. وقد أرسل إلى أميركا إخوة مورافيّين وأقام فيها هو نفسه بضع سنوات. وكان للإخوة مجموعات معاضدة في أوروبّا كلّها. وبعد عودته إلى ساكس، أوضح تعاليمه التي أضافت إلى الإلهام اللوثريّ والتقويّ وغلبة العاطفة ومكانة الآلام في الحياة المسيحيّة وفرح الإنسان الذي نال الخلاص، أضاف لمسة صبيانيّة على صلته بيسوع، وأنمى ما في العبادة من مراسيم احتفاليّة. وبعد وفاة زنزندورف، أصبح المورافيّون طائفة مسيحيّة جديدة: كنيسة وحدة الإخوة. وكان للمورافيّين إذ ذاك ٢٢٦ مرسَلاً في العالم[1]. واعتبر باحثون لاهوتيّون أنّ الرفع من شأن العاطفة أدّى أحيانًا إلى معارضة للعقائد تُجاري "عقلانيّة الأنوار". لكنّ النزعة النقديّة وفّرت للبروتستانتيّة إشعاعًا جديدًا. وكان الإخوة المورافيّون هم الذين أوحوا إلى "جون وِسلي WESLEY" النزعة الميثوديّة.

جُون وِسلي
والحَركةِ المِيثُوديَّة

كانت الكنيسة الأنغليكانيّة مرتبطة، إلى حدّ بعيد، بالسلطات وبأصحاب الأراضي، ففقدت كلّ اتّصال بجماهير المدن التي فيها المناجم والصناعة الناشئة. فتوالى ظهور المنشقّين الذين كثيرًا ما كانوا يقابَلون بالاضطهاد. منهم "جورج فوكس GEORGES FOX" (١٦٢٤ ـ ١٦٩١)، وكان إسكافًا، بشّر بتعليم يقول بأنّ النور الباطنيّ يجعل من العقائد

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٨.

والنظم الكنسيّة أمرًا ثانويًّا. ودعا مستمعيه إلى الارتعاد أمام اللّه، ما أدّى إلى تلقيبهم بـ "المرتعدين".

قلَب "جون وِسلي WESLEY" (١٧٠٣ ـ ١٧٩١) أوضاع الأنغليكانيّة رأسًا على عقب. وكان وسلي قد وُلد في بيئة أنغليكانيّة تعارض "الاختيار السابق" وتتغذّى بكتب القرون الوسطى الكاثوليكيّة. فجمع، بالتعاون مع شقيقه شارل، طلاّبًا من أوكسفورد، في نوادٍ تهدف إلى القداسة وممارسة الأعمال الخيريّة. وقد أكسبتهم الصرامة التي اتُّسموا بها لقب "الميثوديّين[١] MÉTHODISTES". وفي سنة ١٧٣٥، رُسم الشقيقان كاهنَين أنغليكانيَّين. وذهبا إلى أميركا حيث تأثّرا بلقاء الإخوة المورافيّين تأثّرًا شديدًا. ولدى عودتهما إلى لندن، شعر "جون وِسلي"، في أثناء احتفال مورافيّ سنة ١٧٣٨، بتغيير باطنيّ مفاجئ، أي بما يشبه معموديّة الروح القدس، سمّاه "اهتداء". ومرّ أحد أقربائه: "جورج وايتفيلد WHITEFIELD"، وكان كَالفينيّ النزعة، باختبار مماثل. وأراد الرجلان أن يبشّرا بما اكتشفاه، لكنّ المسؤولين رفضوا أن يضعوا الكنائس تحت تصرّفهما. فأخذا يعظان في الهواء الطلق وفي مستودعات المناجم وساحات السجون. فوقعت حوادث غريبة، من صراخ وسجود وهستيريا وشفاء وابتهاج... وعلى مدى أكثر من خمسين سنة، طاف "جون وِسلي" أنحاء إنكلترا ينادي بالإهتداء[٢].

بدون أن يهجر "وِسلي" الكنيسة الأنغليكانيّة، نظّم الورع في العبادة تنظيمًا لافتًا للنظر: إبتداءً من "الصفّ" المكوَّن من ١٢ من "المولودين الجدد" بقيادة "زعيم"، ثمّ

١ ـ MÉTHODISTES: ترجمتها الحرفيّة: المنهجيّون والنظاميّون.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨٩.

"الشركة" المحليّة، فالـ "مركز" فالـ "إقليم". على رأسهم جميعًا "مجلس" مكوّن من نحو مئة عضو. وهناك تجمّعات أقلّ تقيّدًا بالنظم، وفقًا لرقيّهم الروحيّ، أي "الزمرة" حيث تمارس الشفافيّة الروحيّة. وكان على الميثوديّين أن يطلبوا الأسرار من الكنيسة الأنغليكانيّة. على أنّ وِسلي رسم بعض القسوس للعالم الجديد، إذ كان يقول: "أعتبر العالم رعيّتي". وفي الأعياد الخاصّة بالميثوديّين، كان للترانيم التي ألّفها شارل وِسلي مكانة مرموقة. وبعد وفاة وِسلي، شكّلت الميثوديّة مذهبًا مستقلاً، وأصبحت من أولى الكنائس المسيحيّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة. وكانت حركة نهضويّة، شدّدت على الاهتداء وعلى السعي الدائب نحو القداسة. فأعادت إلى الأعمال والعاطفة والانفعال والشعور اعتبارها مع دمج بعض العناصر الكاثوليكيّة في البروتستانتيّة[1].

وهكذا نجد أنّه بتكاثر المجموعات البروتستانتيّة، برز تيّاران، هما اليقظة والليبراليّة. أمّا حركات اليقظة، وهي وريثة النزعتَين التقويّة والميثوديّة، فإنّها شدّدت على التقوى والعاطفة والأدلّة الخارجيّة. ونظر بعضهم إلى الحياة المسيحيّة وكأنّها تعاقب يقظات دوريّة. أمّا الليبراليّة البروتستانتيّة فأرادت أن تجعل المسيحيّة مقبولة في عالم علميّ يختلف كلّ الاختلاف عن عالم رجال الإصلاح. فتغلغلت العقلانيّة في اللاهوت. ويُعتبر "فريديريك شلايرماخر SCHLEIMACHER" (١٧٦٨ ـــ ١٨٣٤) أبًا لليبراليّة، وقد تأثّر، إلى حدّ بعيد، بالمورافيّين. وفي كتابه "خطب في الدين" ١٧٩٩، انطلق شلايرماخر، من الضمير قائلاً: "ليس الدين فكرًا ولا عملاً، بل هو مشاهدة فطريّة وشعور... الدين هو الشعور بالانتماء إلى المطلق. وانطلاقًا من هذا المبدأ،

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٢٨٩ ـ ٢٩٠.

تصبح العقائد شيئًا نسبيًّا، والشعور الذاتيّ هو القاعدة". وقد أسّس كثيرون كنائس حرّة كردّة فعل ضدّ التبعيّة للسلطة. والجدير بالذكر أنّ الفيلسوف "كيركغارد[1]" قد دعا إلى مسيحيّة منقطعة عن العالم، فمهّد السبيل لأنواع الوجوديّة التي عرفها القرن التالي[2].

---

١ - سورن كيركغارد KIERKEGAARD (١٨١٣ - ١٨٥٥): فيلسوف ولاهوتيّ دانماركيّ وجوديّ، علّل الوجود في مؤلّفاته بشيء من التشاؤم.

٢ - كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

الفَصلُ الخَامِس

الإنتشارُ البروتستانتيُّ في العالم

العَالَم البرُوتستَانتِيّ؛ التّجدُّد الفِكريّ؛

في الهِنْد وفي جزُر المُحيط؛ في أفرِيقيَا؛

في الولايات المتّحدة؛ في الشّرق الأوسَط؛

الوحدَة البرُوتستَانتيَّة والحرَكة المَسكُونيَّة.

العَالَم البرُوتستَانتِيّ

تميّزت البروتستانتيّة دائمًا بتعدّد الأسماء وبالوعي المرحليّ. فأسّس وليم بوث في لندن سنة ١٨٧٥ جيش الخلاص الذي يبحث عن طرق العودة إلى حدس وايزلي: يتحسّس بؤس العمّال ويبشّر تحت الخيام وفي أماكن الرقص والمسارح، ويوزّع المآكل ويصارع البؤس والرذيلة والخطيئة. وفي الولايات المتّحدة، قامت سنة ١٨٧٦، انطلاقًا من الميثوديّة، حركة قداسة ينتظر أتباعها بركة الروح لينالوا القدرة على الشهادة في عالم هو فريسة العقلانيّة. في الخطّ ذاته، ظهر سنة ١٩٠١ العَنصريّون في ولاية كنساس وانتشروا بسرعة في كلّ مكان: العماد بالروح الذي يقبله المؤمنون يجدّد في التجمّعات أعاجيب العنصرة كالنبوءة والانخطاف وموهبة الألسن والشفاء. فـ"العَنصريّة[١]" ديانة الفقراء، إذ باستطاعة كلّ أحد أن يجد مكانًا ويعبّر عن أفكاره[٢].

---

١ ـ **العَنصريّة**: نسبة إلى العَنصرة عند المسيحيّين، والعَنصرة هي عيد تذكار حلول الروح القدس على التلاميذ، يقع بعد عيد الفصح بخمسين يومًا؛ وعند اليهود: هو عيد تذكار نزول الشريعة في طور سيناء. واللفظة ساميّة قديمة معناها اجتماع أو محفل.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٣.

التَّجدُّد

الفِكريّ

في أوروبّا، ظنّ بعضهم أنّ اللاهوت البروتستانتيّ سيذوب في التيّارات الفلسفيّة والعلميّة المعاصرة. على أنّه في القسم الأوّل من القرن العشرين، جدّد عدد من اللاهوتيّين الفكر البروتستانتيّ بعمق. من هؤلاء: كارل بارت (١٨٨٦ ـ ١٩٦٨)، وهو قسّ سويسريّ، خرج على التيّار المتحرّر فاكتشف وأكّد فوقيّة اللّه، الآخر المطلق، بالنسبة إلى الثقافة والأخلاق والتاريخ والعاطفة. فاللّه يكشف عن ذاته في كلمة حيّة هي يسوع المسيح. وعلم اللاهوت هو الضمان للإيمان بكلمة اللّه. ففي شرحه للرسالة إلى الرومانيّين سنة ١٩١٩، عاد "بارت" إلى حدس المجدّدين الأوائل وأدان اللاهوت البروتستانتيّ المعاصر الذي ينطلق من الإنسان، إذ يجب سماع اللّه وطاعته. في الوقت عينه، التزم سياسيًّا ضدّ النازيّة منذ ١٩٣٣. وقد أعاد الاعتبار إلى كلمة اللّه وإلى العقيدة[١]، كما أعاد إلى البروتستانتيّة الجديّة في عيون الكاثوليك[٢].

ومن المجدّدين في الفكر البروتستانتيّ رودولف بولتمان (١٨٨٤ ــ ١٩٧٦) الذي أسّس طريقة تاريخ النصوص في دراسة الأناجيل وصياغتها، وأزال عن العهد الجديد ما يقربه من الأساطير. وبول تيليخ (١٨٨٦ ـ ١٩٦٥) الذي أُجبر على هجر ألمانيا النازيّة فهاجر إلى الولايات المتّحدة. وهو الذي أراد أن يربط بين اللاهوت والحضارة، فانطلق من الإنسان المعاصر ومن مشاكله ليصل إلى اللّه.

---

١ ـ صدر له عشرون جزءًا من كتاب العقائديّة (١٩٣٠ ـ ١٩٦٧).

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٣ ـ ٣٥٤.

وهو يخلص إلى أنّ "جوهر كلّ حضارة هو الدين... فالحضارة ضروريّة كتعبير عن الدين"[1].

لقد اهتزّ ضمير المسيحيّين في البلدان الأوروبيّة إبّان القرن التاسع عشر، وشعر بواجب نشر الإيمان والحضارة في بقاع الأرض، ولعلّ سمة التضحية حتّى الاستشهاد والعطاء في سخاء، من السمات التي تلفت نظر الباحثين في مسيرة التاريخ خلال هذه الحقبة.

لم يكن مفهوم الكرازة واضحًا وفق منهج محدّد، إلاّ أنّ الوجدان المسيحيّ امتلأ حماسة ورغبة في البذل لخدمة البلدان الفقيرة. ولا يُنكر جهد الجماعات البروتستانتيّة وبخاصّة الجماعة المعمدانيّة التي برزت سنة ١٧٩٢، ثمّ تبعتها جماعات أخرى سعت إلى نشر الإيمان والحضارة. وكانت ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللغات المحليّة نقطة انطلاق الكرازة المسيحيّة. ولم يكن الأمر سهلاً ميسّرًا، كما قد يُظنّ، بل قامت الخلافات والمشادّات بين مختلف الكنائس والجماعات. لكنّ الأمر الذي لا شكّ فيه هو أنّ التنافس بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة البروتستانتيّة جاء لصالح الشعوب إذ تبارت الكنيستان في الخدمة والتضحية. وتبلورت الإرساليّات في الكنيسة الكاثوليكيّة حتّى أُسّست جمعيّة نشر الإيمان سنة ١٨٨٢ كمؤسّسة تضمّ كافّة الاهتمامات وترعى الدراسات الخاصّة لنشر الإيمان. وبدأ المرسَلون نشاطهم في أغلب الأحيان، بطريقة فرديّة أو بمبادرة شخصيّة، كان منهم كهنة ورهبان، يرحلون إلى البلدان البعيدة تحت رعاية أسقف، وتلا هذه الخطوة مبادرة الجماعات الرهبانيّة الكبرى وأرسلت من قبلها جماعات منظّمة، كرهبانيّة اللعازاريّين، وجمعيّة الروح القدس، واليسوعيّين

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٤.

والفرنسيسكان والدومينيكان... من مختلف جنسيّات الدول الأوروبيّة. أمّا البعثات الإرساليّة البروتستانتيّة فكانت تتبع عدّة جمعيّات، أُسّست خلال قرن من الزمن، تضمّ مبشّرين من مختلف الدول الأوروبيّة والأميركيّة. وما لبث أن دخل سلك هذه الإرساليّات مرسلون ومرَسلات من مواطني الشعوب التي بُشّرت بالإنجيل، ومنهم أفارقة وآسيويّون[1].

في الهِنْد

وفي جزُر المُحيط

في بدايات القرن الثامن عشر، كانت المعاهدة الخاصّة بالملاحة الدوليّة (١٨١٤ - ١٨١٥) قد حدّدت حريّة الملاحة وحركتها، وبرزت إنكلترا وفرنسا كقطبَين يتحكّمان في الطرق الملاحيّة الدوليّة، وقد ورثت هاتان الدولتان، الأمبراطوريتَين الإسبانيّة والبرتغاليّة، بعد أن تقلّص نفوذهما وحصلت بلدان المستعمرات على الاستقلال، وظهرت إنكلترا حامية للكنيسة البروتستانتيّة وإرساليّاتها، وفرنسا حامية للكنيسة الكاثوليكيّة. ترافق ذلك مع ما اتّخذه العمل الإنجيليّ والتبشيريّ من أبعاد جديدة، إذ صدرت مؤلّفات تشجّع على التضحية في سبيل هدف نبيل وهو تبشير الشعوب بنور الإنجيل، كما رغب كثيرون في بناء الكنائس في المناطق البعيدة، وكأنّها محاولة لإقامة مسيحيّة متحرّرة من قيود مسيحيّة الغرب وتقاليدها. في البلدان الأوروبيّة، اهتزّ ضمير المسيحيّين إبّان القرن التاسع عشر، وشعر بواجب نشر الإيمان والحضارة في بقاع الأرض، ولعلّ سمة التضحية حتّى الاستشهاد والعطاء في سخاء، من السمات التي

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٢٨.

تلفت نظر الباحثين في مسيرة التاريخ خلال تلك الحقبة التي لم يكن فيها مفهوم الكرازة واضحًا وفق منهج محدّد، إلاّ أنّ الوجدان المسيحيّ امتلأ حماسة ورغبة في البذل لخدمة البلدان الفقيرة. ولا يُنكر جهد الجماعات البروتستانتيّة وبخاصّة الجماعة المعمدانيّة التي كانت قد برزت منذ سنة ١٧٩٢، ثمّ تبعتها جماعات أُخرى سعت إلى نشر الإيمان والحضارة.

كان لسيطرة بريطانيا على البحار بعد منتصف القرن الثامن عشر مفعولاً إيجابيًّا على نشاط الإرساليّات البروتستانتيّة في مواجهة الإرساليّات الكاثوليكيّة عبر البحار. وبمعاهدة باريس سنة ١٧٦٣ برز التفوّق الإنكليزيّ في أميركا والهند. ثمّ إنّ إلغاء الرهبانيّة اليسوعيّة في جميع الدول الكاثوليكيّة، وقيام البابا بحلّها سنة ١٧٧٣ قد وضعَا حدًّا لنشاط ثلاثة آلاف مرسَل كاثوليكيّ في العالم. وكان عدد العاملين من سائر الرهبانيّات أو الإكليروس العلمانيّ أقلّ بكثير. فوجد الكثير من المسيحيّين أنفسهم متروكين وشأنهم. وجاءت الثورة الفرنسيّة لتزيد من نضوب الموارد والنقص في العاملين. وأصبح سفر المرسَلين الكاثوليك خطِرًا بسبب سيطرة الإنكليز على البحار. فنشأت في بريطانيا الكبرى جمعيّات إرساليّة بروتستانتيّة وجدت الميدان خاليًا[١].

إنتقل إلى الهند بعض اللوثريّين فقصدوا "ترانكيبار TRANQUEBAR" سنة ١٧٠٦، وهذه الإرساليّة هي من أوائل الإرساليّات البروتستانتيّة منذ أن نشأت حركة الإصلاح. وفي سنة ١٧٣٣ رُسم أوّل قسّ هنديّ[٢].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٨١ ـ ٢٨٣.

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص ٢٦٢ ـ ٢٧٣ ـ ٢٧٥.

أمّا جزر المحيط الهادي، فشهدت سباقًا في الكرازة وبسط النفوذ ونشر الحضارة بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنيسة البروتستانتيّة. وقد وصل المبشّر البروتستانتيّ جون وليامز إلى تاهيتي سنة ١٨١٧ بعد أن سبقه مبشّرون من جمعيّة المرسَلين البروتستانت بلندن سنة ١٧٩٧. وقد طاف وليامز بين الجزر على مركب سمّاه "حامل السلام". ولم يصل الكاثوليك إلى جزر المحيط قبل سنة ١٨٢٧، ممثَّلين برهبانيّتَين هما رهبانيّة القلب المقدّس وجمعيّة الآباء المريميّين. إتّجهت الأولى إلى الجزء الشرقيّ، والثانية إلى الجزء الغربيّ من الجزر. وهكذا عرفت تاهيتي الدين المسيحيّ خلال القرن التاسع عشر واحتُفل بأوّل قدّاس كاثوليكيّ سنة ١٨٤٣. أمّا غينيا الجديدة فقد دخلتها المسيحيّة ببطء، ممثَّلة بجمعيّة المريميّين التي أسّست فيها رهبانيّة للنساء. ولعلّ أهمّ ما يُلاحظ في تبشير هذه الجزر اختلاط الفكر المسيحيّ بتراث شعوبها، وما حمله هذ التراث من أساطير قديمة. وظلّ المسيحيّون الجدد من أهل الجزر متمسّكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم، بل حاولوا مزجها بتعاليم الكتاب المقدّس[1].

في أفرِيقيَا

لقد أدّى الصراع بين المرسَلين الكاثوليك من جهة، والمرسَلين البروتستانت من جهة أخرى، إلى نتائج سلبيّة وبخاصّة في جزيرة مدغشقر[2]، التي وصل إليها المرسَلون البروتستانت سنة ١٨٢٠، وبعدهم وصل اليسوعيّون، واضطهدت الملكة

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣١.

٢ ـ مدغشقر MADAGASCAR: جزيرة في المحيط الهنديّ جنوب شرقيّ أفريقيا، سكّانها نحو ١٤ مليون نسمة، يسمّون "مالاغاش" وهم خليط من أصل زنجيّ وملاييّ وربّما بولينيزيّ، لغتهم من أصل ملاويّ، يدين بعضهم بالمسيحيّة وبعضهم بـ"حيويّة المادّة" وأقليّة بالإسلام، كانت جمهوريّة ضمن الأسرة الفرنسيّة منذ ١٩٥٨، استقلّت ١٩٦٠، عاصمتها تاناناريف أو أنتاناناريفو.

"رناقلونـا" العجوز، التـي عُرفـت باسم "الملكـة الشـيطانيّة"، المرسَـلين البروتسـتانت" اضطهادًا شنيعًا وأذاقتهم ألوانًا من العذاب، وكأنّ صمودهم الأمين أتى بثمار طيّبة، فقد اعتنقت الملكة البروتستانتيّة سنة ١٨٦٩[1].

في الولايَات المتّحدة

عندما استقلّت المستعمرات البريطانية في أميركا الشماليّة قبل نهايـة القرن الثـامن عشر[1]، وانتظمت شؤون الدولة الجديدة تحت اسم الولايات المتّحدة الأميركيّة، كثر عـدد المهاجرين البروتستانت حتّى أصبحوا يشكّلون أكثرية السكّان. وكـان هؤلاء بمعظمهم من أتباع الكالفينيّة. وأسّسوا في العام ١٨١٠ جمعيّـة مبشّـرين رسـميّة للتبشـير فـي مـا وراء البحار. ووسوف تنشأ لاحقًا عدّة كنائس إنجيليّة في الولايات المتحدة الأميركيّة[2].

في الشّرق الأوسَـــط

ذكرت دراسات أنّ مجمل عدد البروتستانت العرب، المقيمين في البلدان العربيّـة، لا يتجاوز المائة وخمسين ألف نسمة موزّعين بأكثريّتهم على السودان ولبنـان وسـوريا ومصر[3].

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٣٥.

٢ ـ راجع الفصل التالي.

٣ ـ سعد الدين إبراهيم د.، المجتمع [illegible] الوطـن العربـيّ، مركز دراسات الوحدة العربيّة (بيروت، ١٩٨٨)؛ السمّاك محمّد، الأقلّيات بين العروبة والإسلام، د [illegible] (بيروت، ١٩٩٠) ص٢٤.

مثلما اهتمّ سائر المبشّرين المسيحيّين، من مختلف الملل والفصائل، قبل نهاية القرن التاسع عشر، بالشرق عمومًا، وبالأراضي المقدّسة خصوصًا، كذلك فعل البروتستانت الذين شعروا بواجب التبشير والدعاية لإيمانهم. فبعد أن انتظموا في وليامس تاون من أعمال نيوإينغلند في الولايات المتّحدة بداية لأعمال التبشير، فأسّسوا سنة ١٨٠٨ جمعيّة الأخوة، ثمّ التحقوا بكليّة أندوفر للاهوت وبثّوا دعايتهم في كليّة وليام. انضمّ هؤلاء إلى الجمعيّة الأميركيّة للتبشير في الخارج، بأرض الشرق، فأرسلوا سنة ١٨١٩ طلائع مبشّريهم إلى فلسطين. وقد ساعد هؤلاء الروّاد جمعيّة التبشير الإنجيليّة الفرنسيّة[١]. سرعان ما انبثّ هؤلاء وكان عددهم لا يزيد على عدد أصابع اليد، في فلسطين ومصر وسوريا وفارس وأرمينيا. وقد التحق بالمرسلين البروتستانت الأميركيّين والفرنسيّين، آخرون بريطانيّون كان أوّلهم "لويس واي" الذي جاء بيروت سنة ١٨٢٣ واستأجر مقرّ الآباء اليسوعيّين في عينطورة كسروان وجعله مركزًا للتبشير البروتستانتيّ[٢].

كان التعليم والمال من العناصر التي توسّلها المرسلون البروتستانت لجلب الجماعات إلى معتقدهم. وكان الشرق إذ ذاك في حالة عوز لهذَين العنصرَين. كما أنّهم تعاملوا باللّين والمحبة لبثّ معتقدهم. فلدى وصولهم إلى القدس أقاموا عند الأرمن ووزّعوا الأسفار المقدّسة. ثمّ أظهروا المحبّة لليونان وأقرضوا رهبان القبر المقدّس مالاً كانوا بحاجة إليه. واستأجروا بضع غرف في دير رئيس الملائكة. وراحوا

---

١ - راجع: THOMPSON A. E., *A CENTURY OF JEWISH MISSION*, P. 176; STRONG W., *THE STORY OF THE AMERICAN BOARD*, P.80; BIANQUIS J., *LES NOUVEAUX DEVOIRS DU PROTESTANTISME FRANÇAIS EN SYRIE*, P. 24.

٢ - SCHERER G., *MEDITERANIEN MISSIONS*, (BEIRUT,1932). P.1.

يوزّعون الخبز يوميًّا على التلامذة الفقراء. وبعد أن بارك الرهبان أعمالهم الخيريّة هذه، بدأوا يعلِّمون الأولاد ألاّ يحترموا الأيقونات والصليب، وألاّ يصوموا وألاّ يستشفوا السيّدة العذراء. أمام هذا الواقع لجأ الرهبان إلى اليهود، فاستدانوا منهم مالاً وأعادوا إلى الأميركيّين قرضهم وطردوهم من الدير والمدارس[1]. فخرج هؤلاء من القدس سنة ١٨٢٥ واستقرّوا في بيروت وجعلوها مركز تبشيرهم. فعكفوا على درس العربيّة والسريانيّة ليتمكّنوا من محادثة الأهالي.

سرعان ما بدأ الصراع بين هؤلاء المرسلين البروتستانت والسلطات الروحيّة والكاثوليكيّة في الشرق، التي جهدت لاستصدار فرمان سلطانيّ منعَ توزيع أسفارهم المقدّسة وأوجب جمع ما وُزّع منها. وحاول الإكليروس الكاثوليكيّ حضّ روّاد التبشير البروتستانتيّ في الشرق على العودة إلى حضن الكنيسة الجامعة، بيدَ أنّ أحد هؤلاء: يونس كينغ الأميركي، قام بتصنيف ردّ على مَن دعوه إلى الكثلكة نشره بعد أن نظر فيه المعلّم أسعد الشدياق[2] ووزّعه في جميع أنحاء الدولة العثمانيّة. وقد تضمّن هذا الردّ المبادىء الرئيسيّة للإيمان الكالفينيّ، وثلاثة عشر ردًّا على سؤال: لماذا لا أقبل الكثلكة.

نشط المرسلون البروتستانت في إنشاء المدارس في الشرق بعد أن استمالوا إليهم عددًا من الكتّاب، ومن الأساقفة الأرمن الغريغوريّين. وقبل نهاية العام ١٨٢٧ بلغ عدد

١ - PAPADOPOULOS K., *ANALEKTA*, II, P. 458.

٢ - أسعد يوسف الشدياق (١٧٩٨ - ١٨٣٠): وُلد في عشقوت كسروان وتعلّم في غوسطا، تضلّع في اللغات وتعمّق في اللاهوت، أمين سرّ البطريركيّة المارونيّة، ثمّ أمين سرّ مطرانيّة بيروت في عهد المطران بطرس كرم ١٧٦٩ - ١٨٤٤، سجنته البطريركيّة المارونيّة في دير قنّوبين بسبب اتّباعه البروتستانتيّة حتّى وفاته.

تلك المدارس ثلاث عشرة مدرسة ضمّت حوالي ستّمائة طالب. وكان أوّل الكتّاب الموارنة الذين انضمّوا إلى الكنيسة البروتستانتيّة المعلّم أسعد الشدياق*، ممّا أثار حفيظة البطريرك المارونيّ يوسف حبيش الذي أصدر نهاية سنة ١٨٢٦ حرمًا قاسيًا ضدّ البروتستانتيّة، أُعلن رسميًّا في كنيسة بيروت المارونيّة في بداية العام ١٨٢٧. وحذا بطريرك الروم الكاثوليك اغناطيوس قطّان حذو البطريرك المارونيّ. ثمّ تمّ القبض على أسعد الشدياق الذي سُجن في دير مارونيّ ناءٍ، أمّا فارس[١] شقيق أسعد، الذي كان هو الآخر قد اعتنق البروتستانتيّة، فقد التجأ إلى بيت المرسلين في بيروت فنقلوه إلى مالطة. في الوقت نفسه تحرّك البطريرك الأرثذوكسيّ: مثوديوس، بطريرك أنطاكية (١٨٣٧-١٨٤٠) فراسل المبشّرين البروتستانت لافتًا أنظارهم إلى أنّ مدارسهم تبذر الشقاق بين خرافه، وأمر بإقفال المدارس التابعة لهم في مرجعيون وحاصبيّا[٢].

وفي سنة ١٨٣٢ أمر مطارنة اللاّذقية وطرابلس وصور وصيدا بإحراق المطبوعات البروتستانتيّة، بعد أن كان المبشّرون قد تابعوا أعمالهم وكوّنوا في بيروت نواة لكنيسة إنجيليّة جمعت مَن كانوا رومًا وموارنة وأرمن، وتسرّبت عقائدهم إلى البلدات والقرى. فهبّ أحبار سائر الكنائس المسيحيّة لمنع أبناء رعاياهم من إرسال

---

١ - فارس يوسف الشّدياق (١٨٠٥ - ١٨٨٧): هو المعروف بالعلاّمة الشيخ أحمد فارس الشدياق، وُلد في عشقوت كسروان، درس علومه الإبتدائيّة في عين ورقة، تُوفّي والده وهو صبيّ، أتقن صناعة الخطّ ونسخ الكتب بالأجرة، انتقل إلى مصر فدرس وعمل في الصحافة، انتقل إلى مالطة معلّمًا في مدرسة الأميركان ١٨٣٤ - ١٨٤٨، انتقل إلى لندن بطلب من جمعيّة ترجمة الأسفار المقدّسة حيث عاون في تعريب الأسفار وتنسيقها وضبطها ١٨٤٨، انتقل إلى باريس، ثمّ إلى تونس بطلب من باي تونس ليحرّر جريدة "الرائد التونسيّ"، انتقل إلى الآستانة بطلب من السلطان وتولّى تصحيح الطباعة العامرة، جاهر حينذاك باعتناق الدين الإسلاميّ بسبب حادثة أخيه أسعد واتّخذ اسم أحمد.

١ - BIRD I., *THE MARTYR*, PP. 228-231

أولادهم إلى مدارس البروتستانت. واستصدر الآباء اليسوعيّون أوامر حكوميّة عثمانيّة تمنع دخول المنشورات البروتستانتيّة إلى الأراضي العثمانيّة، فسارع المبشّرون البروتستانت إلى نقل مطبعتهم من مالطة إلى بيروت سنة ١٨٣٥، وهكذا أصبحت منشوراتهم تُطبع داخل الأمبراطوريّة العثمانيّة عوضًا عن أن تدخل إليها.

لم يمضِ وقت طويل حتّى بدأت تنشأ رعايا بروتستانتيّة في المنطقة، كانت أوّلها رعيّة في حاصبيّا بجنوب لبنان. وقد قامت قيامة الكنائس غير البروتستانتيّة على هذا التمدّد. وراح بطاركتها وأحبارها يحاولون تحريك السلطنة ضدّها، بيدَ أن ذلك لم يمنع المرسلين البروتستانت من التوسّع، ومن استقطاب نخبة من أهل القلم والرأي والفكر. وفي خريف ١٨٦٠، وكانت الأحداث الدامية في لبنان قد شارفت إلى نهايتها، قدِمت الإرساليّة الانكليزيّة السوريّة إلى لبنان وأسّست لها المدارس للصبيان وللبنات في بيروت وزحلة وبعلبك وعين زحلتا وشملان وحاصبيّا. قبل ذلك التاريخ كانت طلائع المرسلين الإنجيليّين الأميركيّين قد وصلت إلى بيروت، "وكانت تباشير اليقظة الفكريّة تلوح في أفق البلاد. وظهرت في جميع أنحاء لبنان جماعة من الشباب التائق إلى المعرفة... وكان مع أمثال هؤلاء أن أقام الرعيل الأوّل من المرسلين الأميركيّين أولى الصلات. منهم، إضافة إلى أسعد الشدياق (١٧٨٩-١٨٢٩) أحد خرّيجي مدرسة عين ورقة، وممّن علّموا المرسلين الأميريكيّين اللغة العربيّة، أسعد الخيّاط الذي أقبل على هؤلاء المرسلين ليتعلّم منهم اللغة الإيطاليّة... وكان للمرسلين الأميركيّين السبق في أنّهم لاحظوا تشوّق اللبنانيّين إلى العلم والمعرفة، فحاولوا القيام بمهمّتهم التبشيريّة عن طريق نشر التعليم بدلاً من العمل الدينيّ المباشر"[١].

---

١ ـ الصليبي د. كمال سليمان، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت،١٩٦٧) ص ١٧٠-١٧٢.

قام المرسلون الأميركيّون بأولى نشاطاتهم التربويّة في بيروت وجبل لبنان. وفي سنة ١٨٣٤ أنشأت زوجة "عالي سميث"، أحد هؤلاء المرسلين، "مدرسة صغيرة زاهرة للبنات في إحدى غرف دار الإرساليّة... وفي الصيف التالي افتتحت مدرسة أخرى للبنات الدرزيّات في الجبل، ومدرسة داخليّة للصبيان في بيروت، بستّة طلاب"، وسرعان ما أصبح عدد تلك المدارس خمسًا نهاريّة للصبيان، عدد طلاّبها حوالى الثلاثماية، منتشرة بين بيروت والجبل[١]واذ توقّفت تلك المدارس عن العمل بخلال الاضطرابات التي وقعت سنة ١٨٤٠، سارع المرسلون في العودة إلى مراكزهم إثر نهايتها، لكنّ مدارسهم كانت قد تبعثرت تمامًا، وقد مضى وقت طويل قبل أن تتمكّن من العودة إلى سابق عهدها[٢].

ففي خريف ١٨٤٠، استأنفت المدرسة الداخليّة للصبيان عملها. وبعد ثلاث سنوات افتتحت الإرساليّة مركزًا آخر لها في عبيه من أعمال جبل لبنان في قضاء عاليه، وقد نمت هذه المدرسة بسرعة لتصبح أهمّ المعاهد الإنجيليّة في لبنان لتدريب الطلاّب على التبشير بالمذهب البروتستانتيّ. ولمّا باشرت المطبعة التي تمّ نقلها من مالطة إلى بيروت، طباعتها بحروف عربيّة، لم يكن العالم قد عرف بعد أجمل منها، وكان ذلك في ربيع سنة ١٨٤١، تيسّر طبع الكتب لتلك المدرسة بشكل كان يفتقر إلى مثله سواها. وقبل أن ينتصف القرن التاسع عشر، كانت قد ازدهرت مدارس المرسلين الأميركيّين في بيروت والجبل. من جهة أخرى، أُلّفت في بيروت لجنة خاصّة من قنصلَي أميركا وإنكلترا ضمّت مرسلين أميركيّين ومعلّمين لبنانيّينلتدير سلسلة من

---

١ - BIRD I., *BILBLE WORK IN BIBLE LANDS,* (OR) *EVENTS IN THE HISTORY OF THE SYRIAN MISSION* (PHILADELPHIA,1872), PP. 312,318-319.

٢ - BIRD I., *BIBLE,* P. 346.

المدارس التي عُرفت بـ "المدارس اللبنانيّة"، والتي انتشرت في قرى الشوف وعاليه والمتن من أعمال جبل لبنان، وقد بلغ عددها، قبل فتنة ١٨٦٠، خمس عشرة مدرسة وعدد طلاّبها نحو ستّمائة. وكان معظم هؤلاء الطلاّب والطالبات من الروم الأرثذوكس والدروز، وبعضهم من الموارنة والروم الكاثوليك والسنّة والشيعة[١]. وكان أكثر أبناء الكنائس اللبنانيّة إفادة منها الروم الأرثذوكس، وخصوصًا الأُسر الأرثذوكسيّة التي اعتنقت المذهب الإنجيليّ، يليها في ذلك الدروز. وقد بلغ عدد "المدارس اللبنانيّة" في ذروته أربعًا وعشرين مدرسة.

في هذه الأثناء، قامت الإرساليّات الإنجيليّة المختلفة بمشاريع عديدة على الصعيد التربويّ. فأنشأ المرسلون الأميركيّون مدرسة داخليّة للإناث في سوق الغرب من أعمال قضاء عاليه في جبل لبنان سنة ١٨٥٨ نُقلت إلى صيدا في الجنوب بعد أربع سنوات. وفي سنة ١٨٧٢ انشأوا مدرسة مماثلة في طرابلس الشمال، وفي سنة ١٨٨١ حُوّلت المدرسة الأميركيّة للذكور في صيدا من مدرسة خارجيّة إلى مدرسة داخليّة، وسُمّيت: معهد الفنون. وفي العام ١٨٨٣ أعادت الإرساليّة الاسكوتلانديّة افتتاح المدرسة اللبنانيّة في سوق الغرب بعدما كانت قد أغلقت أبوابها، ثمّ بيعت للإرساليّة الأميركيّة سنة ١٨٨٩، التي تسلّمت أيضًا المدرسة اللبنانيّة في الشوير من أعمال قضاء المتن في جبل لبنان، وحوّلتها إلى داخليّة سنة ١٨٩٩. وفي الحقبة نفسها أسّست

---

١ ـ الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ١٧٤-١٧٧: راجع اسماعيل حقّي بك، لبنان: مباحث علمية واجتماعية (بيروت،١٣٣٤)، ص٤٧٧؛ CHURCHILL OF LEBANON, *JOURNAL OF THE ROYAL CENTRAL ASIAN SOCIETY*, XI (1953) PP. 217-223; *NARRATIVE AND REPORT REGARDING LEBANON SCHOOLS*, SUPERINTENDED BY: JOH LOWTHIAN, ESQ., OF CARLTON HOUSE, CARLISLE, P. 18; *REPORT ON THE LEBANON SCHOOLS, WITH TRESORS' ACCOUNTS 1856.1868*, P.6.

جمعيّة الأصدقاء البريطانيّة (الكويكرز) في برمّانا من أعمال قضاء المتن في جبل لبنان، مدرسة للذكور والإناث. و"كانت جميع هذه المدارس، الأميركيّة منها وغير الأميركيّة، ذات منهاج ثانويّ. وكان لمعظمها أراضٍ واسعة وأبنية حديثة حسنة التجهيز. لكنّ المأثرة الكبرى التي توّجت العمل التبشيريّ الإنجيليّ في لبنان كانت تأسيس "الكليّة السوريّة الإنجيليّة" في بيروت، التي أصبحت في ما بعد "الجامعة الأميركيّة" في بيروت. وكانت الإرساليّة السوريّة قد أقرّت تأسيس هذه الكليّة في سنة ١٨٦٢ وحصلت لها على ترخيص خاصّ من ولاية نيويورك. ففتحت الكلّيّة أبوابها في سنة ١٨٦٦ برئاسة مؤسّسها، دانيال بلِس (١٨٢٣-١٩١٦). وفي ٧ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٨٧١، وُضع الحجر الأساس لأولى أبنيتها. وسرعان ما أصبحت "الكلّيّة السوريّة الإنجيليّة" أحد المراكز الرئيسيّة للتعليم العالي في السلطنة العثمانيّة[1]. وقبل نهاية نصف الألف العثمانيّ كانت تلك الإرساليّات الإنجيليّة قد وسّعت نشاطها في لبنان ليشمل، إضافة إلى الشأنَين التبشيريّ والتعليميّ، الشأن الصحّيّ. فراح أساتذة كليّة الطبّ في الكليّة السوريّة الإنجيليّة يمارسون مهنتهم في المستشفى الألمانيّ الذي أسّسه "فرسان القدّيس يوحنّا" في بيروت، وكان من أحدث المستشفيات في المنطقة بأسرها. وفي سنة ١٩٠٩ أنشأت الإرساليّة الأميركيّة مصحًّا للمصدورين في المعاملتَين بالقرب من جونيه، أسّسته الدكتور "ماري إدي" إحدى المرسلات الأميركيّات، وكانت قبل ذلك قد مارست الطبّ سنوات في صيدا وجوارها، وعلى الأرجح أنّها كانت أوّل امرأة مارست مهنة الطبّ في السلطنة العثمانيّة باجازة رسميّة. وقد نُقل المصحّ بعد ذلك إلى الشبانيّة بالقرب من حمّانا في قضاء بعبدا من أعمال جبل لبنان، وهو مصحّ مشهور

---

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص١٧٩.

الآن يُعرف بـ"مصح هاملن". وفي سنة ١٨٩٧ كان المرسل الألمانيّ "ثيوفيلُس ولدمير"، الذي بنى المدرسة الإنكليزيّة لـ"جمعيّة الأصدقاء" في برمّانا، قد أسّس أوّل مستشفى للمصابين بالأمراض العقليّة في مكان من ضاحية بيروت، قرب الحازميّة، يُعرف بالعصفوريّة. وقد ظلّ مصحًا الشبانيّة لأمراض السلّ والعصفوريّة للأمراض العقليّة المصحّين الوحيدَين من نوعهما في البلاد لعشرات السنين. وكان المرضى يُرسلون إليهما من جميع أقطار الشرق الأدنى حتّى من أماكن نائية كإيران[1].

رغب المرسلون البروتستانت في نشر الكتاب المقدّس على العرب أجمعين، فألّفوا في السنة ١٨٤٧ لجنة لهذه الغاية برئاسة الدكتور عالي سميث وعضويّة الدكتورَين وليم طومسون وكارنيليوس فانديك. فاتّصلت اللجنة بالمراجع العليا في الولايات المتّحدة وحثّتها على الموافقة راجية اجتذاب العرب المسلمين إلى مطالعة التوراة والإنجيل. وقد تمّ لها ما أرادت فتمّ تعريب الإنجيل سنة ١٨٦٠، والتوراة سنة ١٨٦٥. وقد اشترك في تلك الأعمال: الشيخ ناصيف اليازجي، والمعلّم بطرس البستاني، والدكتور عالي سميث، وعدد من العلماء الألمان: منهم الأساتذة فلايشر وروديغر وفلويغل وبرناور. وأشرف الشيخ يوسف الأسير إشرافًا نهائيًا على اللغة والأسلوب[2].

لم تجد البروتستانتيّة مجالاً لها في هذا الشرق مثل الذي وجدته في لبنان. ففي فلسطين ووجهت بالعداء من قِبَل سائر الكنائس. أمّا في مصر فقد اعتُبرت تلك

---

١ ـ حتّي د. فيليب، لبنان في التاريخ، طبعة فرنكلين (بيروت ـ نيويورك، ١٩٥٩) ص٥٤٦ ـ ٥٤٧.

٢ ـ كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، المكتبة البولسيّة (بيروت،١٩٨٨) ٣: ٢١٦ ـ ٢١٧؛ راجع: JESSUP H, *FIFTY THREE YEARS IN SYRIA*, I, PP. 66-78.

الإرساليّات "عاكسة الإتّجاهات الرئيسيّة للبناء الاستعماريّ". إلاّ أنّها قد تمكّنت من انتزاع نفر من أبناء الكنيسة القبطيّة لتؤسّس الكنيسة البروتستانتيّة هناك. وقد بدأت تلك الإرساليّات نشاطها الفعليّ بعد الإحتلال البريطانيّ لمصر. أمّا الإرساليّات الأميركيّة فقد انتقلت إلى مصر إبّان النزاعات الأهليّة التي حصلت في لبنان منتصف القرن التاسع عشر.

يبدو أنّ الأسرة المالكة في مصر قد ساعدت، إن لم تكن قد حرّضت، بطاركة الأقباط على محاربة البروتستانتيّة في وادي النيل. فعندما انتقل بطريرك الأقباط، كيريلُّس الخامس، إلى أسيوط سنة ١٨٩٧، ليقف في وجه النشاط البروتستانتيّ، وليمنع القبط من إرسال أبنائهم إلى مدارس التبشير، وليأمر الكهنة بأن يطوفوا على المنازل ليحرموا كلّ أب يرسل أولاده إلى هذه المدارس، إنّما هو سافر على متن باخرة وضعها تحت أمرته الخديويّ إسماعيل. ثمّ أعلنت الكنيسة القبطيّة الحُرُم ضدّ مَن يرسل أولاده إلى هذه المدارس أو يزور مكتباتها أو يقرأ كتبها أو يصادق أحدًا من المبشّرين[1]. وكان بطريرك الأقباط كيرلُّس الرابع (١٨٥٢ ـ ١٨٦٢) الملقّب بأبي الإصلاح، قد سارع إلى فتح عدد من المدارس، وإلى تطوير التعليم في مدارس الكنيسة القبطيّة عمومًا، ليقطع الطريق على ازدهار أعمال أولئك المبشّرين[2].

---

١ ـ راجع: هوج رينا، الأستاذ الجليل بين مرسلي وادي النيل، إتّحاد مدارس الأحد وإدارة المطبعة الإنكليزيّة الأميركانيّة (القاهرة،١٩١٧)؛ أسكاروس توفيق، نوابغ الأقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر، مطبعة التوفيق (القاهرة،١٩١٠)، ص١٦٠ ـ ١٩٦؛ عوض جرجس، مُصلِح عظيم (القاهرة،١٩١١).

٢ ـ راجع: نجيب يعقوب جرجس، موجز تاريخ بطاركة الإسكندريّة، دار برادى للطباعة (القاهرة،١٩٦٦) ص ١٠٧ ـ ١١٠.

على أيّ حال، فإنّ الدعوة البروتستانتيّة لم تلاقِ لها آذانًا صاغية في مصر. ويلاحظ أحد الباحثين الإنكليز[1] أنّ "تأثير الإرساليّات على المسيحيّين من سكّان البلاد المصريّة كان غير ذي شأن". أمّا في لبنان فإنّ الكنائس البروتستانتيّة، رغم الجهود التعليميّة والاجتماعيّة التي قامت بها الإرساليّات والمؤسّسات التابعة لها في البلاد، قد بقيت أقلّية وسط الكنائس التقليديّة. ويتركّز وجود هذه الأقليّة في العاصمة بيروت، إضافة إلى مجموعات متفرّقة في الجبل اللبنانيّ وفي الجنوب الأوسط. وبقي الوجود البروتستانتيّ محدودًا جدًّا في سائر بلدان هذه المنطقة.

---

١ - DEURBEN JOHN P., *OBSERVATION IN THE EAST, CHIEFLY IN EGYPT, PALESTINE, SYRIA, AND ASIA MINOR* (NEWYORK,1860) P. 67.

الوحدة البروتستانتيّة والحركة المسكونيّة

إلتقى البادري فرنان بورتال[1] صدفة في مادير[2] سنة ١٨٩٠، باللورد هاليفاكس[3] الأنغليكانيّ فتصادقا. ولم يكن بورتال يعرف شيئًا عن الأنغليكانيّة، ففكّر أوّلاً في ارتدادات فرديّة لبعض الأنغليكان إلى الكثلكة. وظنّ أنّ الكنيستَين، الكاثوليكيّة والأنغليكانيّة، ستتوحّدان قريبًا، أي بعد اتّفاق الرؤساء الروحيّين، ظنًّا منه أنّ الأنغليكان قد حافظوا على أهمّ ما في التقليد الكاثوليكيّ، لا سيّما التعاقب الرسوليّ للأساقفة. لكن، في سنة ١٨٩٦، أعلنت روما أنّ الرسامات الأنغليكانيّة باطلة. فأُحبط حلم هذه الوحدة. وقد ظنّ عندئذ بورتال أنّ الوحدة لن تأتي إلاّ من القاعدة، أي من تغيير داخليّ لدى المسيحيّين. لذا يجب العمل ببطء على تقريب الذهنيّات والبحث الفكريّ. فأسّس مجلّة تهدف إلى هذا العمل باسم "المجلّة الكاثوليكيّة للكنائس". ثمّ وسّع آفاقه نحو الأرثذوكس والبروتستانت. وبالرغم من إبعاده سنة ١٩٠٨، ظلّ بورتال يعمل في الخفاء. بين سنتَي ١٩٢١ و١٩٢٥، فاستؤنفت المحادثات مع

---

١ - فرنان بورتال FERNAND PORTAL (١٨٥٥ - ١٩٢٦): بادريّ لعازريّ فرنسيّ.

٢ - ماديرا MADÈRE : MADÈRE, MADERA جزيرة برتغاليّة في الأطلسي غربيّ المغرب، قاعدتها "فونشال".

٣ - إدوارد فريديريك لندلي وود هاليفاكس EDWARD FREDERICK LINDLEY WOOD HALIFAX (١٨٨١ - ١٩٥٩): سياسيّ بريطانيّ، دخل مجلس العموم عن المحافظين ١٩١٠، وكيل وزارة المستعمرات ١٩٢٢، رئيس لجنة التعليم ١٩٢٤، رئيس لجنة الزراعة ١٩٢٤ - ١٩٢٥، الحاكم العام في الهند ١٩٢٦ - ١٩٣١، زعيم المحافظين بمجلس اللوردات ١٩٣٥، وزير الدولة لشؤون الحرب ١٩٣٥، لعب دورًا هامًّا في مفاوضات معاهدة ميونيخ عندما كان وزيرًا للخارجيّة ١٩٣٨ - ١٩٤٠ مؤيّدًا سياسة تشمبرلين الهادفة لمهادنة النازي، سفير بريطانيا في واشنطن ١٩٤١ - ١٩٤٦، مدير لجامعة أوكسفورد وشفيلد ١٩٤٨، له مؤلّفات منها "المشكلات الهنديّة" ١٩٣٢.

الأنغليكان في "مالين[١]" بقيادة الكاردينال "مرسييه[٢]". لكنّ موت بورتال ومرسييه وضع حدًّا لهذه المبادرة[٣].

على صعيد الوحدة البروتستانتيّة، كان الملك فريديريك غليوم الثالث[٤] السبّاق في السعي من أجل التوحيد، فقد فرض اندماج الكنيستَين اللوثريّة والكالفينيّة في كنيسة إنجيليّة موحّدة سنة ١٧١٨، في مملكته بروسيا، واقتدت به عدّة دول ألمانيّة. وبعد ١١٨ سنة، قام اتّحاد إنجيليّ عالميّ، سنة ١٨٤٦، يجمع البروتستانت بصرف النظر عن طوائفهم المختلفة. وفي سنة ١٨٦٧، جمع مؤتمر لَمْبث الأوّل ممثّلين من كلّ الكنائس الأنغليكانيّة الأسقفيّة في العالم. هذا المؤتمر يُعقد كلّ عشر سنوات. ثمّ توالت المؤتمرات، فكان المؤتمر العالميّ للكنائس المتجدّدة، فالمؤتمر المعمدانيّ العالميّ، فالرابطة اللوثريّة العالميّة، فالإتّحادات المسيحيّة للشبّان والشابّات[٥]...

وبعد مرور أقلّ من قرنَين بقليل على مبادرة الملك البروسيّ فريديريك غليوم الثالث، أي في سنة ١٩١٠، كان مؤتمر إدنبرغ[٦]، قد جمع، لأوّل مرّة، ممثّلين

---

١ ـ مالين MALINES : مدينة بلجيكيّة إسمها الفلمندي MECHELEN، مركز رئيس أساقفة بلجيكا.

٢ ـ ديزيريه ـ جوزيف مرسييه DÉSIRÉ - JOSEPH MERCIER (١٨٥١ ـ ١٩٢٦): أسقف مالين وكاردينال، له أعمال بالغة النبل في خلال الاحتلال الألمانيّ لبلجيكا إبّان الحرب العالميّة الأولى.

٣ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٦.

٤ ـ فريديريك غليوم أو فريديريش فيلهلم الثالث (١٧٧٠ ـ ١٨٤٠): ملك بروسيا ١٧٩٧، كسره نابوليون في يانا ١٨٠٦ وقسّم ممتلكاته في معاهدة تيلسيت ١٨٠٧.

٥ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٤.

٦ ـ إدنبرغ ÉDIMBORG, EDINBURGH : مدينة اسكتلنديّة، عاصمة اسكوتلندا، فيها قصر أثريّ رائع على ربوة بركانيّة، وجامعة شهيرة، منحها نشاطها الثقافيّ المميّز لقب "أثينا الجديدة".

عن كافّة الإرساليّات البروتستانتيّة. وكان بين الألف ومائتي ممثّل بعض الآسيويّين والأفريقيّين الذين عبّروا عن العثار الذي يشعرون به تجاه انقسام المرسَلين المسيحيّين الذين يعملون كلّ لحساب كنيسته أو جمعيّته[1]. وهكذا تبيّنت للمؤتمرين آفة الانقسامات على العمل التبشيريّ.

شدّد التقرير النهائيّ على "ضرورة تأسيس كنيسة غير منقسمة في كلّ بلد غير مسيحيّ"، وعلى أنّه "سيأتي يوم تحلّ فيه الكنائس المحليّة مشكلة الوحدة بنفسها بمعزل عن رغبات المرسَلين الغربيّين".

وإذ كان المؤتمرون لم يتمكّنوا من إقامة احتفال موحّد طوال المؤتمر، فقد وُلدت آنذاك فكرة "المسكونيّة"، ونقرّر عقد اجتماعات منتظمة، وأعطيت لجنة المؤتمرين إسم "المجلس العالميّ للإرساليّات"[2]. وكان المؤتمر الأوّل للجمعيّات الإرساليّة الإنجيليّة، عام ١٩١٠، نقطة الإنطلاق لنشأة مجلس الكنائس العالميّ، وفيه تتلاقى الكنائس للتعاون ولدراسة السبل للوصول إلى الوحدة. وقد بدأ عهد جديد من الحوار بين الكنيسة الكاثوليكيّة والكنائس الإنجيليّة[3].

من ميزات الحركة المسكونيّة المعاصرة أنّها لم تقتصر على جماعة مسيحيّة واحدة، بل شملت جميع الفئات المسيحيّة إلاّ بعض الفئات الصغيرة المتطرّفة. وقد

---

١ ـ قال ممثّل إحدى كنائس الشرق الأقصى في هذا المؤتمر: بعثتم إلينا بمرسلين عرّفونا بيسوع المسيح، فنشكركم على ذلك، لكنّكم حملتم إلينا أيضًا خلافاتكم، فالبعض يبشّر بالميثوديّة، والبعض باللوثريّة، والبعض بالمسيحيّة...نسألكم أن تبشّروا بالإنجيل وأن تدعوا يسوع المسيح يقيم بيننا، بقوّة الروح القدس، نريد كنيسة تطابق متطلّبات يسوع المسيح وتطابق أيضًا عبقريّات شعوبنا، كنيسة تكون كنيسة المسيح في الصين، كنيسة المسيح في الهند...

٢ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٤ ـ ٣٥٥.

٣ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

نشطت الحركة أوّلاً خارج الكنيسة الكاثوليكيّة بين الجماعات البروتستانتيّة التي يعود لها الفضل في تأسيس "مجلس الكنائس العالميّ"[٣].

إبّان الحرب العالميّة الأولى، أطلق الأسقف ناتان سودربلوم، أسقف أوبسالا[٤] اللوثريّ، نداءات إلى المسيحيّين من أجل سلام عالميّ. وبعد الحرب أسّس حركة "حياة وعمل" أو المسيحيّة العمليّة. فاجتمع في ستوكهولم سنة ١٩٢٥ ستّمئة مندوب من سبع وعشرين دولة، منهم الألمان وأعداؤهم القدامى وممثّلون عن الطوائف البروتستانتيّة وأرثذوكس أيضًا. فتدارسوا العلاقات القائمة بين الكنائس والمجتمع، وقضايا العدالة الاجتماعيّة وكيفيّة تطبيق المبادئ المسيحيّة في الحياة اليوميّة.

ثمّ جرى اجتماع ثانٍ في أوكسفورد[٥] سنة ١٩٣٧ حضره ممثّلون من مئة وأربع وعشرين كنيسة وأربع وأربعين دولة، قرّروا حقّ الحريّة الدينيّة في زمن سيطرة النظم الشموليّة في أوروبّا.

وفي خطّ مؤتمر "إدنبرغ"، وُلدت حركة "إيمان ونظام" حيث لعب الأنغليكان الدور الأكبر. جرى أوّل لقاء هامّ في لوزان[٦] سنة ١٩٢٧، حضره أربعمئة ممثّل من مئة وثماني كنائس حيث كثر عدد الأرثذوكس وحيث صار البحث في عدد كبير من

---

٣ ـ يثيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

٤ ـ أوبسالا UPPSALA : مدينة في شرق السويد شهيرة بجامعتها.

٥ ـ أوكسفورد OXFORD : مدينة في إنكلترا عند ملتقى نهرَي "التاميز" و"شيرول"، اشتهرت بجامعتها التي يرتقي عهدها إلى القرن الثاني عشر.

٦ ـ لوزان LAUSANNE : مدينة في جنوب غربي سويسرا على بحيرة "ليمان"، عُقدت فيها معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء ١٩٢٣، شهيرة بجامعتها.

العقائد كلاهوت الكنيسة ولاهوت الخدمة. وبالرغم من تسرّع البعض لبلوغ الوحدة، قرّر المجتمعون أنّ عامل الوقت مهمّ في البحث عن الحقيقة وأنّه لا يحسن الوصول إلى الوحدة بأيّ ثمن.

وعُقد مؤتمر ثانٍ في إدنبرغ سنة ١٩٣٧ ازداد فيه عدد المجتمعين عن ذي قبل، وطالبوا بتفهّم متبادل بين المؤمنين لعقائد كلّ طرف، وأعلنوا أنّ الوحدة قد أُعطيت ثمرها. ومن أقوال وليم تمبل في هذا المجال:

"لا نستطيع البحث عن الوحدة في ما بيننا لو لم نكن قد حصلنا عليها بالفعل. والذين لا يوجد أيّ رابط مشترك بينهم لا يتألّمون من الإنفصال".

كان كثيرون قد شاركوا في الحركتَين. من هنا جاءت فكرة إيجاد جهاز مشترك هو "مجلس الكنائس المسكونيّ" ليضمّ "حياة وعمل" و"إيمان ونظام".

هذا القرار الذي اتُّخذ في "أوترخت" سنة ١٩٣٨ لم يُنفَّذ إلاّ بعد الحرب العالميّة الثانية سنة ١٩٤٨[١].

في خلال الحرب العالميّة الثانية، أوضح البروتستانت موقفهم ضدّ النازيّة في بنود ثمانية وُضعت في "بوميرول" عند مصبّ الرون، في أيلول (سبتمبر) ١٩٤١. وحين أخذت الكنيسة البروتستانتيّة موقفًا مبكّرًا ضدّ السياسة العرقيّة في ألمانيا، أُدخل العديد من أعضائها المعتقلات حيث استُشهد كثيرون في معتقلات الموت النازيّة في "بنهوفر" سنة ١٩٤٥. وفي هولّندا، منع الأساقفة كلّ الكاثوليك من الاشتراك في الحركة النازيّة الهولّنديّة. واتّفق الكاثوليك والبروتستانت على رفض نفي اليهود سنة ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٥٥.

فثار الألمان منهم وأوقفوا المسيحيّين المتحدّرين من أصل يهوديّ. وكان من بين الضحايا: إديث شتاين الراهبة الكرمليّة الفيلسوفة. وطلب الأساقفة إلى الموظّفين الهولّنديّين ألاّ يساهموا في عمليّة نفي اليهود والعمّال. وفي النروج وهولندا وبلجيكا، فإنّ الأسقف اللوثريّ، برغراف، اختار أوّلاً اللاعنف والمسالمة، لكنّه أخيرًا وقف مع المقاومة ضدّ النازيّة التي أرادت أن تخضع الكنيسة الوطنيّة. فاعترضت الإدارة الموقّتة للكنيسة على اضطهاد اليهود ومصادرة اليد العاملة وتجنيد الشباب[1]. وهكذا نرى أنّ مواقف المسيحيّين الأوروبيّين، على مختلف كنائسهم، بدت مواقف موحّدة بشّرت بقرب التقارب المسكونيّ.

---

١ ـ كمبي، دليل إلى قراءة تاريخ الكنيسة، مرجع سابق، ص٣٦٠ ـ ٣٦٢.

الفَصلُ السَّادِس

الكَنَائسُ الإنجيلِيَّة والبروتستانِتيَّة اليَوم

الكنيسَة المورافيَّة أو كنيسَة الإخوَة المتَّحدين؛ الكنيسَة الأنغليكانيَّة؛

الكنيسَة الأميركيَّة أو الهولنديَّة؛ الكنيسَة البروتستانتيَّة الأسقفيَّة؛

الكنيسَة المُصلحَة الإنجيليّة؛ الكنيسَة اليُونيفرسَاليَّة؛ الكنيسَة الميثوديّة الوسليّة؛

الكنيسَة الإنجيليَّة للإخوَة المتَّحدِين؛ الكنيسَة الميثوديّة البدائيَّة؛

كنيسَة يَسُوع المَسِيح لقدّيسِي آخِر الأيام؛ كنيسَة اسكُتلندا؛ الكنيسَة المشيَخيَّة المتَّحدَة؛

الكنيسَة المُصلحَة الأسقُفيَّة.

تعدُّد الكَنائِس الإنجيليَّة والبروتستانتيَّة اليَوم

بين نشوء الإصلاح الدينيّ في القرن الخامس عشر، وعصرنا الحاضر، تعدّد نشوء وتأسيس الكنائس الإنجيليّة والبروتستانتيّة في مختلف أقطار العالم، وخاصّة في العالم الجديد. سنحاول في هذا الفصل الأخير التعريف بأبرز تلك الكنائس، بحسب تاريخ أقدميّتها.

الكنيسة المورافيّة
أو كنيسة الإخوة المتّحدين

الكنيسة المورافيّة أو كنيسة الإخوة المتّحدين، والمعروفة أيضًا باسم "يونيتاس فراتروم UNITAS FRATRÚM"، هي كنيسة إنجيليّة دُعي أتباعها بالإخوة المتّحدين، وقد ظهرت هذه الكنيسة سنة ١٤٥٧ بين أتباع "جون هوس[1]"، الذين عُرفوا يومها

[1] ـ جون هوس (١٣٦٩ ـ ١٤١٥): مصلح دينيّ بوهيميّ هاجم أخطاء رجال الإكليروس فاكتسب عداوتهم، إلاّ أنّ الملكة صوفيا والأمبراطور ونسلاوس أيّداه، عيّنه الأخير عميدًا لجامعة براغ، شمله النزاع الذي كان قائمًا بين البابويْن المتنافسَين: غريغوريُس الثاني عشر (١٤٠٦ ـ ١٤١٥)، وبندكتُس الثالث عشر (بابا أفينيون ١٣٩٤ ـ ١٤٢٣)، اكتسب خصومة البابا يوحنّا الثالث والعشرين (بابا بيزا ١٤١٠ ـ ١٤١٥) أحد البابوات غير الشرعيّين الذي أمر بحرمانه من الغفران، كتب أهمّ مؤلّفاته في قلعة قرب طابور ومنها كتاب "إغليزيا" أو "الكنيسة"، دعاه الملك سيغموند ليدافع عن آرائه في مجمع كونستانس ١٤١٤ حيث حُكم عليه ظلمًا بالهرطقة، أُعدم حرقًا.

بالـ"الهوسيّين[١]". وعُرفت كنيستهم بكنيسة الإخوة، وكان سبب انفصالها عن كنيسة روما سنة ١٤٦٧ الخلاف على تكريس أحد الأساقفة. وقد أدّى الاضطهاد إلى طرد الإخوة من بوهيميا، فالتجأ سنة ١٧٧٢ فريق منهم إلى "سكسونيا" و"هرنهوت"، ووجدوا لهم ملاذًا في ممتلكات "جراف فون تسنتسندورف". دفع روح التبشير بانطلاق المرسَلين الإخوة إلى جزر الهند الغربيّة، وشمال جنوب أمريكا وأقطار آسيا وأفريقيا، وأُسّست بمساعيهم في ولاية بنسلفانيا الأميركيّة مدن حملت أسماء "بيت لحم" و"الناصرة" و"ليتيز"، وذلك في حوالى سنة ١٧٤٠، وسرعان ما غدت هذه مراكز لكنيستهم في أمريكا. ونظام هذه الكنيسة أسقفيّ معدّل، يتبع طقوسًا بسيطة.

الكَنيسَة الأنغليكَانيَّة

جاء انفصال كنيسة إنكلترا، أو الكنيسة الأنغليكانيّة، عن الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة عندما سحب الملك الإنكليزي هنري الثامن ١٥٠٩ ـ ١٥٤٧ اعترافه بسلطة البابا سنة ١٥٣٤، معلنًا أنّ الملك هو رئيس الكنيسة الإنكليزيّة. وتأيّد هذا بقرار السيادة في العام نفسه، وعيّن هنري رئيس أساقفة جديدًا لمدينة كانتربري، ووضع هنري

---

١ ـ الهوسيّون: أتباع المصلح الدينيّ جون هوس الآنف الذكر في بوهيميا ومورافيا، ألّفوا جبهة متّحدة ضدّ البابويّة والأمبراطوريّة الرومانيّة، طالبوا بحريّة الوعظ، وتناول العشاء الربّانيّ، وإلغاء السلطة البابويّة في الشؤون الدنيويّة، وإلزام القسس بالعودة إلى حياة الرسل الأوّلين، وإخضاع رجال الدين للعقوبات المدنيّة على ارتكاباتهم... عرفت مطالبهم بمطالب براغ ١٤٢٠، استطاعوا حمل الكنيسة الرومانيّة لأوّل مرة في تاريخها على توقيع وثيقة للتسليم بمطالبهم، انقسمت الجبهة إلى فريقَين، وقف أحدهما موقف الاعتدال، وهو فريق "الذخيريّين" أو "العشاربّانيّين"، والثاني فريق "الطابوريّين" أو "القدّاسيّين" الذي تطرّف، فأنكر الصلاة للعذراء والقدّيسين، وأجاز للعلمانيّين رجالاً ونساء أن يتولّوا وظائف الوعظ في الكنائس، ولم يعترفوا بوجود هيئة إكليروسيّة، على أنّ الفريقَين توافقا على اتّجاه واحد، هو الإمعان في محاربة مخالفيهم في الآراء.

الثامن يده على الأديرة وأملاكها. إلاّ أنّ هنري الثامن حافظ على جوهر الإيمان الكاثوليكيّ[1]. وفي سنة ١٥٣٩ أجاز إصدار الكتاب المقدّس بالإنكليزيّة، وأقرّ استعمال أوّل كتاب للصلاة العامّة سنة ١٥٤٩.

في زمن الملكة ماري تيودور[2]، إبنة هنري الثامن عادت إنكلترا إلى الكنيسة الكاثوليكيّة. غير أنّ الملكة إليزابيث الأولى (١٥٥٨ ـ ١٦٠٣) أعادت البروتستانتيّة إلى البلاد فأنشأت المذهب "الأنغليكانيّ" في صيغته النهائيّة. وحدّد قانون السيادة ١٥٥٩ الوضع الدستوريّ للكنيسة، وعلاقتها بالملك، وأوجب ظهور "البيورتان". وفي زمن الملك جيمس[3] عُقد مؤتمر "هامتون كورت" سنة ١٦٠٤ وفيه ساند الملك عقيدة الكنيسة الرسميّة. وكانت إجراءات رئيس الأساقفة "لود" ضدّ الكالفيّنين سببًا من أسباب الحرب الأهليّة سنة ١٦٤٢. جعل البرلمان المذهب المشيخيّ مذهب الدولة الرسميّ سنة ١٦٤٦، ولكن بعودة الملكيّة سنة ١٦٦٠ أُعيدت الكنيسة الأسقفيّة للبلاد، وأصبح كتاب الصلاة العامّة الكتاب الرسميّ الوحيد لإقامة الصلاة في الكنيسة الإنكليزيّة الرسميّة، وفرض قانون التناسق سنة ١٦٦٢ رسم جميع القساوسة وفق طقوس الكنيسة الأسقفيّة. وعلى الرغم من شتّى الاختلافات الداخليّة بقيت الكنيسة الإنكليزيّة منذ ذلك الحين ثابتة. ويتمسّك أتباع الكنيسة العليا بالطقوس، ويشدّدون على اتّباع النظام الأسقفيّ، في

---

١ ـ يتيم وديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

٢ ـ ماري تيودور MARIE TUDOR (١٥١٦ ـ ١٥٥٨): إبنة هنري الثامن من زوجته الأولى "كاترينا الأرغونيّة D'ARGON" الإسبانيّة، خلفت أباها ملكة على إنكلترا ثمّ تزوّجت فيليب الثاني الإسباني فألغت ما قام به والدها من تغيير في الدين واضطهدت أتباعه فأعدمت أكثر من مئتي معارض فلُقّبت بالملكة السفّاحة.

٣ ـ جيمس السادس JAMES (١٦٠٣ ـ ١٦٢٥): إبن ماري ستيوارت STUART ١٥٤٢ ـ ١٥٨٧ ملكة اسكتلندا ثمّ ملكة فرنسا بعد زواجها من فرنسوا الثاني، لجأت بعد أن ثار عليها الشعب السكتلنديّ إلى إنكلترا حيث أسرتها إليزابيت الأولى ثمّ قتلتها.

حين أنّ أتباع الكنيسة الدنيا يخالفونهم في بعض التنظيمات. ورئيس أساقفة كانتربري هو رأس الكنيسة، ويليه في المرتبة رئيس أساقفة يورك. وتسير العبادة بموجب طقوس معيّنة. وقوانين الإيمان المستعملة هي قانون إيمان الرسل، وقانون نيقيا وقانون الإيمان الأثناثيوسيّ. وتتمثّل العقيدة الأنغليكانيّة في التسع والثلاثين قاعدة للإيمان، وفي كتاب الصلاة العامّة، والكاثيكسموس، وكتابَين من كتب المواعظ.

الكنيسة المُصلحَة
الأميركيَّة أو الهولّنديَّة

الكنيسة المُصلحة الأميركيّة، وتُعرف أيضًا باسم الكنيسة المُصلحة الهولّنديّة، وهي التسمية الأشهر.

نشأت الكنيسة المُصلحة في هولّندا في القرن السادس عشر بفعل الإصلاح الكالفينيّ. وفي سنة ١٥٧١ قرّر سينودوس "أمدن" اتّباع النظام المشيخيّ، ورتّب للكنيسة طقوسًا خاصّة للعبادة. وأقام عقائدها على أصول الإيمان البلجيكيّة سنة ١٥٦١، ومبادئ "كاثيكسموس هيدلبرج" سنة ١٥٦٣.

أسّست هذه الكنيسة في الولايات المتّحدة الأميركيّة في زمن الإستعمار من قِبَل المهاجرين الهولّنديّين، حيث شُكّلت طائفة في مدينة أمستردام الجديدة سنة ١٦٢٨، وأعلن المجمع سنة ١٧٥٤ استقلاله عن سلطة أمستردام الهولنديّة. وفي سنة ١٧٦٦ حصلت هذه الكنيسة على براءة لتأسيس كلّيّة "كوينز" التي أصبح اسمها اليوم "جامعة رودجرز". وفي سنة ١٧٩٢ أقرّت الكنيسة دستورها، واتّخذ اسمها صفة رسميّة سنة ١٨٦٧.

الكنيســـــــــــة
البروتستَانتيَّة الأسقفيَّة

الكنيسة البروتستَانتيَّة الأسقفيَّة في الولايات المتّحدة الأميركيّة هي في الواقع جزء من الكنيسة الأنغليكانيّة، وقد أُقيمت شعائر العبادة لهذه الكنيسة أوّلاً في الولايات المتّحدة الأميركيّة سنة ١٦٠٧ بمدينة جيمستاون بولاية فرجينيا. ونظّم الأنغليكان أنفسهم بعد الثورة الأميركيّة تحت إمرة "صموئيل سيبوري" أوّل أساقفتهم في الولايات المتّحدة سنة ١٧٨٤، وأقرّ المؤتمر العامّ الأوّل سنة ١٧٨٩ اسم الكنيسة، واتّخذ دستورًا لها، ونقّح كتاب الصلاة العامّة. وقد انتشرت هذه الكنيسة بسرعة في الولايات المتّحدة الأميركيّة.

أمّا عقيدة الكنيسة البروتستانتيّة الأسقفيّة فملتزمة بقانون إيمان الرسل والقانون النيقياويّ وقواعد الإيمان التسع والثلاثين.

الكنيســـــــــــة
المُصلحَة الإنجيليّة

الكنيسة المصلحة الإنجيليّة كنيسة بروتستانتيّة. تشكّلت باندماج الكنيسة المُصلحة في الولايات المتّحدة الأميركيّة سنة ١٩٣٤ مع السينودوس الإنجيليّ لأميركا الشماليّة، وهما جماعتان انبعثتا عن حركة الإصلاح الإنجيليّ في أوروبّا. وكان المهاجرون من سويسرا وألمانيا قد أقاموا جاليات في أمريكا ألحقوها بكنائسهم الخاصّة. وشكّلت الكنيسة المُصلحة في الولايات المتّحدة، التي عُرفت زمنًا باسم الكنيسة الألمانيّة المُصلحة، أوّل سينودوس لها سنة ١٧٤٧ واتّخذت لها دستورًا سنة ١٧٩٣. أمّا

السينودوس الإنجيليّ لأميركا الشماليّة[1] فقد أُسّس في "غرافوا" سنة ١٨٤٠، باتّحاد المسيحيّين اللوثريّين والمصلحين.

تسير الكنيسة الإنجيليّة والمُصلحة بموجب النظام المشيخيّ. وتتبع دستور "كاثيكسموس هيدلبرغ" الصادر سنة ١٥٦٣ بصفته دستورًا لعقيدتها. ولهذه الكنيسة إرساليّات في العالم وبعض المؤسّسات التربويّة. وقد قامت حركة لاتّحاد الكنائس الإنجيليّة والمُصلحة والكنائس الجمهوريّة المسيحيّة، إلاّ أنّ هذه الحركة لم تنجح حتّى الآن لأسباب مختلفة.

الكنيسة اليُونيفِرسَاليّة

الكنيسة اليونيفرساليّة الأميركيّة: كنيسة بروتستانتيّة. يقوم اعتقادها على أنّ الخلاص يتمّ لكلّ إنسان بواسطة نعمة يسوع المسيح الإلهيّة، وأصبح "جون موري" من غلوسستر بولاية ماساتشوستش الأميركيّة قسّيسًا لأوّل كنيسة يونيفرساليّة في الولايات المتّحدة، وأقرّ مجمع فيلادلفيا سنة ١٧٩٠ قبول النظام الكنسيّ الجمهوريّ وقواعد الإيمان، وتحوّلت الحركة عن العقيدة الكالفينيّة حوالى ١٧٩٦ ـ ١٨٥٢، متّخذة اليونيتريّة عقيدة لها، وأقرّ ميثاق "ونشستر" سنة ١٨٠٣ بأبوّة اللّه الشاملة، وسلطة المسيح الروحيّة، والاتّحاد في النهاية مع اللّه.

---

١ ـ يجب ألاّ يُخلط بين هذا السينودوس والكنيسة الإنجيليّة التي اتّحدت مع الإخوة المتّحدين في المسيح سنة ١٩٤٦ ليشكّلوا الكنيسة الإنجيليّة للإخوة المتّحدين.

الكنيســــــــة
الميثوديّة الوسليّة

الكنيسة الميثوديّة الوِسليّة: هي فرع من "الميثوديست"، نشأ فـي إنكلترا بعد موت "جون وِسلي WESLEY" (١٧٠٣ - ١٧٩١) وأتباعه الذين قرّروا، بعـد مؤتمـر عُقد سنة ١٧٩١، أن يتبعوا بدقّة الخطّة التي تركها لهم "وِسلي". وقد جرت انفصالات وانشقاقات عن هذه المنظّمة الرئيسيّة، ولكنّه باندماج الميثوديست البدائيّين والميثوديست المتّحدين مع الميثوديست الوسليّين سنة ١٩٣٢، عادت هذه الجماعات فاتّحدت.

الكنيسَة الإنجيليَّة
للإخوَة المتَّحدِين

الكنيسة الإنجيليّة للإخوة المتّحدين: كنيسة بروتستانتيّة ظهرت من اندمـاج الكنيسة الإنجيليّة مع كنيسة الإخوة المتّحدين في المسيح سنة ١٩٤٦. وكانت الأولى قد أُسّست سنة ١٨٠٧ بقيادة "يعقوب ألبرايت"، الذي كان فـي البدء لوثريًّا، إلاّ أنّه عاد فأصبح ميثوديًّا. أمّا الثانية فأسّسها "وتربين ومارتن بوم" سنة ١٨٠٠. وتتبع هذه الكنيسة عقائد إيرونيمُس والنظام الأسقفيّ، وتشدّد كثيرًا على مسؤوليّة الفرد أمام اللّه.

الكنيســــــــة
الميثوديّة البدائيّة

الكنيسة الميثوديّة البدائيّة: فرع من الميثوديست، شكّلته جماعة انشقّت عن الكنيسة الميثوديّة الوسليّة في إنكلترا. وتمّ هـذا الانفصـال بقيادة "هيو بورن" و"وليم كلاوز"،

اللذَين طُردا من جماعة الميثوديست سنة ١٨١٠ بسبب إقامتهما اجتماعات عامّة في المخيّمات، وكان لهذه الكنيسة كيان مستقلّ حتّى سنة ١٩٣٢، عندما عادت واندمجت مع الميثوديست الوسليّين والميثوديست المتّحدين، وأُدخل فرع لها إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة بواسطة جماعات من المهاجرين حوالى سنة ١٨٣٠.

كنيسَة يَسُوع المَسِيح
لقدِّيسِي آخِرِ الأيَّام

كنيسة يسوع المسيح لقدّيسي آخر الأيّام: فرقة دينيّة أسّسها سنة ١٨٣٠ جوزيف سميث في نيويورك، ويُدعى أتباعها "المورمون" ومركزهم الرئيسيّ في مدينة "سولت ليك". ترتكز عقائدهم على الكتاب المقدّس، وكتاب مورمون، ورؤى سميث، كما وردت في كتابَي "العقائد والمواعيد"، و"الدرّة الثمينة" وهي أقوال تُعزى إلى موسى وإبراهيم، وتتشكّل الكنيسة من ١٢ رسولاً، وتتميّز بأهميّة الكشف والتشديد على فصل الحياة الروحيّة عن الزمنيّة، وقد أباحت هذه الطائفة في طور من أطوارها تعدّد الزوجات. وقد توسّعنا في التعريف بها في مجال التعريف بالفرق الحديثة في هذه الموسوعة.

كنيسَــــــة
اسكتُلندا الحُرَّة

كنيسة اسكتلندا الحرّة: أسّست سنة ١٨٤٣ بانفصال جماعة من كنيسة اسكتلندا بقيادة توماس تشالمرز، بسبب النزاع حول السيادة بين الكنيسة والدولة، ولتدخّل الدولة

في شؤون الكنيسة. وفي سنة ١٩٠٠ اتّحد القسم الرئيسيّ من الكنيسة الحرّة مع الكنيسة المشيخيّة المتّحدة، مشكّلين بذلك كنيسة اسكتلندا الحرّة. وفي سنة ١٩٢٩ عاد هؤلاء فاتّحدوا مع كنيسة اسكتلندا.

الكنيســـــة المشيَخيَّة المُتَّحدَة

الكنيسة المشيخيّة المتّحدة: كنيسة من المشيخيّين تشكّلت في اسكتلندا باتّحاد الكنيسة المنشقّة المتّحدة مع معظم فرق كنيسة الإسعاف سنة ١٨٤٧. واتّحدت الكنيسة المشيخيّة المتّحدة وكنيسة اسكتلندا الحرّة سنة ١٩٠٠ مكوّنتَين ما يُعرف بكنيسة اسكتلندا الحرّة المتّحدة. واتّحدت هذه الكنيسة المتّحدة مع كنيسة اسكتلندا الحرّة سنة ١٩٢٩. وتشكّلت الكنيسة المشيخيّة المتّحدة لشمال أمريكا سنة ١٨٥٨ باتّحاد الكنيسة المشيخيّة المشاركة مع الكنيسة المشيخيّة المصلحة المشاركة.

الكنيســـــة المُصلحَة الأسقُفيَّة

الكنيسة المصلحة الأسقفيّة: تشكّلت سنة ١٨٧٣ من أعضاء الكنيسة الأسقفيّة البروتستانتيّة ممّن انسحبوا بسبب خلاف حول الطقوس[1].

١ ـ راجع الكنيسة البروتستانتيّة الأسقفيّة أعلاه.

الكنيسة الميثوديّة المتَّحِدة

الكنيسة الميثوديّة المتّحدة: جماعة من المخالفين للكنيسة الرسميّة في إنكلترا. ظهرت سنة ١٩٠٧ من اندماج ثلاثة فروع من الميثوديست، وهي: الميثوديست أصحاب الاتّصال الجدد، وكنائس الميثوديست المتّحدة، ومسيحيّو الكتاب المقدّس. أمّا الميثوديست المتّحدون فهم اتّحاد أكبر تمّ سنة ١٩٣٢، عندما اندمج معهم الميثوديست الوسليّون وكنيسة الميثوديست البدائيّة.

NOBILIS
بيروت